الدكتور أحمد عبد الرحمن

قضية تطوير الخطاب الديني

تطوير الدعوة إلى الإسلام

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب:
تطوير الدعوة إلى الإسلام
اسم المؤلف: دكتور أحمد عبد الرحمن
الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٢٨٠ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٦٤٠٢
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977-17-7497-2



دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبد الرحمن، أحمد
قضية تطوير الخطاب الديني: تطوير الدعوة إلى الإسلام / أحمد عبد الرحمن
- القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٩
٢٨٠ صفحة؛ ٢٤ سم
تدمك ٢ ٧٤٩٧ ١٧ ٩٧٧
١- الإسلام - دعوة
أ- العنوان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

(النحل: ١٢٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

● على امتداد أكثر من ربع قرن كنت أبحث عن مؤلفات علمية في المنهج الدعوي ، وفي وسائل الدعوة ، فلم أجد إلا فقرات أو فصولاً في كتب تتناول مسائل متباينة [1] .

● ولفظ الدعوة لفظ مشترك . فقد يُفهم بمعنى الإسلام نفسه ، وقد يفهم بمعنى الجهود التي تبذل لاستمالة الناس إلى طاعة الله .

- وتبعاً لهذا فُهِمَ « تطوير الخطاب الديني » بمعنيَيْن : الأول هو تطوير الإسلام نفسه ، وهو موضوع الجزء الثاني من كتابي هذا ؛ والمعنى الثاني هو : تطوير الدعوة إلى الإسلام ، وهو موضوع هذا الجزء الأول من الكتاب .

- وحدث خلط آخر بسبب الاشتراك في لفظ الدعوة فمعظم المؤلفات التي تحمل عنوان « الدعوة » تعالج مسائل إسلامية من علوم التوحيد وعلوم الحديث والفقه ، ومعها عناصر من « الدعوة » بالمعنى الثاني .

● ولقد طُفْتُ بمعارض الكتب العديدة ودرتُ على المكتبات الكبرى بالقاهرة ، أبحث عن مؤلفات تعالج المنهج الدعوي ، ووسائل الدعوة ، وفن الدعوة ، أو « علم الدعوة » فلم أجد منها شيئاً ، لكنني وجدت عدداً من الكتب التي تحمل عنوان الدعوة وتشتمل على مجموعات من الخطب التي ألقاها دعاة كبار ثم نشروها في كتب ليستفيد منها المبتدئون . ويندر أن تجد في المكتبات العامة مؤلفات في « علم الدعوة » .

---

(١) الخطابة فقط هي التي كُتب فيها ، ابتداء من أرسطو الفيلسوف الإغريقي القديم (٣٨٤-٣٢٢ق .م). وقد تُرجم كتابه في العصر الأموي إلى العربية ، ثم لخصه ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥ هـ =١١٢٦-١١٩٨م) ، وحققه الدكتور عبد الرحمن بدوي سنة ١٩٥٩م . ولا يستطيع الداعية المسلم أن يستفيد منه إلا أقل القليل .

● والنقيصة المشتركة في تلك الفصول والفقرات هي غياب المنهجية التي تصنف المواد العلمية وتبني منها نسقاً منظماً ، وتعرضها في أبواب وفصول ، دون أن تخلطها بمسائل من خارج نطاق «علوم الدعوة» .

● وتغيب عن المؤلفات الحديثة بصفة عامة العناية بالتطورات والمستحدثات والتحديات المعاصرة الهائلة ، وهي التي كان ينبغي التركيز عليها وتأصيلها لمواجهة الهجمة الشرسة على الإسلام تحت شعار تطوير الخطاب الديني .

● وكان المفهوم الضيق للدعوة وراء هذه المناقص العديدة .

وعلى هذا وجدت أن العلاج يتطلب الأخذ بالمفهوم الواسع للدعوة بوصفها تشمل كل جهد يبذله العلماء المسلمون لاستمالة العصاة المسلمين إلى التوبة والعودة إلى رحاب الطاعة ، وكل عمل يقومون به لبيان حقائق الإسلام لغير المسلمين لإزالة سوء فهمهم له ، وإطفاء نيران الكراهية لأهله ، وإقناع بعضهم باعتناقه ونبذ الأفكار والفلسفات والأديان الباطلة التي يعتنقونها .

- وفي هذه الدراسة سآخذ بهذا المفهوم الواسع السديد . فتأليف قصة قصيرة أو رواية طويلة أو مسرحية تحمل القيم الإسلامية إلى الناس، عمل دعوي . وتأليف كتاب إسلامي، وكتابة مقال علمي أو أدبي يشرح عقيدة إسلامية أو شريعة قرآنية ، عمل دعوي . ودرس في تاريخ الإسلام يعطيه معلم لتلاميذه ، أو محاضرة يلقيها أستاذ على طلابه ، عمل دعوي . وقصيدة شعر تصف تضحيات الصحابة ، عمل دعوي . وكتاب تراثي يخدم الدعوة يحققه محقق ، عمل دعوي . وكل من ينشئ أو يدير أو يمول جهود نشر الإسلام ، يقوم بعمل دعوي .

بهذا المفهوم الواسع نستطيع أن نواجه الهجمات العلمانية المتوالية ضد ديننا ، وقد توسَّلَ الأعداء بكل وسيلة علمية وتربوية وفنية وصحافية ، وإذاعية . ومن الحماقة بمكان أن ندع وسيلة متاحة ، لأي سبب كان ، وننبذها ، لكي يستأثر بها الأعداء .

- ولابد من تطويرات واسعة وعميقة في مناهج الدراسة في كليات الدعوة ومعاهدها . فإن « مضمون الدعوة » - أعني الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً - يشغل مساحة واسعة في تلك المناهج ، في حين تنزوي « علوم الدعوة » - أعني منهج الدعوة ووسائلها - في حيز ضيق . فثمة أربع مواد دعوية في السنة الأولى هي : الدعوة الإسلامية ، والإعلام الإسلامي ، وعلم نفس الداعية ، والخطابة ، إلى جانب اثنتي عشرة مادة علمية ، هي : القرآن الكريم ، ودراسات في علوم القرآن ، ودراسات في علوم الحديث ، والسيرة النبوية ، والفقه ، والعقيدة ، واللغة العربية ، والأدب ، والملل والنحل ، وجغرافية العالم الإسلامي ، والنظم الإسلامية ، واللغة الأجنبية .

- ويتكرر هذا التوزيع في السنوات الثلاث ، مع اختلافات يسيرة .

- ولا ريب أن كل المواد المذكورة مهمة جداً لتربية الدعاة ، بل إن ثقافة الداعية يجب أن تمتد لآفاق أرحب وأعمق . لكن « علوم الدعوة » يجب أن تتسع وتتنوع أيضاً . وهناك والحمد لله إحساس عام بذلك ؛ ويعبر عن هذا الإحساس افتتاح قسم للإعلام في بعض الكليات الإسلامية ، يتعلم فيه الطالب الفنون الصحافية والإذاعية . وعندي أن جميع الطلاب في الأقسام الأخرى يجب أن يدرسوا هذه الفنون في مقررات موجزة .

- لكن أهم التطورات المطلوبة هي إدخال فنون المسرح والسينما في مناهج الدعوة ، وافتتاح أقسام متخصصة لها ، مثل أقسام الإعلام ، لأن أثر الفنون المسرحية - والسينما والتلفزة - صار اليوم هو أقوى المؤثرات في توجيه الجماهير . ولهذا سوف أخصص الفصل الثالث عشر من دراستي هذه لبيان أهمية هذه الفنون للدعوة ، وإزالة أي سوء فهم لها ، وتبديد الشكوك في حرمة ممارستها .

- إنني أطالب في هذه الدراسة بتأسيس « علم الدعوة الإسلامي » ؛ وهو علم موجود في ثنايا المصادر الإسلامية ، لكنه لم يتبلور في شكل نظام علمي متسق ، متميز ، له هيكل عام ، وأبواب وفصول معروفة .

- وهذه ليست حالة فذة . فنحن نعلم أن علم أصول الفقه لم يكن موجوداً في صورته الحالية ، وأن الإمام الشافعي رحمه الله (١٥٠-٢٠٤هـ =٧٦٧-٨١٩م) هو أول من حاول تأسيسه ، وقد صار الآن مفخرة علمية للمسلمين .

- وكان العرب يتكلمون العربية ، نثراً وشعراً ، ويحترمون قواعدها ، ويلومون أي إنسان يلحن فيها ، لكن علم النحو لم يتأسس إلا على يدي أبي الأسود الدؤلي في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ[1]، وقد تطور واتسع وتعمق حتى أصبح من أهم علوم العربية . وكذلك نشأت علوم البلاغة من فحص أساليب اللغة وتراكيبها ، ثم صياغة قواعدها .

- وعلم الدعوة الذي أطالب بتأسيسه يشبه علوم النحو والبلاغة وأصول الفقه ، لكن تأسيسه تأخر لأسباب عديدة ، ربما كان أهمها الاكتفاء بشرح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بالدعوة ، ودراسة بعض فصول هذا العلم ضمن المؤلفات الإسلامية العامة ، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو تفسير الآية رقم ١٢٥ من سورة النحل التي تتضمن أبواب المنهج الدعوي .

- هذا الشعور بالاكتفاء لابد أن يزايل الدعاة اليوم بعد التطورات الهائلة في وسائل الدعوة المضادة وأساليبها ووسائلها ، ولابد أن يحل محله إحساس قوي بواجب تأسيس هذا العلم الإسلامي ، بجمْع عناصره معاً ، وتَجَنُّبِ خلطها بغيرها من العناصر ، وتحديد المفاهيم بدقة ، واستيعاب الوسائل الدعوية الحديثة ، دون تأخير .

● وفي ضوء الحقائق التي أسفر عنها البحث وجدت أن الباب الأول يجب أن يخصص لبيان اختلاف حال المخاطبين عن حال من سبقهم ، وأن الباب الثاني يجب أن يعالج اختلاف وسائل الدعوة وتطورها واقتراح وسائل جديدة ، ذلك لأن

---

(١) توفي سنة ٣٦هـ .

تطـور المـنهج الـدعوي يحتـاج إلى معرفـة تلـك الاختلافـات . ودراسـة أحـوال المخاطبين هي التي تبين خصائص التربة الاجتماعية والمناخ الثقـافي الـذي يخيـم على المخاطبين . وتطوير المـنهج الـدعوي هدفـه مواجهـة الأحـوال الجديـدة الـتي طرأت على المخاطبين ، والتحديات المستحدثة التي تواجه الدعاة ، وما تتطلبه مـن تمرس بالوسائل الجديدة والسيطرة عليها .

– وفي الباب الثالث عالجت قضية التطور والأصالة في المنهج الدعوي مستنداً إلى المعطيات التي أسفر عنها البابان الأول والثاني . والمنهج الدعوي له أصوله في الكتاب والسنة ، الأمر الذي استدعى الرجوع إلى أصول الفقه للتأكد من جواز التطوير والتحديث .

– وفي الأبواب الثلاثة بذلت جهدي في العناية بالمستجدات : في أحوال المخاطبين (في الباب الأول) وفي الوسائل (في الباب الثاني) وفي تطوير المنهج الدعوي (في الباب الثالث) . وقد ترابطت الأبواب الثلاثـة بهـذه الخاصـية المشـتركة ـ أعني بروز الجديد والعناية به ، وبذلك شكلت دراسة متماسكة متناغمة في أبوابها وفصولها .

– لكن العناية بالجديد والمتطور ، لم تصرفني عن بيان الأصول التي تبنى عليـها ، فظهر الجديد كنمو طبيعي للأصيل ، غير منفصل عنه ، ولا متعارض معه .

– وحرصت على صياغة القواعد الدعوية التي أسفر عنها البحث . فالعلم قواعد وحقائق . وعلم الدعوة ـ كأي علم آخر ـ يُبنى من القواعد والحقائق . وأشرت إلى الانتهاكات التي تقع اليوم لتلك القواعد والحقائق .

– ومن جهة التوثيق فضلت أمهات الكتب والمصادر الإسلامية ؛ وهذه هي الدرجة الأولى في التوثيق العلمي . لكن هذا لم يمنعني من الاستفادة من جهود المُحْدَثين ، فأخذت وتركت من المكتبة الإسلامية ، بما يخدم الخاصية العلمية المنضبطة التي أتمناها لهذا العلم الإسلامي .

وحين ضربت الأمثلة لأوْجُه الخلل والقصُور في مجال الدعوة الرسمي اقتصرت على ما يقع في بلادي ، تجنباً لأية حساسيات إقليمية أو شعوبية .

و يشهد الله أنني حاولت أن ألتزم الموضوعيـة ، وأتجنب الانحأياز لأي فكـرة أو مذهب أو شخص أو بلد . فهذه هي بدهيات البحث العلمي في الإسلام .

دكتور

أحمد عبد الرحمن

الباب الأول

بيان اختلاف حال المخاطبين

تمهيد للباب

• إن بيان اختلاف حال المخاطبين في هذا العصر عن حال الآباء والأجداد ، مهم لنجاح الدعوة والدعاة . وهذا البيان يتطلب الخوض في مسائل فكرية وثقافية واجتماعية وسياسية متباينة ، لأن الاختلاف الذي وقع شمل كل هذه المجالات .

وعلى ضوء هذا البيان يستطيع الدعاة أن يمارسوا الدعوة ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف:١٠٨) ، كما أراد الله تعالى لهذه الدعوة أن تسير على يدي نبينا محمد ﷺ وأيدي من اتبعه من المسلمين . وهكذا تظهر أهمية هذا المبحث للعيان . ولسوف نوفيه حقه من البحث بعون الله تعالى .

• لكن الخوض في مسائل فلسفية لا يعني أن الدعوة اختلطت بالفلسفة ، بل يعني أن الدعاة ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ يحتاجون إلى معرفة المذاهب الفلسفية الذائعة في عصرهم ، وخصوصاً تلك التي تزاحم الإسلام أو تعارضه أو تناقضه . وكذلك الخوض في مسائل سياسية ، لا يعني أن الدعوة اختلطت بالسياسة ، أو أن السياسة صارت باباً من أبواب «علم الدعوة» ، بل يعني أن على الدعاة الوقوف على التغيرات التي طرأت على أحوال بلادهم الإسلامية في المجالات السياسية ، لكي يتحركوا في دعوتهم ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ ولكي يتسلحوا بالمعارف اللازمة لمواجهة تلك التغيرات .

وهذا هو ما سأحاول عمله في هذا المبحث من هذه الدراسة . ولكن الوصف الكامل لكل الاختلافات بين حال المسلمين اليوم وحال الأجيال السابقة ، لا يمكن إتمامه في باب من كتاب ؛ إنه يحتاج إلى كتاب كامل . وأحسب أنه سيكون كتاباً كبيراً ، أو يتخذ موضوعاً لرسالة دكتوراه . وعلى الرغم من هذه الحقيقة أقول إن هذا الباب يضع يدي القارئ على الاختلافات الأساسية التي طرأت ، وعلى العوامل

التي أدت إليها إجمالاً ، وعلى الظروف التي تكفل لها البقاء - النافع منها والضار ، وعلى النتائج التي تمخضت عنها بعد قرون من بداية عهد الاستعمار الأوربي للعالم الإسلامي .

- وعلى كل داعية أن يدرس العلم أو الفن الذي يدعو من خلاله : فالمعلم يدرس علوم التربية ، والمحقق للتراث يدرس علم تحقيق التراث ، والمؤلف المسرحي يدرس أصول فن التأليف المسرحي ومدارسه ، والشاعر يدرس فن الشعر وقواعده ، وكاتب المقال يدرس قواعد كتابة المقال العلمي والأدبي ؛ ثم يسخر كل داعية علمه لصالح الدعوة الإسلامية . وهذه هي الدعوة ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ . هذا إلى جانب دراسة أحوال المخاطبين بطبيعة الحال ، فهذه الأحوال هي خصائص الحقل الذي يغرس فيه الدعاة عقائدهم الإسلامية .

* * *

الفصل الأول

آثار الاحتلال الأجنبي

سقوط البلاد المسلمة فريسة للاستعمار الأجنبي

● لأسباب عديدة تختلف من بلد إلى آخر ، سقط العالم الإسلامي فريسة للاستعمار الأجنبي :

فاحتلت إسبانيا الفلبين سنة ١٥٢١

واحتلت هولنده إندونيسيا سنة ١٦٠٦

وضمت روسيا «القرم» سنة ١٧٩٢

و كذلك ضمت روسيا أذربيجان سنة ١٨١٢

وارتبطت مشيخات الخليج ببريطانيا باتفاقيات سياسية سنة ١٨٢٠

واحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠

واحتلت بريطانيا عدن سنة ١٨٣٤

وأُخضعت البحرين للحماية البريطانية سنة ١٨٦١

وأُعلن خضوع الهند (وباكستان جزء منها) للتاج البريطاني سنة ١٨٧٧

واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١

وغزت فرنسا مصر سنة ١٧٩٨ ثم أجليت عنها سنة ١٨٠١ ، ثم احتلتها بريطانيا سنة ١٨٨٢

وأعلنت بريطانيا حمايتها للكويت سنة ١٨٩٩

واحتلت بريطانيا السودان سنة ١٨٩٩

واحتلت بريطانيا نيجيريا سنة ١٩٠٣

ودخلت أفغانستان تحت النفوذ البريطاني سنة ١٩٠٧

واحتلت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١

واحتلت فرنسا مراكش سنة ١٩١٢

وغزت روسيا وبريطانيا إيران سنة ١٩١٥

وفرضت فرنسا انتدابها على سوريا ولبنان سنة ١٩٢٠

ووقعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني سنة ١٩٢٠

واحتل الروس بلاد التتار سنة ١٩٣٩

واحتلت الصين تركستان الشرقية سنة ١٩٤٩

● لقد كان الإسلام هو السائد ـ ثقافة وحضارة ـ في العالم الإسلامي ، حتى سقطت البلاد المسلمة فريسة للاحتلال الإسباني والبرتغالي والبريطاني والفرنسي والهولندي والروسي والصيني والإيطالي . وبعد إحكام السيطرة على البلاد المسلمة شرع المستعمرون في تغيير النظم والشرائع والتقاليد ، وإحلال نظم وشرائع وتقاليد غير إسلامية محل نظائرها الإسلامية .

تغير أحوال المخاطبين في مصر

● ولْنأخذ مصر كمثال فمنذ عام ١٧٩٨م حين غزا «بونابرت» مصر ، أخذت أحوال المخاطبين في مصر تتغير جذرياً . فمن جهة ، أحضر المستعمرون معهم ٣٠٠ امرأة ، كُنَّ بمثابة البذرة الخبيثة لنشر البغاء في القاهرة . ويقول المؤرخ الأمريكي «كريستوفر هيرولد» في كتابه «بونابرت في مصر» : «وأفلحت نساء أخريات تنكرن في زي جند في فرق أزواجهن في التسلل إلى الناقلات البحرية . وبلغ عدد النساء المرافقات للحملة جميعاً نحو ٣٠٠ امرأة . »[١]

---

(١) هيرولد ؛ ص ٣٨ ، ص ٢١٧ .

- وكان الحجاب قبل الغزو الفرنسي سمة عامة محترمة مرعية لدى جميع المصريات ، حتى النصرانيات واليهوديات ، ولم تُرَ امرأة سافرة إلا زوجات القناصل . »[1]

- وبعد ١٤ شهراً من الاحتلال تغيرت الأحوال في القاهرة تغيراً شنيعاً . ويصف «الجبرتي» المؤرخ المصري الشهير ذلك الانقلاب الشنيع ضمن أحداث سنة ١٢١٥هـ فيقول : « . . . ومنها تبرج النساء ، وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء . وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ، ومع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم ، وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة . . . ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة . فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش . »[2]

- وسعى الفرنسيون إلى إصدار قوانين مدنية وجنائية لتحل محل الشريعة الإسلامية عن طريق ما يسمى «الديوان»[3].

- وأما «مينو» القائد الذي خَلَفَ «بونابرت» في قيادة الفرنسيين فقد غير شريعة الميراث الإسلامية ، وعطل العقوبات الجنائية الإسلامية ، وأنشأ محاكم جنائية تحت إدارة المحتلين[4].

● ولم تتوقف التغيرات بعد طرد الفرنسيين عام ١٨٠١م . فإن محمد علي الذي تولى الحكم سنة ١٨٠٥م اتبع سياسة إرسال البعثات إلى أوربا لتعلُّم الفنون الحربية الحديثة . وقد استخدم ضباطاً فرنسيين في أول محاولاته سنة ١٨٢٠م[5]. وقد بلغ عدد المبعوثين في عهد محمد علي من سنة ١٨١٣م إلى سنة ١٨٤٧م ٣١٩ طالباً[6].

(١) هيرولد ؛ ص ١٩٩
(٢) تاريخ الجبرتي ؛ جـ ٢ ص ٤٣٦
(٣) نفسه ؛ ص ٢٤٧
(٤) نفسه ؛ جـ ٢ ص ٥٠٩
(٥) عبدالرحمن الرافعي ؛ عصر محمد علي ؛ نشر دار المعارف ؛ ط ٤ سنة ١٩٨٢؛ص ٣٢١-٣٧٧ .
(٦) نفسه ؛ ص ٤٠٩

– وعاد المبعوثون يحملون أفكاراً ثقافية مجافية للثقافة الإسلامية : مثل الفرعونية المنافية للأخوة الإسلامية . واشتهر رفاعة رافع الطهطاوي بحمل بذور الثقافة الفرنسية إلى التربة المصرية . وكذلك فعل خير الدين التونسي في كتابه : « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك »[1].

وزعم إسماعيل خديوي مصر (١٨٦٣ – ١٨٧٩م) أن مصر أصبحت « قطعة من أوربا »[2]. ولكنها في الحقيقة صارت مستعمرة ، غارقة في الديون!

تغير أحوال المخاطبين في تركيا

وتركيا مثال آخر وقد كان تغير أحوال المسلمين الأتراك أعمق وأخطر من أية تغيرات أخرى في أحوال المسلمين بسبب الاحتكاك الكثيف بأوربا ، وتكوين أحزاب علمانية قامت بدور الاحتلال الأجنبي . وأعلن السلطان محمود الثاني (١٧٨٤-١٨٣٩) رغبته في تحويل بلاده إلى قطعة من أوربا ، وكذلك فعل ابنه عبد المجيد من بعده (١٨٣٩-١٨٦١)[3]. وفي إيجاز شديد ، هذه قائمة بتلك التغيرات التي فرضها أتاتورك ـ أول رئيس علماني لتركيا في العصر الحديث :

١- ألغَى أتاتورك نَصاً في الدستور التركي يقرر أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام.

٢- استبدل القوانين السويسرية بالشريعة الإسلامية [4].

٣- فرض الفلسفة العلمانية التي تقول إنه : لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين ، متبعاً في ذلك دول أوربا العلمانية .

٤- فَرَضَ رفع الآذان باللغة التركية بدلاً من العربية .

٥- استبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية .

---

(١) دكتور محمد محمد حسين ؛ الإسلام والحضارة الغربية ؛ نشر المكتب الإسلامي ؛ بيروت ؛ ط ٢ سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ؛ ص ٣٦

(٢) عبدالرحمن الرافعي ؛ عصر إسماعيل ؛ جـ ٢ ص ٨١

(٣) دكتور محمد محمد حسين ؛ الإسلام والحضارة الغربية ؛ ص ١٤

(٤) يلاحظ أن الباء تلحق بالمتروك

٦- فَرَضَ لبْس القبعة - وهي رمز مسيحي - على الأتراك بقانون ، وشنق الذين عارضوه من رجالات الإسلام .

٧- ألْغَى الخلافة سنة ١٩٢٤م ، وأعلن الجمهورية على النسق الأوربي .

- وخطورة هذه التغييرات في أحوال المسلمين الأتراك تتمثل في اتخاذها مثالاً يحتذى في البلاد الإسلامية الأخرى . وقد شُكلت في بلاد مسلمة عديدة أحزاب علمانية مثلما حدث في تركيا ، وأخذت تنادي بنقل التجربة التركية ، ونجح بعضها في استبدال القوانين الوضعية بالشريعة الإسلامية ، والحروف اللاتينية بالحروف العربية ، (كما حدث في إندونيسيا وماليزيا) ؛ وترددت مقولة : لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين ، وأعلن سياسيون عديدون أن أتاتورك هو مثلهم الأعلى ، ونقل كُتَّاب عرب كبار عبارات كُتَّاب أتراك بحروفها ، كقول محمود أسعد وزير العدل التركي إن القرآن شريعة الصحراء ، وهي المقولة التي رددها الدكتور زكي نجيب محمود كبير العلمانيين في مصر في النصف الثاني من القرن العشرين[1] .

● وقاومت الأمة التركية المسلمة ولا تزال تقاوم العلمانية ، وقد أفلحت في إحداث تغيير كبير في نوفمبر سنة ٢٠٠٢ حين فاز حزب العدالة الإسلامي بالأغلبية في المجلس النيابي ، وانفرد بالحكم لأول مرة في تاريخ تركيا الحديث الذي شهد حكومات ائتلافية بصفة دائمة .

وما حدث في مصر وفي تركيا من تغيرات حدث مثله أو قريباً منه في سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ودول المغرب العربي ، وكذلك في الهند وباكستان وأفغانستان ، والدول الإفريقية المسلمة .

● ولا تتسع هذه الدراسة لوصف تلك التغيرات في كل الدول ولذلك أكتفي بحالتي مصر وتركيا كنماذج .

- ويمكن القول إن مجمل التغيرات التي حدثت اتخذت شكل « هجين » ثقافي . وهو عبارة عن خليط متضاد من عناصر إسلامية وأخرى علمانية . وآثاره في

---

(١) تجديد الفكر العربي ؛ ص ١٩٩

المجتمعات المسلمة مماثلة لآثاره في مصر وتركيا . فالتغيرات التي طرأت على المخاطبين المسلمين في تركيا ومصر طرأ مثلها أو قريباً منها على سائر الدول المسلمة وإن تأخر التغيير أو كان أعمق . ففي الجزائر - مثلاً - كان الاستعمار الفرنسي استيطانياً ، وزعم أن الجزائر جزء من فرنسا ، وأحل اللغة الفرنسية محل العربية ، الأمر الذي لا يزال يشكل معضلة عويصة للجزائريين . ويعاني الماليزيون - مثل الجزائريين - من معضلة اللغة الإنجليزية السائدة منذ عهد الاستعمار البريطاني ، ويجاهدون لإحلال لغتهم القومية محلها . وفي نيجيريا وبعض الدول الإفريقية تسود الإنجليزية ، لأنه لا توجد لغة قومية تصلح للتعبير عن الآداب والعلوم والفنون .

جهود المنصرين في تكوين الهجين الثقافي

● بعد السيطرة الإدارية والسياسية والاقتصادية والتربوية على البلاد أفسح الاستعمار المجالات أمام التنصير و حَمَاهُ ومَوَّلَهُ [1]. وقد بذل المنصرون جهوداً جبارة لتغيير عقائد المسلمين وأخلاقياتهم وتقاليدهم، بُغْيَة تنصيرهم، أو إخراجهم من الإسلام إلى الكفر إذا لم يتيسر إدخالهم في المسيحية . وبوسعنا أن نرى ضخامة تلك الجهود التي بُذلت منذ بداية القرن العشرين إلى الآن من خلال وثائق مؤتمر «أدنبرج» للتنصير سنة ١٩١٠م . فهي تبيِّن أن :

- عدد المنصرين البروتستانت بلغ ٩٨٣٨٨ منصراً ،
- وكانت تدعمهم لجان بلغ عدد أعضائها ٥٥٠٠٠٠٠ عضواً ،
- وبلغ عدد مُوزعي الكتاب المقدس (عندهم) ٩٢٩١٣ موزعاً ، وقد أسهموا في الوعظ والتنصير ،
- وبلغ عدد المعاهد الكنسية ١٦٦٧١ معهداً ،
- وعدد إرساليات التنصير العامة ٣٤٧٨ إرسالية ،

---

(١) راجع : دكتور مصطفى خالدي ودكتور عمر فروخ ؛ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ؛ ص١١٣ ، ص ١٤٤ .

- وعدد الإرساليات من الدرجة الثانية ٣٢٠٠٩ إرسالية ،
- وبلغ عدد التلاميذ ١١٠٦٠٢ تلميذاً ،
- وكانت تحت إدارتهم ٨١ مدرسة وكلية التحق بها ٧٩٩١ طالباً ،
- وكان عندهم ٤٨٩ مدرسة لتعليم اللاهوت وتخريج المنصرين ، التحق بها ١٢٥٤٣ طالباً ،
- وكانوا يديرون١٥٩٤ مدرسة ثانوية ، بلغ عدد تلاميذها ١٥٥٤٢٠ تلميذاً ،
- وكان عندهم ٢٨٩٠١ مدرسة ابتدائية بلغ عدد تلاميذها ١١٦٥٢١٢ تلميذاً ،
- وأدار المنصرون ١١٣ مدرسة رياض أطفال ، كان بها ٤٧٠٣ أطفال ،
- وأسست الإرساليات ٥٥٠ مستشفى و ١٠٢٤ صيدلية ،
- وكان لديها ١١١ مجلساً طبياً ، و٩٢ جمعية للممرضات ،
- وكان لديهم ٢٦٥ ملجأ للأيتام و٨٨ ملجأ للبرص و٢١ ملجأ للأطفال البرص ،
- وكان لديهم ٢٥ مدرسة للمكفوفين ،
- وأداروا ١١ معهداً للإسعاف ،
- كما أداروا ١٠٣ مستوصفات لمدمني الأفيون ،
- وأداروا ١٥ ملجأ للأرامل[١].

● هذه هي جيوشهم الثقافية الغازية سنة ١٩٠٢م. كانت جيوشاً للغزو الثقافي ، لا للتعليم ولا للطب ولا لرعاية الأيتام والأرامل والمرضى . وفي هذا يقول «هنري جِسَّب» أحد قادة المنصرين إن : «التعليم في الإرساليات إنما هو واسطة إلى غاية فقط ـ هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية» [٢].

---

(١) راجع كتاب : الغارة على العالم الإسلامي ؛ تأليف «إيه . لو شاتيليه» ؛ ترجمة محب الدين الخطيب ؛ ط ٤ ١٣٩٨ هـ المطبعة السلفية ومكتبتها ؛ ص ٤١،٤٢

(٢) التبشير والاستعمار ؛ ط ٥ ص ٦٦

● وقد نصَّروا أعداداً قليلة في البلاد العربية ، لكنهم نصروا أعداداً كبيرة من المسلمين في آسيا وإفريقيا . وتلك خسارة ضخمة لأمتنا الإسلامية .

أثر المدارس الأجنبية

● وإلى جانب المنصرين خَرَّجت المدارس الأجنبية كثيراً من أبناء المسلمين الذين فقدوا انتماءهم للإسلام وتعلقوا بالدولة التي درسوا لغتها : «ونال كثير منهم الحماية الأجنبية بواسطة القناصل ، فصاروا في حكم الأجانب في انتمائهم إلى الدول الأجنبية،وميولهم إليها،وعدم خضوعهم للنظم الأهلية القضائية والإدارية.»[1] وقد بلغ عدد المدارس الأجنبية في مصر في عهد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩م) ٧٠ مدرسة .

● بهذه القوى الكبرى جرت المحاولات لإحلال المسيحية محل الإسلام ، والتشريع الوضعي محل الشريعة الإسلامية ، وفكرة الوطنية محل عقيدة الأخوة الإسلامية ، والأخلاق الأوربية محل أخلاق العفاف والستر وطرز العمارة والتقويم والعادات والتقاليد الأوربية محل نظائرها الإسلامية . وهكذا اختلفت أحوال المسلمين اختلافاً واسعاً عميقاً عن أحوال من سبقهم من الآباء والأجداد المسلمين الخُلَّص الذين لم تكدِّر عقائدهم وأخلاقياتهم بمثل هذه التغيرات ، الأمر الذي أنشأ بيئات معاكسة للدعوة الإسلامية ، بل رافضة لشريعة الإسلام وأخلاقياته .

أثر الاستشراق في تغير حال المخاطبين

● وواجهت الدعوة الإسلامية هجمات المستشرقين والكتّاب الغربيين . وهناك ميراث طويل عريض للاستشراق في العالم الإسلامي منذ العهد الاستعماري الذي كان يرعى نشاطهم ويموله .

● ويتصف معظم إنتاج المستشرقين بالتحامل على الإسلام ، وإن اتخذ شكل الدراسات الجادة . وأدى ذلك إلى إحداث تغيرات سلبية عديدة في الأوساط المسلمة .

---

(١) عبدالرحمن الرافعي ؛ عصر إسماعيل ؛ جـ ١ ص ٢٠٩

● فيقول المهتدي محمد أسد ـ رحمه الله : « قد لا تتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير ، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب ، حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة للتحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام . »[1]

● ويعترف بعض المستشرقين بتحيزهم بدافع التعصب الديني ، وبتأثير المناخ الثقافي السائد الذي يعتبر الإسلام ديناً أدنى Islam is an inferior religion ، كما يقول « جِبْ »[2].

● وكان للاستشراق آثاره السلبية على الدعوة الإسلامية على المستوى الأكاديمي ، لأن بعض أساتذة الجامعات الحديثة آمنوا بأن المستشرقين نماذج رفيعة للدراسات العلمية ، ونشروا ذلك الإيمان بين الطلاب . واتخذ طلاب الدراسات العليا كتابات المستشرقين مراجع لدراساتهم العليا ، دون تمييز بين الغث والثمين .

● وواجه علماء المسلمين ذلك السَّيْل المنهمر من الكتابات الاستشراقية ، ومن الأفكار المنحرفة في رسائل الماجستير والدكتوراه في الجامعات الحديثة وآثارها السلبية العديدة على الفئات المثقفة من أبناء المسلمين .

التصدي للاستشراق

● أدرك المسلمون خطر الاستشراق على الأجيال الحديثة من أبناء المسلمين . وقد استطاع المنصرون منهم إخراج أعداد كبيرة من الإسلام وإدخالهم في المسيحية ، خصوصاً في آسيا وإفريقيا . واستطاع كثير من المستشرقين أن يشغلوا مناصب الأساتذة في الجامعات الحديثة في بعض بلاد العالم الإسلامي ليدرِّسوا عقائد

---

(١) محمد أسد ؛ الإسلام على مفترق الطرق ؛ ترجمة دكتور عمر فروخ ؛ ط ١ ص ١٥

(2) Gibb; Islam; the preface to the first edition; London 1978

الإسلام وشريعته وتاريخه ، ويشككوا أبناء المسلمين في قيمة كل ما هو إسلامي ويبخسوه حقه ، ويرفعوا من قيمة كل ما هو غربي أوربي وأمريكي ، ليكون اختيار الطلاب مضموناً لصالح الثقافة الغربية .

● وقد اعتبر الأستاذ المودودي أن إتاحة الفرص للمستشرقين ليحاضروا ويدرسوا لأبناء المسلمين في بلاد المسلمين لا تجوز بحال ، لأنه تناقض سافر[1]. وقد تصدى الأساتذة المسلمون للمستشرقين ، وفضحوا دعاواهم الزائفة . وربما كان أقوى رد على المستشرقين هو كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي : «دفاع القرآن ضد منتقديه»[2]. ومن أقوى الكتب التي فضحت ممارسات التنصير في العالم العربي كتاب : «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» ، الذي ألّفه الدكتوران مصطفى خالدي وعمر فروخ [3] وبذلك انحسر نشاط الاستشراق والتنصير في العالم العربي ، وعُرِف مستواهم العلمي الحقيقي ، الذي أتْلَفَه التعصب والتحيز .

التفكك السياسي

ولعل من أسوأ التغيرات التي طرأت على العالم الإسلامي بتأثير الاحتلال الأجنبي والاحتكاك بالفكر القومي الأوربي ، ظاهرة التفكك السياسي .

إن «الوحدة» خاصية أساسية في شخصية الأمة المسلمة ؛ وعلى الرغم من ذلك ابتلي المسلمون بالتفكك السياسي . وقد كانت الخلافة العثمانية آخر شكل للوحدة السياسية الرابطة للشعوب المسلمة ، على الرغم من الفساد والمظالم والانحرافات الخطيرة التي حاقت بتلك الخلافة . وتحت تأثير الفكر الأوربي القومي ، أُلْغَى

---

(١) راجع كتابه : الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ؛ تعريب خليل أحمد الحامدي ؛ نشر دار القلم ؛ ط ٣ ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ؛ ص ٢٧٠-٢٧١

(٢) ترجمه عن الفرنسية الدكتور كمال جادالله ؛ دار الجيل بالقاهرة ؛ ١٩٩٧م . وهناك أيضاً كتب عديدة تصدت للاستشراق ، منها كتاب محمد قطب : المستشرقون والإسلام ؛ نشر مكتبة وهبة ؛ بالقاهرة ؛ ط ١ سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ؛ وكتاب الدكتور مصطفى السباعي : الاستشراق والمستشرقون ؛ نشر المكتب الإسلامي ؛ بدمشق ؛ ط ٢ سنة ١٣٩٩هـ .

(٣) من منشورات المكتبة العصرية ؛ بيروت سنة ١٩٨٣م .

كمال أتاتورك الخلافة سنة ١٩٢٤م . وكانت البلاد المسلمة قد تساقطت تحت نير الاستعمار ، كما بينا في صدر هذا الفصل . وبعد جهاد مرير نالت البلاد المسلمة استقلالها ، وخرجت جيوش الاحتلال من أراضيها ، ولكن بعد أن رسَّخت الحدود الفاصلة بينها ، بحيث صار التفكك السياسي قريناً بالاستقلال . ونشبت الخلافات على الحدود بين الدول الحديثة ، ثم تطورت إلى قتال بين العراق وإيران ، وبين العراق والكويت ، وبين اليمن الجنوبي واليمن الشمالي ، وبين مصر والسودان ، ومصر وليبيا ، وتشاد وليبيا ، والمغرب والجزائر ، . . إلخ . ولا تزال مظاهر التفكك السياسي ملحوظة ، على الرغم من كل المحاولات لرأب الصدع من جانب الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي ولا تزال المفاوضات تجري لتحديد الحدود ، فتنجح مرة ، وتخفق مرات .

●وتعاني الأقليات المسلمة عناءً مريراً ، دون أن تجد عوناً من الدول المسلمة . فالمسلمون الكشميريون ـ حوالي عشرة ملايين نسمة ـ يجاهدون للاستقلال والتحرر من الاحتلال الهندي . والمسلمون الشيشان يقاتلون الاستعمار الروسي . والمسلمون في تركستان واقعون تحت الاحتلال الصيني والروسي . وتعاني الجاليات المسلمة في الغرب بعد ٢٠٠١/٩/١١م .

● وشعب فلسطين يقف في وجه الاحتلال الصهيوني الاستيطاني المدعوم عسكرياً ومالياً وسياسياً من الولايات المتحدة الأمريكية . وهذا هو العراق يتحول إلى مستعمرة أمريكية ، ولا يعلم مستقبله إلا الله تعالى . وكذلك أفغانستان . ويعجز المسلمون عن إرسال بندقية إلى غزة أو رام الله .

● أجل ، أدَّى تفكك الأمة المسلمة إلى العجز عن مساعدة الأقليات المسلمة ، لا لأنها لا تملك المساعدات ، ولكن لأنها لا تستطيع أن تغضب أمريكا وروسيا والصين والهند . والدليل على ذلك أن أفغانستان تلقتْ مساعدات مالية وعسكرية إسلامية هائلة حين كانت تقاتل ضد الاتحاد السوفيتي الشيوعي ، بمباركة أمريكا ومشاركتها .

● وبعد حادثة ٢٠٠١/٩/١١ الإرهابية ، لم تعد البلاد المسلمة تتطلع إلى أبعد من نفي تهمة الإرهاب عن نفسها . وكل مساعدة للمجاهدين الفلسطينيين تعتبر إرهاباً بمعايير أمريكا وأوربا ، فمن يجرؤ على مساعدتهم؟

● وتحت وطأة هذه التغيرات الهائلة يجب أن يعمل الدعاة المسلمون بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، و﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ وبأحدث وسائل الاتصال والتأثير . وتلك مهمة عسيرة ، لكنها ليست مستحيلة .

● ولابد من القضاء على التفكك السياسي الداخلي ، بتأسيس الوحدة الوطنية ، وعلى التفكك القومي ، بتدعيم مؤسسات الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي . والكلمة الإسلامية على لسان الداعية أو بقلمه لها مفعولها في حشد الجماهير لتحقيق غاياتنا الإسلامية النبيلة في الوحدة السياسية القوية التي يعمل لها العالم ألف حساب .

* * *

الفصل الثاني

الغزو الثقافي

الفلسفات المادية

● يقول «ولْ ديورانت» : «كانت أوربا بعد النهضة عبارة عن عبادة للدولة ، وللمال ، وللترف الحضري ، وللتكلف والافتعال ، والرذيلة»[1]. وكان ذلك بمثابة ردة عن المسيحية ، وانصياعاً للفلسفات المادية التي لا تؤمن بالله ، ولا تعترف برسول أو كتاب منزل . ثم حملت أوربا هذه التوجهات إلى البلاد والشعوب التي ابتليت باستعمارها .

- وقد أشرنا في الفصل السابق إلى التنصير والاستشراق اللذين وَجَدا الحماية والدعم من جنود الاحتلال ، ومن بعض الحكام . وبعد مثابرة طويلة الأمد ، استطاعوا نشر الفلسفات المادية بين أبناء المسلمين ، وتبلور «الهجين» الثقافي الذي يتركب من عناصر إسلامية وأفكار مادية متضادة معها ، حتى أصبح سمة أساسية للمجتمعات المسلمة .

● وعندما تأسست الكليات والجامعات الحديثة في العالم الإسلامي ، دَرَّس فيها أساتذة أوربيون وأمريكيون ، ووضعوا مناهج الفلسفة المادية ، حتى اعتقد بعض الطلاب أن الفكر الأوربي هو الفكر الوحيد ، الذي يستحق هذا الاسم ، وأنه لا فكر سواه [2]. وفي المقابل أخذوا ينظرون إلى الفكر الإسلامي على أنه فكر قديم ، عفى عليه الزمن ، ولم يعد يصلح للحياة ، ونعتوه بالماضوية والتحجر .

---

(١) ولْ ديورانت ؛ قصة الحضارة ؛ الإسلام والشرق السلافي ؛ ترجمة فؤاد أندراوس ؛ نشر مكتبة الأسرة ؛ المجلد ٢١ ؛ ص ٢٦٧ .

(٢) دكتور زكي نجيب محمود ؛ تجديد الفكر العربي ؛ دار الشروق ؛ ط ٥ سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م؛ ص ٥

● وفي المجال السياسي والاقتصادي ، انتشرت النظم الرأسمالية ، الليبرالية ، على أسس مادية في معظم بلاد المسلمين . وفي منتصف القرن العشرين وقعت الانقلابات العسكرية ضد الليبرالية ، وتبنت الأفكار الاشتراكية والشيوعية . وتكونت الأحزاب التي تعتنق تلك المذاهب وتحشد الرأي العام لتأييدها .

وهكذا خَيَّم على معظم الشعوب المسلمة مناخ مادي معتم ، ومسيطر ، وخَفُت الصوت الإسلامي ، وإن بقي الإسلام عميقاً في الضمائر .

● ولم يقف الغزو الثقافي المادي عند حدود النخب السياسية والثقافية ، وإنما امتد إلى الطبقة الوسطى ، فأخذت تحاكي الغربيين في الطعام والشراب والمسكن والأثاث ، وتلهث لتعلم اللغات الأجنبية ، وتفخر بالنطق الدقيق لألفاظها ، ولا يستحي أحدهم من الخلط بين الفاعل والمفعول في العربية !

- وهُجرت الأسماء العربية لتحل محلها الأسماء الأجنبية ، على واجهات المحلات والشركات والمصانع والمدارس والفنادق والمصارف والنوادي . وفي مصر صدر قانون يحتم كتابة اسم المحل بالعربية أولاً ، وتحته الاسم بالحروف اللاتينية . لكن السلطات لم تؤاخذ المخالفين ، فانقلب الوضع الآن بأن كتبت الأسماء بالحروف اللاتينية وحدها!

- والشيء نفسه حدث للبضائع المعروضة في الأسواق من أصناف الطعام والشراب واللباس والأثاث والزينة ، فالغالبية العظمى تحمل أسماء أجنبية ، على الرغم من أنها من المنتجات المحلية .

- وحرص التعليم الرسمي على نشر اللغات الأجنبية عن طريق المدارس الرسمية والخاصة ، الوطنية والأجنبية .

● لكن المعجزة الإسلامية كانت تنتظر الجميع . ففي هذا المناخ المادي ، المتغرب ، انبثقت الصحوة الإسلامية في الربع الأخير من القرن العشرين . وضاقت المساجد بالمصلين يوم الجمعة وفاضت على الشوارع والساحات المجاورة .

وراجت سوق الكتب الإسلامية ، حتى عرفت البوادي والنجوع النائية مؤلفات الغزالي وابن القيم وابن حزم . وعادت أعداد هائلة من النساء إلى ارتداء الخمار أو الحجاب ، الأمر الذي أقلق الماديين في الخارج ، لدرجة أنهم فَصَلوا الطالبات المحجبات من المدارس ، ولجأت فرنسا إلى سنٍّ قانون يحرم ارتداء الحجاب في مدارسها الرسمية . وعزفت الجماهير المسلمة عن التعامل مع المصارف الربوية ؛ فنشأت المصارف الإسلامية وازدهرت .

● وهكذا اشتد التصادم بين الشعوب المسلمة وبين الفئات المادية المتغربة ، أو بعبارة أخرى بين المركبات المتضادة «للهجين» السائد .

وفي معظم نواحي الحياة يقابلنا هذا التضاد . مثال ذلك الدستور المصري . فهو ينص على أن : «الإسلام دين الدولة»[1]. ولكنه ينص أيضاً على أن : «الشعب يسيطر على كل أدوات الإنتاج»[2]. وهذا مبدأ شيوعي مادي معروف .

-واضطرت النظم العلمانية التي تؤمن بالثقافة المادية إلى كبت الحريات العامة، فجندت الأجهزة العديدة لإحباط أية حركة شعبية . وَأُهْدِرَت أموالٌ باهظة على تلك الأجهزة ، على حساب الزراعة والصناعة والتعليم والتنمية . واضطرت النظم الحاكمة إلى الاقتراض من الخارج ، وأدمنت ذلك . ورحب الأوربيون والأمريكيون بإقراض المقترضين ، لأن ذلك هو السبيل إلى الهيمنة . ومع مرور الزمن ، تضاعفت أرقام الديون ، وفوائدها ، وانعكس ذلك كله على اقتصاد البلاد وحرية اتخاذها لقرارها ؛ وجاء عصر التبعية بعد ذلك .

● ومع ذيوع الفلسفة المادية في مجالات السياسة والاقتصاد ، صارت المعايير المادية هي التي يُحتكم إليها في تقرير الصواب والخطأ ، والجمال والقبح ، والمفيد والضار ، والمعروف والمنكر والتقدم والتأخر . وصار السفير الأمريكي يعترض على بعض ما تنشره الصحف من المقالات والتحقيقات . بل إن بعض الخطب المنبرية تعرضت لنقد السفير الأمريكي في بعض البلاد الإسلامية .

---

(١) انظر : الباب الأول من الدستور المصري الصادر سنة ١٩٧١ – المادة ٢ .

(٢) نفسه ؛ الفصل الثاني ؛ المادة رقم ٢٤

- وامتد نفوذ أمريكا إلى مجال التربية والتعليم ، فأخذت تعترض على تدريس بعض المواد الإسلامية . وأيدها كثير من المعادين للإسلام ، من الماديين من أبناء المسلمين ، فقلّصوا المواد الإسلامية ، وتوسعوا في دراسة التاريخ الوطني القديم والجديد ، ودراسة الفرعونية ، والفينيقية والآشورية ، ليزاحموا الإسلام ، ويضعفوا الولاء له ، وصار رفاعة الطهطاوي أهم من عمر بن عبد العزيز في المناهج الدراسية.

● يعرف المسلمون هذه الحقائق ، ويعرفون أن الإسلام يواجه اليوم فلسفات وأفكاراً ومذاهب معادية عديدة داخلة في «الهجين» الثقافي . وهذا يحتم على الدعاة التصدي لتلك الأفكار المعادية للإسلام ؛ فعمل الداعية : « يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك ، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحْسُنَ نباتُه ويكمل ريعُه»[1] .

● حقاً لقد واجه الإسلام أعداءً عديدين من الوثنيين والمشركين واليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ، لكن المواجهات الحالية مع الإلحاد والمادية والشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والشعوبية ، وحركات الردة : القاديانية والبهائية ، والصهيونية والعلمانية والاستباحة والبراجماتية الأمريكية ، والنسبية السوفسطائية الجديدة ، تجعل المواجهة أشد وأعنف ، خصوصاً في عصر تتسلح فيه القوى المعادية بكل الأسلحة : من تعليم وتربية وإعلام وآداب وفنون ، وتدخل بأجهزتها مخادع المؤمنين لِغوايتهم وتضليلهم وإبعادهم عن دينهم . ولم يتعرض آباؤنا وأجدادنا لمثل هذا الطوفان من العداء والغواية . ولم يواجه سلفنا الصالح من الدعاة العظام على امتداد تاريخنا الإسلامي فلسفات وأفكاراً بهذه الكثرة ، وقد دخلت في قلب فكرنا الراهن ، وشكلت هذا «الهجين» المتنافر الذي يسبب لنا الصدامات والنزاعات ، حتى الحروب الأهلية في بعض بلادنا المسلمة .

---

(١) أبو حامد الغزالي ؛ أيها الولد ؛ تحقيق علي محيي الدين علي القرْداغي ؛ نشر دار الاعتصام ، بالقاهرة ؛ ص ١١٢ .

● لقد تغير فكر المخاطبين، وتغيرت أخلاقياتهم ونظم حياتهم تغيرات عميقة . وعلى الدعاة أن يدرسوا هذه التغيرات جيداً ، ويطوروا الخطاب الديني ، ليواجهوا الدعوات المضادة التي تستخدم مناهج ووسائل متطورة بعيدة التأثير في الناس .

النسبية السوفسطائية : من الغرب إلى بلادنا

● ويصف « فوكوياما » التطورات التي حدثت في الغرب ثم انتقلت إلينا فيقول : إنه حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، كانت الأسرة في بريطانيا والولايات المتحدة متماسكة ومنضبطة ، وسائدة . وخضع السلوك الجنسي للشباب لقواعد صارمة . غير أن تحولات وتغيرات ثقافية غير ظاهرة أدت إلى تقويض تلك القواعد .

● وسنرى أن هذه التطورات صُدِّرَت إلينا فيما بعد !

- على رأس تلك التحولات الثقافية كان ثمة فلاسفة وعلماء وفنانون يروِّجون لأفكار نظرية مجردة هي التي أفضت إلى التغيرات الواسعة العميقة التالية . وعن طريق الكتب المبسطة والصحف ووسائل الإعلام الأخرى صارت تلك الأفكار النظرية ثقافة شعبية . ثم انتقلت تلك الأفكار إلى التطبيق في عالم الواقع ، في سلوك أعداد كبيرة من الناس .

- ويُرجع « فوكوياما » انهيار الأخلاقيات المسيحية الموروثة إلى الفلسفة العقلية في الغرب ، فهي التي أنكرت وجود أسس عقلية للمعايير الأخلاقية . وكان « فردريك نيتشه » هو أوضح من عَبَّر عن تلك الفلسفة ، فهو الذي تبنى نسبية الأخلاق ، وحاول أن يثبت أن الإنسان هو الذي يضع القيم الأخلاقية وهو الذي يُلغيها .

● وشكك « جون دِيوى John Dewey » (١٨٥٩-١٩٥٢) و « وليام جيمس William James » (١٨٤٢-١٩١٠) و « جون واطسُون J . Watson » (١٨٧٨-١٩٥٨) في عقيدة الخطيئة الأولى المسيحية التي تقرر أن الطبيعة البشرية آثمة

بفطرتها . وشككوا أيضاً في كون الضوابط الأخلاقية الصارمة ضرورية لتنظيم المجتمع . وزعمت المدرسة السلوكية في علم النفس أن البشر آثمون ، ولكن بسبب الضغوط الاجتماعية والسياسية ، لا يسبب الخطيئة الأولى . وروَّج «فرويد Sigmund Freud» (١٨٥٦-١٩٣٩) لفكرة أن الكبت الجنسي هو سبب الأمراض العصبية neurosis فانتشرت فكرته انتشاراً واسعاً لدى جيل كامل .

● وفي بداية القرن العشرين ، نتيجة للتطورات الفلسفية السابقة ، انهارت القيم الأخلاقية ، فتصاعدت نسبة احتساء الخمور ، وارتادت النساء المهذبات صالات الرقص ، وظهرت السينما ، وتوطدت الثورة الجنسية ـ أي استباحة الفواحش ـ في الستينيات وسط النخب الأمريكية [١].

● وكانت لهذه التطورات أصداؤها في بعض عواصم العالم الإسلامي ، ويمكن القول إنها انتشرت بالتدرج نفسه الذي سارت عليه في الغرب ، حتى أخذت مكانتها في حياة الناس العاديين . فانتشرت أولاً بين النخب الثقافية والسياسية . وحاول عدد من الأكاديميين ترويج النسبية في الأخلاق كما هو الحال عند «نيتشه» . واصْطَنَع عبدالرحمن بدوي ـ الذي كان لا يزال كاتباً مبتدئاً ـ في الأربعينيات من القرن العشرين ، أسلوباً خطابياً زاعقاً في عرض نسبية «نيتشه»[٢]. ثم كتب عنه الدكتور فؤاد زكريا كتاباً .[٣] وكان أحمد أمين وزكي نجيب محمود قد أفْرَدَا له أكثر من خمسين صفحة في كتابهما «قصة الفلسفة الحديثة».[٤] وكتب عنه آخرون في مجلة الرسالة القديمة . واتَّسمت بعض الآراء في «نيتشه» بالغُلو والشذوذ ، فَوَصَفَهُ خليل هنداوي بأنه نبي ، وأن آراءه هي الدواء لأمراض المجتمع العربي![٥] وألفت كتب أخرى وقدمت رسائل جامعية عن «نيتشه» أيضاً .

---

(1) The End of History and the Last Man; Pull . Penguin ,1992 ; The Introduction

(٢) نشرته مكتبة النهضة المصرية (دون تاريخ) لكنه صدر في بداية الأربعينيات من القرن العشرين .

(٣) في كتابه : نيتشه ؛ نشرته دار المعارف بمصر (دون تاريخ) .

(٤) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ؛ سنة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م

(٥) العددان رقم ١٣٨ ورقم ١٣٩ من مجلة الرسالة القديمة .

● والحق أن آراء «نيتشه» الفلسفية والأخلاقية لا تستحق هذا التقدير . لكن الذين كتبوا عنه كانوا يأملون في إحداث انهيار أخلاقي كالذي حدث في الغرب .

● لقد وجدت نسبية «نيتشه» ـ أولاً ـ رواجاً ملموساً وسط النخبة العلمانية الأكاديمية الضيقة ، ثم هبطت الفكرة إلى الإعلام ، وواظب العلمانيون العرب على الترويج للنسبية الأخلاقية الجذرية التي تعني أن كل شيء يتغير بتغير الزمان . وتبعاً لهذا لابد أن يتغير الإسلام بعقائده وشرائعه ، وأخلاقياته .

● ومع المثابرة في الترويج للنسبية بدأت الفكرة تنتشر بالعدوى من تركيا ومصر والشام وشمال إفريقيا إلى سائر البلاد المسلمة . وبدأت فئات متعلمة تجد صعوبة في قبول الثوابت الإسلامية . وتساءل العلمانيون في خبث : هل نُثْبِت على ظهور الجمال وندع السيارات والطائرات؟!

● وعلى الرغم من سقوط النسبية في الفكر الأوربي الحديث والمعاصر عند عدد من كبار الفلاسفة ـ مثل هُسِّرْل (١٨٥٩-١٩٣٨) وهارتمن (١٨٨٢-١٩٥٠) ـ واصل العلمانيون العرب تضليل الناس بإلحاح لا يفتر على ضرورة التطور والتقدم والحداثة وما بعد الحداثة ، دون أي احترام للحقائق التي تحدد مجالات التطور وتميزها من مجالات الثوابت والمطلقات [١].

● والقضية فلسفية بطبيعتها ، ولذلك يجد الداعية صعوبة في تقريب الفكرة الإسلامية المضادة إلى أفهام كثير من المدعوين .

● والمشكلة تتمثل في المستوى الثقافي للمخاطبين ، لا في مستوى الدعاة . إنهم أشبه ما يكونون بالأطفال الذين يسألون : كيف تطير الطائرات؟ ويعجزون عن فهم الجواب مهما تبسط الخبراء في شرحه .

● وفي النصف الثاني من القرن العشرين اصطدمت حركة التغريب كلها ـ لا النسبية وحدها ـ بالصحوة الإسلامية التي عَمَّت العالم الإسلامي . وانتهى الصدام

---

(١) هذه التوجهات هي موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب .

بين التغريبيين وبين الإسلاميين إلى تبلور معسكرين متمايزين متنافرين أحدهما إسلامي في مواجهة آخر علماني . وتضخم «الهجين» الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي بعناصره المتضادة المتنافرة ، وتطور في بعض البلاد إلى صدام عنيف ، وتوقف في بعضها الآخر عند حدود المعارضة السياسية والثقافية .

● وهذه التطورات الأخيرة هي التي جعلت مسار التطور في العالم الإسلامي يختلف عنه في الغرب . هناك في الغرب انتهت الفلسفة المادية إلى نبذ الدين ونشر الإلحاد ، وتوكيد النسبية الجذرية الشاملة . وطالبت النساء بالمساواة التامة مع الرجال ، ونُلْنَها . وأسقطت الحُرمة عن الفحشاء ، فانكمش عدد الأسر القانونية والمعتمدة كَنَسياً . وزادت أعداد أبناء السفاح في طَفْرات تجاوزت نصف أعداد المواليد . وأصبحت الجريمة المشكلة رقم واحد على الأجندات الحكومية الأوربية . وصارت المخدرات غذاءً يومياً للملايين من الكبار والصغار . وانتشر «الإيدز» بسبب انفلات الاتصالات الجنسية الحرة (!!) وازدهرت الدعارة حتى أضحت التجارة الثالثة بعد البترول والمخدرات!

تهديم أخلاقيات العفاف والسَّتْر

● ورَشَحَت هذه الكوارث على المسلمين . فالأحاديث الطَّلِّيَّة عن التطور لا تنقطع خلال وسائل الإعلام . وكل من يعارضها يوصف بالرجعية والتحجر . وفُرِضَت قضية المرأة علينا فرضاً . وانتشرت الأزياء النسائية الغربية التي تعرِّي الجسد أكثر مما تستر على نطاق واسع في بعض البلاد المسلمة ، وعلى نطاق ضيق في أخرى . وزاد عدد أبناء السفاح بقدر التراخي في احترام تعاليم الإسلام الضابطة لعلاقة الرجال بالنساء . ورَخَّصَ لبعض الساقطات بممارسة الدعارة في بعض العواصم المسلمة .

● وكان من الطبيعي أن تتضاعف هموم الداعية المسلم في مجتمع ابتليت نسبة كبيرة من أفراده بهذه الأمراض العقدية والأخلاقية . وواجه الكتَّاب المسلمون طوفاناً من الروايات والمسرحيات والأفلام والمسلسلات والكتب والمقالات التي تروِّج

للتغريب والمادية والنسبية صراحة أو ضمناً . وهُوجم الدعاة الملتزمون بضراوة ، ولم يجدوا الفرصة للرد أو صَدَّ الهجمات إلا في حالات نادرة .

- والمطرف العلماني دور نشر رسمية تتلقف كتاباته ، وتغدق عليه الأموال ، وليس للدعاة شيء من ذلك . وللعلمانيين مسارح رسمية تنتظر إنتاجهم وتكافئهم ، وليس للإسلاميين نصيب فيها . وهذا هو سبب قلة الإنتاج المسرحي في الوسط الإسلامي . فما جدوى أن يكتب الكاتب إذا كان يعلم سلفاً أن مصير إنتاجه مكان مظلم في خزانة كتبه ؟

● هكذا صار المخاطبون المسلمون في العالم الإسلامي غنيمة مستباحة للفعاليات العلمانية المضادة للدعوة الإسلامية دون منافسة تُذكر . ولا يمكن أن نُسَمِّي خطب الجمعة والأحاديث الدينية الإذاعية منافساً حقيقياً لكل الفعاليات العلمية والفنية والأدبية التي يحتكرها العلمانيون في معظم البلاد المسلمة .

إباحة الاستباحة

● ومَضَى التطور في الغرب في طريقه ، حتى صارت «الثورة الجنسية» التي وقعت في الستينيات وتحدث عنها «فوكوياما» ـ صارت استباحة مباحة permissive cornucopia حسب تعبير «برجنسكي» مستشار الأمن القومي للرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية (كارتر) . وأفرد برجنسكي فصلا كاملاً لشرح أبعاد الاستباحة المباحة في كتابه Out of Control (الانفلات)[1] . فقال إن هذه الاستباحة المباحة جعلت اللذة الحسية هي القيمة العليا التي يسعى كل فرد لبلوغها ، بصرف النظر عن الضوابط الأخلاقية . وهذه الاستباحة هي التي تسلب أمريكا القدرة على امتلاك رسالة تقدمها للعالم ، وهي التي تهدد قبضة أمريكا التي تهيمن بها على العالم ، وتبشر بانفلات المِقود من يدها . واصطبغت الثقافة الأمريكية «بإباحة الاستباحة» ، وعبَّر التلفاز عن تلك الثقافة بالإغراق في الجنس ـ الذي انفلت من عقال القيم ـ وتشجيع المشاهدين على الزنا واللواط

(1) A Robert Stewart Book; New York; 1993; pp . 64-74

والسحاق . وتاجر المنتجون بأجساد النساء ، في المسلسلات والأفلام والإعلانات ، واعتُبرت إباحة الاستباحة هي ثقافة المجتمع الراقي الذي يجب أن يُحتَذى!

● وبهذه الاستباحة لا يمكن أن تكون أمريكا أنموذجاً للعالم ، وهي تلهث وراء الشهوات الجنسية والحسية والمادية ، وتتنكر للدين بوصفه ضلالاً منافياً للعقل!

● وجذور هذه الاستباحة ضاربة في أعماق الفلسفة اليونانية القديمة لدى أفلاطون الذي طالب بأن تكون النساء مشاعاً بين الرجال : ولا ينبغي أن تكون لأي امرئ زوجة خاصة ، كما ينبغي أن يكون الأطفال مشاعاً « بحيث لا يعرف الأب ابنه أو الابن أباه . »[1]

- وفي أوربا في عصر النهضة ، نُبذت المسيحية ، واستبدلت بها الفلسفة اليونانية التي كانت البذور الأولية لإباحة الاستباحة الراهنة .

المساواة التامة بين الرجال والنساء

● ويعبِّر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أصدرته الأمم المتحدة في ١٩٤٨/١٢/١٠م عن حصيلة التغيرات التي حدثت في الغرب ، والتي يُراد لها أن تحدث في العالم أجمع وفي العالم الإسلامي ، وهو ما يسمى « العولمة » .

- فالمادة رقم ٦ من ذلك الإعلان تزعم أن الذكر والأنثى : « يتساويان في الحقوق لدى الزواج ، وخلال قيام الزواج ، ولدى انحلاله . » وهكذا تتنافى هذه المادة مع أحكام الشريعة الإسلامية التي تعطي للرجال حقوقاً خاصة ، وتحملهم مسئوليات خاصة ، قبل الزواج وفي أثنائه ، وعند الطلاق وبعده . فالزوْج يقدم الصداق ، وليس على الزوجة صداق ؛ والزوج يؤثث بيتاً ، وليس على الزوجة تأثيث . والزوج مكلف بالإنفاق على الأسرة ، والزوجة غير مكلفة بذلك . والقوامة للزوج وليس للمرأة قوامة . وهو يملك حق الطلاق ، وهي لا تملكه إلا إذا اشترطت أن تكون العصمة بيدها .

---

(١) جمهورية أفلاطون ؛ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ؛ ك ٥- ف ٤٥٧- ص ١٦٩

- ثم إن الذكر والأنثى يختلفان في الطبيعة الحيوية ذاتها ؛ وهذا هو ما يقرره الخالق جل في عُلاه بقوله ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ (آل عمران:٣٦) والذكر ليس له رحم ، وهو لا يحيض ، ولا يحمل ولا يلد ؛ وليس له مبيض ؛ والأنثى لها رحم ، ومبيض ، وتحيض وتحمل وتلد ، وترضع . وهذه الاختلافات تحتم اختلاف الواجبات الحياتية للذكور والإناث . وهذا هو ما يشرعه الإسلام ، وما يعتبره الإعلان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٩٦٧/١١/٧ تمييزاً ضد النساء ، ويطالب في المادة الثانية منه بأن : «تتخذ جميع التدابير لإلغاء القوانين والأعراف والأنظمة والممارسات القائمة التي تشكل تمييزاً ضد المرأة» . وهذا معناه نسخ الشريعة الإسلامية وإحلال هذه الإعلانات محلها .

الرفض الإسلامي لإباحة الدعارة

● ويحرِّم الإعلان السالف الذكر الاتجار بالمرأة باستغلالها في البِغَاء ، لكنه لا يمنع النساء من امتهان الدعارة لحسابهن الخاص (المادة رقم ٨) وهذا تطبيق لـ «إباحة الاستباحة» التي تسود في الغرب اليوم .

- وأكثر من هذا تحظر الاتفاقية الصادرة في ١٩٤٩/١٢/٢ استغلال دعارة الغير ، كما تحظر تسجيل الداعرات أو بيان اشتغالهن في الدعارة في وثائق السفر وإثبات الشخصية ، أو إخضاعهن للكشف الطبي (المادة رقم ٦) وبذلك تُيسر لهن الاختلاط والسفر دون حرج!

- وفي العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية المؤرخ في ١٩٦٦/١٢/١٦ نَصَّ على أنْ : «تتعهد كل دولة طرف في هذا العهد ، إذا كانت تدابيرها التشريعية القائمة لا تكفل فعلاً إعمال الحقوق المعترف بها في هذا العهد ، بأن تتخذ ـ طبقاً لإجراءاتها الدستورية ولأحكام هذا العهد ـ ما يكون ضرورياً لهذا الإعمال من تدابير تشريعية أو غير تشريعية».

- ومعنى هذا مرة أخرى أن على المسلمين نبذ شريعة الله التي تحرم البغاء وإحلال أحكام هذا الإعلان محلها! وهذا هو المطلوب عند العلمانيين الذين يكتبون تحت عنوان «تطوير الخطاب الديني» لتضليل الأمة .

نجاح وإخفاق

● ونحن نحمد الله تعالى على أن أمتنا رفضت ذلك الإعلان . صحيح أن تغيرات واسعة وعميقة أصابت الكثيرات من نساء المسلمين في فكرهن وسلوكهن ، لكن أحداً لم يجرؤ بعدُ على تطبيق أحكام ذلك الإعلان في أي بلد مسلم . وفي المؤتمرات التي عُقدت في القاهرة ثم في بكين في التسعينيات من القرن الماضي ، أحبطت كل المحاولات لانتزاع قبول المسلمين لما يُطلق عليه «الحرية الجنسية» أو «إباحة الاستباحة» أو استحلال الفواحش والتحلل من القيم ، والمعنى واحد .

● لكن قلة قليلة من النساء المنحدرات من آباء مسلمين والحاملات لأسماء إسلامية ، نبذن الإسلام عقيدة وشريعة ، واعتنقْن مذاهب إلحادية ، والْتحقن بجمعيات ماسونية وأحزاب علمانية ، وأعلنَّ صراحة الانخلاع من أخلاقيات العفاف والسَّتْر الإسلامية . وانتشرت الأزياء الغربية الخليعة بينهن ، ورضي آباء وأزواج وإخوة بأن تخلو الابنة أو الزوجة أو الأخت بالأجنبي ، وتخرج معه إلى السينما والمسرح والشاطئ والنادي ، وتراقصه وتسهر معه ، وربما شربت الخمر ولعبت القمار . وصارت بعض البيوت المسلمة بيوتاً غربية في نظامها وعاداتها وأخلاقياتها . وانتشر السفور في كثير من عواصم العالم الإسلامي ، بل إن بعض البلاد تحرِّم الحجاب على النساء في بعض الدوائر الرسمية ، وَ تَحْرِم المحجبات من حق العمل في بعض الوظائف .

● ومن الجلي أن هذه التغيرات في أوساط النساء المسلمات تشكل مصاعب إضافية أمام الدعاة ، وعلى الرغم من ذلك نجحوا بتوفيق الله تعالى وعونه في استعادة الملايين من النساء إلى مظلة الإسلام . وكان ارتداء النساء للحجاب تعبيراً عن ذلك . ولهذا ثارت القوى العلمانية ضد المحجبات ، ووصف الدكتور زكي

نجيب محمود عودة الحجاب بأنه ردة ! وأخيراً لجأت فرنسا وألمانيا وتركيا إلى تحريم الحجاب ـ في بعض الأماكن ـ بالقانون ! ومع المثابرة والإخلاص في الدعوة نأمل أن تعود النساء المسلمات ، والرجال المسلمون إلى جنة الطاعة لله تعالى ، لكي يفوزوا بجنة الآخرة .

● هذه هي سمات المجتمعات الإسلامية والدولية التي يعمل فيها الدعاة ؛ وهذه هي التوجهات السائدة لدى المخاطبين والتي تجعلهم على الضد من آبائهم وأجدادهم الذين كانوا يتلقون الدعوة منذ عهد النبوة إلى مائتي عام خلت .

● وفي إيجاز نقول إن المخاطبين المسلمين المعاصرين يتعرضون لتأثيرات الفلسفة المادية النسبية الملحدة ، التي تسعى للحلول محل الإسلام ؛ وقد نجحت في تشكيل «هجين» ثقافي قوامه عناصر إسلامية وعناصر علمانية متضادة ، صَبَغَ الحياة الإسلامية بالتنافر والتصادم في معظم المجالات . وكانت النسْبية السوفسطائية النيتشوية أحد العناصر العلمانية الأساسية التي شوهت المناخ الفكري حتى صار من العسير عند كثيرين منا الدفاع عن الثوابت الإسلامية . ولعبت الثورة الجنسية ـ أي استباحة الفواحش ـ دوراً مخرباً في اهتزاز القيم الإسلامية التي تنظم علاقة الرجال بالنساء ، وفي افتعال قضية المرأة التي تُتخذ مدخلاً للتهجم على الإسلام وشريعته!

الآثار الإيجابية للاحتكاك بالغرب

وكان للاحتكاك الكثيف بالغرب آثار إيجابية لا يمكن إنكارها . وقد شكلت الجيوش الحديثة في العالم الإسلامي على أيدي خبراء غربيين ، وبعثت الدول المسلمة أبناءها إلى دول الغرب لتحصيل الفنون الحربية . هذا ما فعله محمد علي في مصر [1]. وما فعله السلاطين العثمانيون ، وشاه إيران ، وغيرهم .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي ؛ عصر محمد علي .

ونظم التعليم الحديثة مقتبسة عن الغرب . وقد تولى التدريس في جامعة القاهرة عند بدء عملها أساتذة أجانب ، واستمروا فيها مدة طويلة حتى نشأت أجيال من أساتذة الجامعة الوطنيين . هذا إلى جانب الكليات الأجنبية ومدارس التنصير الحديثة التي أشرنا إليها سلفاً . وانتشرت نظم التعليم المقتبسة عن الغرب في سائر البلاد المسلمة . وكان ذلك سبباً في نهضة علمية وصناعية كبرى ، وفي الوقت نفسه ألحق ضرراً بالغاً بالوحدة الفكرية والثقافية الإسلامية ، حين أدخل الأفكار والفلسفات العلمانية والمادية التي شكلت «الهجين» الثقافي الذي نعاني منه حتى الآن ، والذي يمثل جوهر التغيرات التي طرأت على المدعوين المسلمين .

وعرف المسلمون الطباعة على أيدي الأوربيين . وعرفت تركيا الطباعة سنة ١٧٢٨م ، وعرفتها مصر سنة ١٧٩٨م ، ولبنان سنة ١٦١٠م . وبعد ذلك ظهرت الصحف ، وطبعت المخطوطات التراثية ، ومن ثم قامت النهضة الحديثة . ووقعت تغيرات هائلة في أحوال المدعوين المسلمين .

وعن الأوربيين أخذ المسلمون مئات الأدوات والأجهزة الحديثة ، من السيارة إلى الطائرة ، إلى الهاتف ، إلى «الإنترنت» . ودفع المسلمون ثمن ما أخذوا كاملاً . وكانت بلادنا المسلمة هي الأسواق التي ضمنت الرواج للمصنوعات الأوربية ، والتي زودتها بكثير من المواد الخام للصناعة ، وعلى وجه الخصوص البترول . وكان لهذه المقتبسات آثار بعيدة المدى غيرت وجوه الحياة في عالمنا الإسلامي في المجالات النظرية والعلمية والتقنية والأدبية .



الفصل الثالث

نظم الحكم العلمانية

واجبات الخليفة وواجبات الرئيس في النظم العلمانية

● كانت التغيرات التي أصابت النخب الحاكمة في العالم الإسلامي هي الأخطر، بحكم ما لهذه النخب من نفوذ في جميع مجالات الحياة .

● لقد كان على الخليفة الذي يتولى رئاسة الدولة المسلمة عشرة واجبات أساسية :

أولها : حفظ الدين على أصوله المستقرة ،

والثاني : تنفيذ الأحكام الشرعية ،

والثالث : حماية الأمة من العدوان الخارجي ،

والرابع : إقامة الحدود لتُصَان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من الإتلاف ،

والخامس : تحصين الثغور بالعُدَّة المانعة والقوة الدافعة ،

والسادس : جهاد مَنْ عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يُسلم ،

والسابع : جباية الفيء والصدقات على ما أوْجَبَهُ الشرع ،

والثامن : تقدير المعاشات لمستحقيها ،

والتاسع : تعيين الأمناء ليقوموا بما يفوضهم فيه من أعمال ،

والعاشر : أن يشرف بنفسه على مصالح الدولة [1].

---

(١) الماوردي ؛ الأحكام السلطانية ؛ دار الكتب العلمية ؛ بيروت ؛ ص ١٥،١٦ (بتصرف يسير) .

وصف الإمام العادل

● وهذا وصف الإمام العادل كما رآه الحسن البصري رحمه الله . فقد أرسل « عمر بن عبد العزيز » إلى الحسن البصري يسأله عن صفة الإمام العادل ، فرد عليه برسالة طويلة قال فيها : « يا أمير المؤمنين إن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف ».

« والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق بها ، الذي يرتاد أطيب المراعي ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنُّها من أذى الحر والقَر ».

« والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، ويكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ».

« والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ، البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ووضعته كرهاً وربته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته ، كالقلب بين الجوارح ، تصلح الجوارح بصلاحه ، وتفسد بفساده ».

« والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ».

« فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله ﷻ كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرَّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله »[1].

- الآن تغيرت هذه الأوصاف وتلك الواجبات جذرياً . فلم يعد من أول واجبات رئيس الدولة العلمانية « حفظ الدين على أصوله المستقرة » ولا « تنفيذ أحكام

(١) دكتور محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي ؛ نشر مؤسسة الرسالة ؛ ط ١ سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ؛ ص ٤٤٦ - فقرة ٧٨٦ .

الشريعة» ، ولا «إقامة الحدود» ولا «جباية الصدقات» ؛ بل على رئيس الجمهورية أن : «يسهر على تأكيد سيادة الشعب وعلى احترام الدستور وسيادة القانون وحماية الوحدة الوطنية والمكاسب الاشتراكية . . » [(١)]

- ومن الجلي أن هناك تماثلاً بين بعض واجبات رئيس الجمهورية وواجبات الخليفة الإسلامي لكن هناك اختلافات جذرية بينهما ، بل هناك تعارض ظاهر . ولنَأخذ واجب حماية المكاسب الاشتراكية كمثال ، فإنه يكفي لبيان التعارض بين النظامين ؛ فالاشتراكية تقوم على تأميم ممتلكات الأفراد ، وتحويلها إلى ملكية عامة . والأفراد يرفضون ذلك بطبيعة الحال . وعلى ذلك اعتُبر التأميم غَصْباً محرماً شرعاً .

- وهذا التعارض موجود بدرجات متفاوتة بين الشريعة الإسلامية وسائر الدساتير العلمانية الحديثة المعمول بها في البلاد المسلمة . وقد صارت أحوال الحكام ـ بسبب ذلك ـ شديدة الاختلاف عن أحوال أسلافهم القدامى الذين كانوا يحكمون البلاد قبل الغزو الاستعماري .

● إن هذه التغيرات باعدت بين «الدولة» و «الدعوة» وتسببت أحياناً في الصدام بينهما . وسنرى أنها أدَّت إلى تقليص حرية الدعاة ، وإلى تقييد الدعوة ، وربما إلى تسخيرها في خدمة التوجهات السياسية العلمانية السائدة .

● الدولة الوحيدة التي كانت تتآزر فيها الدعوة والدولة هي المملكة العربية السعودية منذ قيامها أول مرة على يدي الأمير محمد بن سعود والإمام محمد ابن عبد الوهاب ، رحمهما الله ، ومنذ ظهرت الدولة السعودية الحديثة على يدي المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٣٢م ، وحتى ٢٠٠١/٩/١١م [(٢)]. فنسأل الله تعالى أن يديم عليها هذه النعمة .

---

(١) دستور جمهورية مصر العربية ؛ الباب الخامس ؛ مادة رقم ٧٣ .

(٢) تمت البيعة الأولى للملك عبد العزيز عام ١٣٢٠هـ- ١٩٠٢م (انظر : دراسات في تاريخ المملكة العربية السعودية ؛ للدكتور أحمد عبد الله عودات ؛ دار الخريجي للنشر والتوزيع ؛ بالرياض ؛ سنة ١٤٢٣هـ ؛ ص ١٦٢) .

● وقد وقعت عدة محاولات في بعض البلاد المسلمة لتأسيس نظام حكم إسلامي على أنقاض نظام علماني ، فواجهت صعوبات كبيرة ، ولم تحقق مبتغاها كاملاً حتى الآن .

● ففي إيران اندلعت ثورة شعبية ضد نظام الشاه ، وأطاحت به ، وأعلنت قيام الجمهورية الإسلامية على أنقاضه . لكن النظام الجديد واجه تمرداً عسكرياً قادته حركة « مجاهدي خَلْق» . ثم انقسم أنصار الثورة إلى إصلاحيين وتقليديين . وبعد أكثر من عشرين سنة من الثورة ، يشتد الانقسام - في فبراير سنة ٢٠٠٤م - إلى درجة الغليان بسبب حرمان كثير من الإصلاحيين من حق الترشيح للمجلس التشريعي .

● وفي أفغانستان أنشأت حركة طالبان إمارة إسلامية ، لكنها اتبعت سياسات أثارت عليها بعض القبائل الأفغانية ، وأغْضَبَت الولايات المتحدة ، لينتهي الأمر بغزو أمريكي للبلاد بمساعدة باكستان وإيران وبعض الدول العربية .

● وفي السودان قام بعض ضباط الجيش بانقلاب عسكري ضد حكومة منتخبة ، وأعلنوا أنهم سيقيمون دولة إسلامية . لكن العالم لم يتقبل الانقلاب على حكومة منتخبة ، فدخل السودان في نزاعات لا نهاية لها مع أبناء الجنوب ، ومع جيرانه ، ومع الغرب ، الذي سلّح الجنوبيين وموّلهم لكي يقوّضوا نظام الحكم الإسلامي الجديد . ثم انقسم الثوار الإسلاميون على أنفسهم ، وزج الجناح الحاكم بزعيم الجناح البرلماني في السجن ، ولم يفرج عنه إلا بضغوط عديدة .

● ولا تزال هذه البلاد الثلاثة تعاني من الانقسامات ، ولا تزال معالم الدولة المسلمة المنشودة غير واضحة .

● ولكن على الرغم من هذا ، لا تزال الجماهير المسلمة في كل مكان متشبثة بالحكم الإسلامي وترى فيه السعادة في الدنيا والآخرة . وفي كل بلد من بلدان

المسلمين يوجد حزب أو جماعة أو تيار غايته تأسيس نظام حكم إسلامي . وفي المواجهة أحزاب وقوى علمانية ترفض التخلي عن النظام العلماني وتحميه بترسانة من القوانين والنظم .

تنحية القرآن عن الحياة لتثبيت النظم العلمانية

● وكان من الضروري لتثبيت النظم العلمانية تَسْويغ تنحية القرآن الكريم عن الحياة . وقد حاول النهوض بهذه المهمة عدد من المثقفين استناداً إلى النظرية العلمانية التي تقتضي نبذ الأديان والكتب السماوية ، والاستناد إلى الخبرة البشرية في تسيير الحياة العقلية والعملية .

- وقد عبَّر الدكتور محمد أحمد خلف الله ، أحد قادة الشيوعيين في مصر عن مفهوم تلك العلمانية فقال إن : «النص القرآني يُتَعَبَّد به فقط عندما يتعارض مع المصلحة العامة لجماعة المسلمين ، وتُقَدَّم المصلحة عليه في العمل»(١) .

● ولم يستطع الكاتب الشيوعي العلماني أن يعطي مثالاً واحداً لتعارض آيات القرآن الكريم مع المصلحة العامة لجماعة المسلمين ، وسبب ذلك أن التعارض الذي تحدث عنه مجرد وَهْم . وقد تحدث كبار علماء الأصول عن المصالح ، وتوسعوا في ذلك ، فَصَنَّفُوها إلى : مصالح معتبرة - أي مشروعة ، كالتجارة والزواج ، ومصالح مُلْغَاة ، أي محرَّمة ، كالربا والزنا ، ومصالح مُرسلة ، أي ليست خاضعة لنصوص دينية ، كالاختيار بين العمل في التجارة أو الزراعة ، فلكل مسلم أن يختار المهنة الحلال التي يريدها ، شريطة ألا يصادم نصاً من الكتاب أو السُّنة ، أو ينتهك المقاصد العليا للشريعة .

● وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله إن : «الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها . . وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها ، وحاصل بها ، وكل نقص في الوجود فسببه إضاعتها»(٢) .

---

(١) الأسس القرآنية للتقدم ؛ كتاب الأهالي ؛ العدد الثاني ؛ سنة ١٩٨٤ ؛ ص ١٢ .

(٢) إعلام الموقعين ؛ جـ ٣ ص ٣ .

● لكن المصالح لدى العلمانيين هي مصالح الدنيا فقط ، لا مصالح الدنيا والآخرة ، أو المعاش والمعاد كما قال ابن القيم .

● هذا الفكر العلماني لقي القبول لدى النخب الحاكمة في كثير من دول العالم الإسلامي . وارتفع صوت العلمانيين في الجامعات ووسائل الإعلام ، وتسلم القيادة فيها نفر من الشيوعيين ، الذين روّجوا للاشتراكية بوصفها مقدمة للشيوعية .

- ثم توالت الانقلابات العسكرية ، وشرعت في تطبيق الاشتراكية ، وأصدرت الدساتير والقوانين التي تكرسها وتحميها ، على الرغم من إرادة الشعوب المسلمة ، بل إن النظم الاشتراكية سلبت الشعوب إرادتها ، واستبدت بتقرير مستقبلها . ولم يتراجع الحكام الاشتراكيون عن غيهم على الرغم من الفشل الذريع الذي واجههم في مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية . ثم انهار المعسكر الشيوعي ، فهرولوا مرغمين إلى المعسكر الرأسمالي الأمريكي الذي اعتبروه عدوهم على امتداد نصف قرن !

- وتقيَّد الدعاة ، كسائر المواطنين ، بالدساتير والقوانين العلمانية السائدة في بلادهم ، وواجهوا مصاعب جمة في أداء واجبات الدعوة ، نظراً للتعارض بين الإسلام والاشتراكية والعلمانية عامة . وحاول بعض الكتاب المسلمين في رفق بالغ تذكير الحكام بأن النظام الاقتصادي الإسلامي أعْدَل من النظام الاشتراكي في توزيع ثروات البلاد . وكتب بعضهم عن : «اشتراكية الإسلام» وهو يعلم أنه لا اشتراكية في الإسلام بأي معنى من المعاني المعروفة للاشتراكية . ولكن الحكام الاشتراكيين كانوا قد توغلوا في تطبيق الاشتراكية ، وفي الارتباط الوثيق بالمعسكر الشيوعي ، ثقافياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، بحيث لم تعد أمامهم فرصة للتراجع إن أرادوا .

الداعية في مواجهة العصا والجزرة

● ومن التحديات المستحدثة التي تواجه الدعاة اليوم سياسات «العصا والجزرة»، أو التلويح بالسيف والذهب ، التي تنتهجها الحكومات والنظم العلمانية .

- واختيار الداعية المسلم الحق معروف ، وهو : طاعة الله ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . والأصل هو مسلك رسول الله ﷺ ، حين قال لعمه أبي طالب : « يا عم ، واللهِ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ، ما تركته »[1].

- ولنا في رسول الله ﷺ وصحابته الذين اتبعوه الأسوة الحسنة . وقد ذكر ابن سعد أن ناساً من « رعل ، وذكوان ، وبني لحيان » جاءوا إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يبعث معهم رجالاً يعلمونهم القرآن والسنة ، فبعث سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم « القراء » كانوا يقرأون القرآن ، ويتدارسون بالليل ، ويتعلمون ، وكانوا بالنهار يجيئون بالمال فيضعونه بالمسجد ، ويحتطبون فيبيعونه ، ويشترون به الطعام لأهل الصُّفة والفقراء . فبعثهم النبي ﷺ إليهم ، فعَرَضوا لهم ، فقتلوهم قبل أن يبْلُغوا المكان »[2]. وقد سُميت تلك المذبحة باسم « بئر معونة » .

● وفي عصور الإسلام المختلفة وقعت مصادمات بين الحكام والأئمة . ولم تكن نظم الحكم علمانية ، ولكنها كانت غير ملتزمة بشريعة الله ، فشاركت النظم العلمانية في القسوة على الدعاة .

- من ذلك مثلاً أن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي ـ أمير المدينة المنورة في عهد الخليفة المنصور العباسي ـ عاقب الإمام مالكاً بالضرب العنيف حتى خلع كتفه ، لا لشيء إلا أنه أفتى ببطلان البيعة المأخوذة بالإكراه ، فمكث الإمام المجاهد رحمه الله : « لا يقدر أن يزر زرَّه بيده اليسرى من شدة ما مُدَّت حيث ضُرب »[3].

● وأنكى من قصة تعذيب مالك ، محنة الإمام المجاهد أحمد بن حنبل رحمه الله على يد خلفاء بني العباس : المأمون ، والمعتصم والمتوكل ، الذين سجنوه ثمانية وعشرين شهراً ، وأذاقوه أشد العذاب ، لا لشيء سوى رفضه لبدعة المعتزلة القائلة إن القرآن مخلوق[4].

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٢٦٦ .
(٢) الطبقات الكبرى ؛ جـ ٣ ص ٥١٠ .
(٣) آداب الشافعي ومناقبه ؛ ص ٢٠٣، ٢٠٤ .
(٤) « ثلاثة كتب عن المسند » ؛ تحقيق أحمد محمد شاكر ؛ مكتبة السنة ؛ طبعة سنة ١٤١٠هـ - ١٨٨٠م ؛ ص ٧٩ - ١١٤ .

● وفي العصر الحديث تعرض كثير من الدعاة للاعتقال والتعذيب والقتل لرفضهم للعلمانية والشيوعية والاشتراكية والرأسمالية . ونحن نذكر فظاعات كمال أتاتورك في تركيا ، وأحمد سوكارنو في إندونيسيا ، وزياد بري في الصومال ، وصدام حسين في العراق .

- وفي البلاد الأوربية التي تدعي أنها بلاد الحريات والديموقراطية ظهر العداء الشرس بين العلمانية والإسلام . ففي إيطاليا قبضت الشرطة يوم ١٩٩٥/٥/٢٦ على أكثر من ثمانين شخصاً من المسلمين المقيمين في ميلانو ، والحاصلين على الجنسية الإيطالية ، والذين كانوا من رواد المعهد الثقافي الإسلامي ، والمُسْهمين في الدعوة إلى الله ، قبضت عليهم واتهمتهم بتشكيل تنظيم للمافيا وبأنهم يعملون لتقويض المجتمع الإيطالي وفرض الشريعة الإسلامية عليه بالقوة!

- وكانت تلك الاتهامات نكتة سمجة ، لكن الإعلام الذي يعاني من العنصرية والتعصب ضد الإسلام ، ضخم نكتة الشرطة ، واخترع لها اسم « قضية أبو الهول » مرة ، و « قضية المافيا الإسلامية » مرة أخرى!

- ثم جاءت لطمة القضاء العادل من محكمة الاستئناف العليا في روما ، إذ قضت بحفظ القضية الملفقة والإفراج عن المتهمين الأبرياء . لكن حكم البراءة لم يكن كافياً لتعويض الضحايا عن أيام المحنة في السجون والتشنيع في الإعلام!

- وتكررت هذه الاعتداءات على الدعاة المسلمين في دول المعسكر الشيوعي ، وفي ألمانيا وفي تركيا ، والولايات المتحدة ، بُغْية إخراس الدعاة وشلِّ حركتهم .

دروس من تاريخنا الإسلامي

● وفي تاريخنا الإسلامي دروس عظيمة ترشدنا إلى تصحيح العلاقة بين الدعوة والدولة ، وتضيء لنا الطريق لتصحيحها .

دروس من العصر الأموي

● ففي العصر الأموي دروس مفيدة لنا اليوم . فيذكر أنه قيل للحسن البصري : ألا تدخل على الأمراء فتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر؟

- قال : « ليس للمؤمن أن يذل نفسه . إن سيوفهم لَتَسْبِقُ أَلْسِنتنا! إذا تكلمنا قالوا بسيوفهم هكذا » ، ووصف للسائل ضرب السيوف للرقاب[1] .

- حدث هذا في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أسرف في سفك دماء المسلمين .

● ولو أن بني أمية صانوا دماء المسلمين وردعوا الحجاج لما ضاعت دولتهم بعد قيامها بأقل من مائة عام . ولو أنهم أنصتوا لنصائح العلماء والدعاة من أمثال الحسن البصري لتجنبوا كوارث عظيمة وثورات مدمرة .

● فمن مصلحة الدولة أن تستمع للدعوة وترعاها ، ولا تهدد حياة الدعاة المخلصين الذين ينتقدون الأخطاء ، ولا يسايرون الحكام وينافقونهم . فهذا من مصلحة الحكام كما هو من مصلحة الرعية .

● ولقد مات الحسن البصري سنة ١١٠هـ ، وبعد وفاته باثنين وعشرين سنة سقطت الدولة الأموية في دمشق (سنة ١٣٢هـ) ، وكانت جرائم الحَجَّاج من أهم أسباب إثارة المسلمين ضدها ، وتأييدهم للثوار والمتمردين عليها .

ودروس من العصر العباسي

ولقد جلس الخليفة العباسي « المستضيء » بين يدي ابن الجوزي رحمهما الله فوعظه فقال : « يا أمير المؤمنين! إن تكلمتُ خفتُ منك ، وإن سكت خفتُ عليك ، وإن قول القائل لك : « اتق الله » خير لك من قوله لكم : « إنكم أهل بيت مغفور لكم » . وأضاف الشيخ قائلاً : « كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول : « إذا بلغني عن عامل أنه ظَلَمَ فلم أغيِّرْه ، فأنا الظالم! » وقال الشيخ أيضاً : « يا أمير المؤمنين! كان

---

(١) دكتور عبد الرحمن بدوي ؛ تاريخ التصوف الإسلامي ؛ وكالة المطبوعات بالكويت ؛ ط١ سنة١٩٩٧ .

يوسف عليه السلام لا يشبع في زمن القحط حتى لا ينسى الجائع . وكان عمر ابن الخطاب يضرب بطنه عام الرمادة ويقول : قرقر أوْ لا تقرقر ، والله لا ذاقَ عمر سمناً ولا سميناً حتى يَخْصَبَ الناسُ!»

- وتأثر الخليفة «المستضيء» بعظة الشيخ الجليل تأثراً بليغاً ، حتى أجْهَش في البكاء ، وتصدق بمال كثير ، وكَسَى عدداً كبيراً من الفقراء ، وأطلق المحابيس .

كانت الدولة والدعوة ـ غالباً ـ في طريق واحد ، تساند إحداهما الأخرى . وكانت المقاصد العليا للدعوة والدولة نصرة الإسلام وتعبيد العباد لله الواحد الأحد ، على الرغم مما هو معروف عن معاصي الأمويين والعباسيين والمماليك وآثامهم . لم تكن هناك فلسفة علمانية ، تتبناها قوى أجنبية استعمارية وتحاول إحلالها محل الإسلام ، كما هو الحال اليوم ، فكان الحكام مسلمين يصغون للدعاة غالباً . وحين كان يشذ بعضهم ويبطش بالدعاة ، كان الدعاة يحجمون ـ غالباً ـ عن تبصيرهم وإرشادهم ، كما فعل الحسن البصري في أيام الحجاج ، فلما تولى عمر ابن عبد العزيز مقاليد الخلافة كتب إليه ووعظه .

● ولقد قدم الخليفة المهدي العباسي للحج ، فلما أخذ في الطواف ، نَحّى الناس عن البيت ، فوثب عبد الله بن مرزوق فَلَبَّبَهُ بردائه ، وهزَّه ، وقال له : «انظر ما تصنع! مَن جَعلك بهذا البيت أحق ممن أتاهُ من البعد حتى إذا صار عنده حُلْتَ بينه وبينه! وقد قال الله تعالى ﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ (الحج:٢٥) ؟ من جعل لك هذا ؟!

- وغضب المهدي ، وكان من حقه أن يغضب ، فما كان يجوز نُصح الخليفة بتلك الطريقة العنيفة . وأمر المهدي بحمل ابن مرزوق إلى بغداد حيث كَلَّفَه بأن يسوس الدواب ، وضموا إلى الإسطبل فرساً عَضوضاً ليعقره[1]. وكانت العقوبة قاسية وغير مناسبة لرجل غيور على دينه ، وإن حَمَلَتْهُ الحمية الدينية على الخطأ في حق الخليفة .

---

(١) إحياء علوم الدين ؛ جـ ٢ ص ٣١٢ .

- وفي عام آخر ، ذهب المهدي للحج ، فرآه المحدِّث الكبير سفيان الثوري ، وقد أخذ حرسه يُبعدون الناس عنه بالسياط ، فتقدم إليه في رفق وبيّن له سنة رسول الله ﷺ ، فلم يعاقبه[1].

● تُرى ، هل يمكن أن نتعلم شيئاً من هذه الدروس ؟

● وفي تاريخنا الإسلامي الحديث ، حرص الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله على إيجاد حاكم يحتضن دعوته السلفية . وقد وجد بُغيته - أولاً - في « حريملاء » ، لكن جماعة معادية للدعوة كانت تهدد حياته وحياة أتباعه ، فاضطر إلى تركها : « باحثاً عن نصير يحميه ويشد أَزْرَه . فكان هذا النصير هو « عثمان ابن معمر أمير بلدة العيينة »[2]. ومرة أخرى رحل الإمام عن العيينة بسبب ضغوط معادية لدعوته ، مارسها حاكم « الإحساء » على حاكم الدرعية . [3]

● ومن فضل الله تعالى أن يسر لذلك الإمام الإصلاحي الرائد فرصة الانتقال من بلدة إلى بلدة إلى أن وَجدت دعوته الحمأية والنصرة عند الأمير محمد ابن سعود رحمه الله . لكن الدعاة في الدول العلمانية لا يجدون مثل هذه الفرصة هذه الأيام .

● إن الدولة في العصور الحديثة تسيطر على التعليم والإعلام ، وعلى الدعوة في المساجد . ولا يستطيع داعية أن يمارس الدعوة إلا بإجازة من السلطات العلمانية . وتتحكم الدول في مؤسسات النشر الكبرى ، وفي مؤسسات توزيع الصحف والكتب ، وإنتاج الأفلام والأشرطة ، والمسارح ودور السينما . وقليل من الدول المسلمة تدع مساحة من الحرية للدعاة . وتتبنى معظم النظم السياسية « الاجتزاء » من الإسلام ، فتقبل العبادات ، وترفض المعاملات . وعلى هذا تسمح للدعاة بالعمل في إطار « الاجتزاء » فقط وتمنع الذين يدعون للإسلام في شموله وكماله ، دون انتقاء أو بتر أو اجتزاء

---

(١) إحياء علوم الدين ؛ جـ ٢ ص ٣١٣

(٢) د . عبد الرحيم عبد الهادي ؛ دراسات في تاريخ المملكة العربية السعودية ؛ ص ٢٨ .

(٣) نفسه ؛ ص ٣١ .

● وقد ذكَر تقرير التنمية البشرية ـ الذي أعَدَّه خبراء عرب مستقلون بتكليف من برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والذي صدر يوم ٢٠/١٠ /٢٠٠٣م ـ أن حرية الصحافة مقيدة بقيود شديدة في دول العالم العربي : « وتكشف الممارسات الفعلية في العديد من الدول العربية عن انتهاكات مستمرة لهذه الحرية ، سواء بإغلاق بعض الصحف أو مصادرتها أو تعطيلها »[1]. وهذه القيود تسيء إلى سمعة الدول العربية وتؤذي شعوبها .

- وقد ذكر تقرير العام ٢٠٠٢م شيوع هذه الظاهرة السلبية نفسها ، وفصَّل التقرير القول في وصف انتهاكات الحريات العامة ، ولكنه لم يتطرق إلى أسباب هذه الظاهرة .

● ولعلِّي لا أجافي الحقيقة إذا قلت إن تعارض الدعوة الإسلامية مع مبادئ الحكم العلماني الذي يطبقه العسكر الانقلابيون هو السبب الأساسي . فالشعوب المسلمة رافضة للحكم العسكري العلماني مهما تَخَفَّى في اللباس المدني وخَلَعَ السُّتْرات العسكرية . وهذه النظم تعرف موقف الشعوب منها ، وتعلم أن صيانة الحريات العامة ، والانتخابات النزيهة كفيلة بإسقاط نظمهم . ولا سبيل إلى البقاء على رأس شعوبهم إلا بانتهاك الحريات والتحكم في الصحافة والإذاعة والتلفزة ، والتعليم والفنون والآداب ، والدعوة الإسلامية .

ونتيجة لهذه الأوضاع حُوصرت الدعوة الإسلامية حصاراً خانقاً بحيث لا يكاد يُكتب عن الإسلام شيء ولا يقال شيء إلا في حدود محددة . وكل مَن يخرج عليها يُسحب منه الترخيص الرسمي ، وبعد ذلك لا يعرف طريق الإذاعة أو التلفاز ، أو دور النشر والتوزيع . وتَعَرَّضَت الحياة الأدبية والفنية والفكرية للكبت فأصابها الضمور والضعف بعكس العهد الملكي الذي ظهر فيه كبار كتاب مصر ومفكريها .

* * *

(١) جريدة الأهرام اليومية في ٢١/١٠/٢٠٠٣ .

الفصل الرابع

الردة الحديثة و المعاصرة

- ردة صريحة وردة خفية

● وكان من نتائج الاحتلال العسكري ، والاتصال الكثيف بالأوربيين ونشاط المستشرقين والمنصرين ، وابتعاث الطلاب إلى أوربا ، أن ظهرت الردة الحديثة . وقد اتخذت صيغاً مختلفة . فالذين أعلنوا ردتهم عن الإسلام صراحة قلة قليلة ، أشهرهم التركي إسماعيل أدهم (١٩١١-١٩٤٠) الذي درس الرياضيات في روسيا ، وعمل فترة قصيرة في معهد أتاتورك في أنقرة ، ثم تركه وجاء إلى مصر ، وكتب في الأدب والتاريخ ، وأعلن إلحاده صراحة ، ومات منتحراً[١].

● ومنهم من ألحد لكن دون الإعلان الصريح . وهؤلاء كثيرون ؛ وقد اعتنقوا الفلسفات الأوربية : الوضعية المنطقية والعقلانية ، والتحليلية والماركسية والوجودية والنفعية (البراجماتية) . وهي مذاهب إلحادية ، وكتبوا الكتب وألقوا المحاضرات لترويجها بين المسلمين .

● ومنهم من أعلن رفضه للقرآن الكريم ، أو بعض آياته . وهؤلاء يخفون حقيقة مذاهبهم بخلط الأوراق ، حيث يُظهِرون احترامهم للدين في عبارات متناثرة هنا وهناك في مؤلفاتهم ، لكنهم ينكرون صلاحية الإسلام للتطبيق في الحياة العصرية . وقد عَبَّر أحدهم عن ذلك بقوله إن : «الماضي أقل صلاحية من الحاضر» دائماً«وفي «كل الظروف»! وقوله : «استحالة أن يكون الماضي أكثر

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة .

رشداً من الحاضر ، وأخصب فكراً ، وأهدى سبيلاً »[1]. وقوله : « لا حُكْمَ لماضٍ على آتٍ »[2]. والماضي هو الإسلام ، والحاضر هو الفكر الأوربي الفلسفي والعلمي ، التجريبي ، المادي ، والإلحادي .

● ومنهم كُتَّاب نصارى عرب ، وسياسيون ، وحزبيون ، مثل شبْلي شميِّل وسلامة موسى ، وميشيل عفلق ولويس عوض .

● وحاول البعض التشكيك في عصمة النبي ﷺ في التبليغ عن ربه لهدم السنة وإفساح المجال للاستيراد من الغرب . فيقول حسين أحمد أمين (وهو سفير مصري سابق) : « إن التشكيك له ما للإيمان من أهمية ونفع ، إذ كيف يمكن للمرء أن يقبل الحق عقيدة إن كان عقله وقلبه لا يزالان قانعيْن بالكثير من البهتان والزور؟ [3] » ثم كتب مقالاً في جريدة الحياة الدولية في محاولة للتشكيك في السنة المطهرة [4] . وما جاء في المقال ، وقبل ذلك في الكتاب ، ترديد لآراء والده في كتابه : « فجر الإسلام . »[5]

- ولاشك أن هدم الأسس أجْدَى لدى المشككين من هدم الفروع . والتشكيك في عصمة النبي ﷺ في تبليغ رسالته إلى أمته أخطر من التشكيك في رواة السنة من الصحابة ﷺ . فيقول السفير حسين أمين إن : « النبي لم يدِّع قط أنه معصوم من الخطأ إلا حين يُملى أو يتلو آيات ربه » ، وإن : « أنصار الالتزام بالسُّنة هم الذين افترضوا أن العناية الإلهية إنما كانت توجِّه كل عمل يأتي به وكل كلمة صدرت عنه مُذ بعثه الله رسولاً إلى قومه إلى أن مات ، ومن ثم فقد رأوا أحكام السُّنة ملزمة في الحالات التي لم يرد بصددها حكم قرآني على أساس أن لها مصدراً إلهياً .

---

(١) دكتور زكي نجيب محمود ؛ ثقافتنا في مواجهة العصر ؛ ص ١٠٤
(٢) دكتور زكي نجيب محمود ؛ تجديد الفكر العربي ؛ ص ٢٢٨ .
(٣) انظر كتابه : دليل المسلم الحزين ، دار الشروق ؛ ط ١ ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م ؛ ص ١٤٣ .
(٤) عدد يوم ١٩٩٩/١٢/٣١ .
(٥) ط ٩ ؛ سنة ١٩٦٤م ؛ ص ٢٠٨-٢٢٤ .

ثم بُذلت المحاولات بعد ذلك من أجل رفع أحكامها إلى مصاف الأحكام القرآنية.»[1]

●وهذا الكلام ينطوي على جملة أخطاء أهمها :

الأول : قَصْرُ عصمة النبي ﷺ على تبليغ القرآن .

والثاني : نِسْبة توسيع نطاق السنة إلى مجاهيل .

والثالث : نسبة رفع أحكام السنة إلى مَصَاف الأحكام القرآنية إلى مجاهيل أيضاً .

والرابع : خلو كلامه من البراهين والأدلة .

● وكان والده أحمد أمين قد نقل عن بعض الأصوليين آراءهم ، وانتهى إلى أنهم : «اتفقوا على أنه ﷺ لا يُقَرّ على خطأ ؛ فما اجتهد فيه وأقر عليه كان ـ لاشك ـ حجة»[2]. أما الأحاديث التي هي بوحي من الله تعالى فلا خطأ فيها ، والنبي في قولها معصوم . ثم أورد أمثلة لاجتهادات أخطأ فيها النبي ، ولم يقره الله عليها . لكنه لم يمحص تلك الأمثلة ؛ ولو أنه فعل لوجد أنها تجافي الحقيقة . وهذا بيان ذلك :

(أ) **أسرى بدر** : قال أحمد أمين إن النبي امتنع عن قتل أسرى بدر ، اجتهاداً ، وإنه أخطأ في ذلك ، فعاتبه الله تعالى على ذلك .

● وأقول : إن هذا زعم خاطئ . فالآية الكريمة التي استند إليها تقول ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الأنفال:٦٧) وعلق عليها أحمد أمين فقال : «وكان عمر قد أشار عليه بالقتل . ولو حكم (النبي) بمقتضَى الوحْي ما عُوتب»[3].

---

(١) المقال المشار إليه

(٢) فجر الإسلام ؛ ص ٢٣٤ .

(٣) نفسه ؛ ص ٢٣٣ .

● والحق أن أحمد أمين أخطأ في فهم معنى الآية . فالعتاب الوارد فيها عتاب لبعض المقاتلين الذين حرصوا على أسْر أغنياء قريش أملاً في الفداء المالي ، وليس العتاب موجهاً للنبي بشخصه وإنما بصفته قائدهم . ومثل هذا كثيراً ما يرد في القرآن الكريم ، كقوله تعالى ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ (القصص:٨٦-٨٨) فقد كان النبي عدواً للكافرين قبل بعثته ، ومن المستحيل أن يكون ظهيراً لهم أو أن يكون منهم بعدها! فالنَّهْي ليس له شخصياً ، بل لأمته .

والحق أن القرآن يحث المقاتلين على الإثخان في الجهاد ، أي قتل الأعداء ، لا الحرص على أسْر الأثرياء منهم[١] . وفي الآية رقم ٤ من سورة محمد نجد التوجيه القرآني نفسه ، ولكن بصراحة أكبر ، موجهاً إلى المقاتلين ، لا إلى قائدهم ، فيقول ﷻ ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ (محمد:٤) .

● وصفوة القول إذن إن النبي ﷺ لم يخطئ في حُكْمه في أسرى بدر ، ولم يعاتبه الله تعالى ، لأنه لا مجال لعتاب .

(ب) النهي عن قطع أشجار مكة

والمثال الثاني هو : نَهْي النبي عن قطع أشجار مكة ، وطلب العباس استثناء شجر« الإذخر» لحاجة الناس إليه لتعريش بيوتهم ، واستجابة النبي لطلبه .

والخبر الوارد عن هذه المسألة ضعيف ، لوجود «أبان بن صالح» بين رواته ، وهو راوٍ ضعيف[٢] . ومع ذلك فإننا لو قبلناه لما وجدنا فيه أن النبي أخطأ في اجتهاده ، وأن العباس صحح له الخطأ . وقد كان من عادة النبي أن يُصدر الحكم ، ويسكت قليلاً ، ثم يستثني منه ما يشاء . ولكن العباس تسرع وطلب ما طلب .

---

(١) القرطبي ؛ الجامع ؛ تفسير الآية .

(٢) سنن ابن ماجه ؛ رقم ٣١٠٩ .

ولقد أورد ابن القيم رحمه الله أمثلة لاستثناءات النبي بعد السكوت قليلاً . من ذلك قوله : «لأغزونَّ قريشاً ، والله لأغزونَّ قريشاً !» قالها ثلاثاً ، ثم سكت ، ثم قال : «إن شاء الله» .

● فليس في هذه المسألة خطأ يجرح العصمة .

(جـ) مشاورة النبي للحباب

- ويورد أحمد أمين مشاورة النبي للحباب بن المنذر بخصوص مكان معسكر الجيش يوم بدر كمثال آخر . والحق أن اختيار مكان المعسكر لم يكن موضع اجتهاد من النبي ﷺ . فقد أشار بعض الصحابة بموضع ، ثم أشار الحباب بموضع آخر ، فاقتنع النبي بأنه أفضل ، وقال إنه : «الرأي والحرب والمكيدة»[1]. ولا صلة لهذا بالعصمة من قريب أو بعيد .

● وفي هذا يقول أبو حامد الغزالي إن : «قول النبي ﷺ حجة ، لدلالة المعجزة على صدقه ، ولأمر الله تعالى إيانا باتباعه ، ولأنه لا ينطق عن الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم:٤) لكن بعض الوحي يُتْلَى كتاباً (وهو القرآن) ، وبعضه لا يُتْلَى ـ وهو السُّنة»[2]. ويقول الشاطبي : «وأنت ترى الاجتهاد الصادر منه معصوماً بلا خلاف ، إما بأنه لا يخطئ ألبتة ، وإما لأنه لا يُقَر على خطأ»[3].

● وصفوة القول ـ إذن ـ إن السُّنة المطهرة قد بُلِّغت إلى الصحابة ﷺ ، سليمة من الخطأ ، نقية من الكدر .

● وهكذا تصطدم الردة الحديثة والمعاصرة ، الصريحة الفاجرة ، والخفية المراوغة ، بحقائق السيرة العطرة ، وتتبدد الشكوك المفتعلة بجهود علماء الإسلام العظام الذين دوَّنوا السُّنة ، ونَفَوْا عنها مَعَاولَ الهدم والتشكيك . وعلى العلماء المسلمين اليوم تطوير الخطاب الديني لمواجهة هذه الردة الحديثة بكل ضروبها وأشكالها .

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٦٢٠ .

(٢) المستصفى ؛ ص ١٥٣

(٣) الموافقات ؛ جـ ٤ ص ٥٤ .

● ولكن عاصفتين مُدمِّرتين ثارتا في القرن التاسع عشر في الهند وفي إيران ، هما القاديانية والبهائية ، كانتا حركتي ردة عنيفتين ، لا مجرد محاولات فكرية . وهذا هو ما نعرض له في البقية الباقية من هذا الفصل .

القاديانية

هذه حركة ردة خطيرة ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر في المجتمع الهندي المسلم . فقد أثار المرزا غلام أحمد القادياني (١٨٤٠- ١٩٠٨م) عواصف عاتية في المجتمع الهندي المسلم حين ادعى النبوة ، وهو ادعاء مناقض لعقيدة المسلمين بأنه لا نبي بعد محمد ﷺ ، لقول الله تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب:٤٠). وقوله ﷺ : « لا نبيَّ بعدي » . ولهذا : « أطبق العلماء على تضليل القاديانيين وتكفيرهم ، وأصبح ذلك كلمة إجماع لم يشذ عنها إلا شاذ ، وأفتوا وألفوا في ذلك مؤلفات كثيرة ، وأصدرت مراكز الفتوى فتاوى صريحة بكفرهم وارتدادهم عن دين الإسلام . وأصدرت محكمة «بهاولبور» سنة ١٩٣٥م - بعد مناقشات طويلة دامت عامين كاملين واشترك فيها كبار علماء أهل السنة وكبار زعماء القاديانية - حكمها بكفر القاديانية ، وتحريم نكاح المسلمة بالقادياني »[١].

● ويكفي أن نعلم أن أكبر علماء الهند المسلمين محمد إقبال وأبو الأعلى المودودي ، وأبو الحسن الندوي ، قد كانوا على رأس الذين ألَّفوا كتباً لصد تلك الغارة المدمرة عن المسلمين الهنود أولاً ، وعن المسلمين عامة ثانياً .

● وكانت أصداء تلك الردة القاديانية ضعيفة في العالم العربي ؛ لكنها كانت رهيبة في شبه القارة الهندية . وقد وصفها الشيخ الندوي فقال إنها : « دين إزاء دين ، وأمة إزاء أمة ، وإن كان لها نظير في تاريخ الإسلام الطويل الواسع فهو في الباطنية والإسماعيلية منذ عهد مؤسسها « ميمون القداح . . »[٢]

---

(١) أبو الحسن علي الحسيني الندوي ؛ القادياني والقاديانية ؛ الدار السعودية ، ط ٥ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ؛ ص ١٠ .

(٢) كتب أبو الأعلى المودودي كتاباً بعنوان : «ما هي القاديانية ؛ ترجمة خليل أحمد الحامدي ؛ دار القلم بالكويت . وألف إحسان إلهي ظهير : القاديانية ؛ نشر إدارة ترجمان السنة ؛ ط ٣ سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

● وقد واصل المرزا غلام أحمد القادياني سلسلة ادعاءاته ابتداءً من ادعاء الولاية ، ومجدد العصر ، ثم المسيح الموعود والمهدي المنتظر ، ثم النبوة الجزئية ، ثم النبوة . وفي كل ذلك يراوغ ويخاتل ، فيقول : « لست نبياً ، ولكني مُحدّث من عند الله وكليمه »[(١)] .

- وتجاسر على خصومه وتنبأ ، كما تنبأ الرسول ﷺ . وزعم أن مُكَذبيه المفترين عليه سيموتون قبله بمرض الطاعون . لكن المرزا هو الذي مات أولاً وبالطاعون ، فافتضحت دعواه النبوة ![(٢)]

● وأخطر ادعاءاته المضادة لعقيدة المسلمين زعمه بأن باب الوحي لم يغلق . وقد انشغل العلماء المسلمون الكبار بدحضه ، فقال المودودي إن تعاليم نبينا الكريم لا تزال حية ، وقد عرفت الإنسانية تعاليم الإسلام الكاملة ، وكان المصطفى ﷺ رسولاً للعالمين : « فلا حاجة للدنيا اليوم لنبي آخر ، وإنما هي بحاجة إلى رجال يتبعون النبي ﷺ ، ويدعون الناس إلى اتباعه ، ويفهمون هَدْيه ﷺ ، ويعملون به ، ويقيمون فى الأرض دولة ذلك القانون الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله تعالى »[(٣)] .

● وكان المرزا غلام أحمد قد أفْتَى ببطلان الجهاد ضد المستعمرين البريطانيين الذين كانوا يحتلون الهند ـ بلاد المسلمين ووطنهم ، بل إنه درج على امتداح المستعمرين ، والفخر بأنه مخلص لهم ، وأنه قد نجح في كسب الأصدقاء والمؤيدين لهم من أتباعه المؤمنين بهرطقته[(٤)] .

● وفوق هذا كله كان المرزا فاسقاً فاجراً ، وقد كلَّف بعض أتباعه بإحضار النساء إلى النادي السِّري الذي أنشأه لكي يفسق بهن فيه ![(٥)] .

---

(١) المودودي ؛ السابق ؛ ص ٢٨ .
(٢) الندوي ؛ السابق ؛ ص ٣٠ .
(٣) ألف باء الإسلام ؛ مكتبة التراث الإسلامي ؛ بالقاهرة ؛ ص ٧١
(٤) الندوي ؛ السابق ؛ ص ٩٩ .
(٥) الندوي ؛ السابق ؛ ص ٩٤ .

البهائية

● وهي حركة ردة أخرى تزعمها رجل إيراني اسمه مرزا حسين علي (١٨١٧-١٨٩٢م) . كان مسلماً ، ثم ارتد عن الإسلام واعتقد في البابية ، وهي حركة ردة سابقة تزعمها الباب الشيرازي ، وحسين المازندراني ؛ وزعم مرزا حسين علي أنه نسخ الإسلام والبابية بـ« البهائية » . وفي سنة ١٨٦٢م أعلن حسين علي ، الذي لقب نفسه بلقب « بهاء الله » أنه مظهر الله ! وهذا هو مذهب الحلول المعروف الذي يزعم أصحابه أن الله تعالى قد حل في إنسان !

● وكان لذلك الرجل آثار سيئة على عقائد المسلمين .

● ومات « بهاء الله » في السجن سنة ١٨٩٢م ، في « عكا » بفلسطين . ولذلك يسافر البهائيون إلى إسرائيل للحج ، والطواف بمزاراتهم ، وأداء زكاة أموالهم لبيت العدل البهائي في « حيفا » لينفق منها على المحافل البهائية في العالم .

ويزعم البهاء فيما يسميه « سورة الهيكل » أنه : « لا يُرى في هيكلي إلا هيكل الله ، ولا في جمالي إلا جماله ، ولا في كينونتي إلا كينونته ، ولا في ذاتي إلا ذاته ، ولا في حركتي إلا حركته ، ولا في سكوني إلا سكونه ، ولا في قلمي إلا قلمه العزيز المحمود . قلْ لم يكن في نفسي إلا الحق ، ولا يُرى في ذاتي إلا الله »[1]. وهذا هو أوضح تعبير عن « الحلول » الذي ادعاه ذلك المأفون . وهو يخرجه من الإسلام ويثبت ردَّته . ولذلك اتفق المسلمون السنة والشيعة على أن البهائية حركة ردَّة ، وطاردوا أتباعها وحاكموهم كمرتدين .

● وكان الرسام المصري حسين بيكار قد تزعم الحركة البهائية في مصر ، وصرح بأن البهاء هو رسول العصر الذي يقوم بإصلاح المفاهيم العقائدية لدى مختلف الطوائف[2].

---

(١) نقلاً عن صالح عبدالله كامل والدكتور عبدالعزيز شرف : أضواء على البهائية ؛ نشر مكتبة مصر ؛ ص ١٣٧ (دون تاريخ) .

(٢) نفسه ؛ ص ١١٣ .

● ويرفض البهائيون عقيدة المسلمين في خَتْم النبوة التي يثبتها القرآن الكريم والسُّنة المطهرة ، لكي يسوغ لهم الزعم بأن «البهاء» نبي ورسول ، جاء بشريعة جديدة تنسخ شريعة الإسلام[1] .

● وهذه الشريعة الجديدة عبارة عن تشويه اعتباطي للشريعة الإسلامية ، بتقرير صلوات مضحكة ، وإيجاب الحج إلى «عكا» ، في إسرائيل ، وإباحة الزنا واللواط! ولذلك صدرت الفتاوى القاطعة من الأزهر بأن البهائية مذهب باطل ، وأن كل من يعتنقها مرتد عن الإسلام . وأفْتَى الأزهر في ١٩٤٧/٩/٢٣م ببطلان زواج البهائيين .

وأيدت محكمة القضاء الإداري المصرية الفتوى بردة البهائيين عن الإسلام ، وبطلان زواجهم .

● وكان لهذه الأحكام والفتاوى القاطعة أثرها في كبح تلك الحركة التي كانت تتسلل إلى صفوف الجهال وأنصاف المتعلمين تحت ستار أنها لا تتعارض مع الإسلام ، وأنها تؤيد عقيدة التوحيد وتعترف بنبوة محمد ﷺ . وكان هذا هو الستار نفسه الذي اتخذته القاديانية ، وعضت عليه بالنواجذ ، حتى صدر القانون الذي حسم القضية بأن اعتبرها نحلة خارجة عن الإسلام .

● فلا ريب أن البهائية دعوى خطيرة مضادة للإسلام ، وتشهد الكتب العديدة التي صدرت عن «البهاء» نفسه وعن أتباعه ، بأنها حركة ردة مخربة . . وتتراكم القرائن على إثبات خطورتها على الأمة المسلمة . . من ذلك تأييد الصهيونية لها ، واحتضانها لبيت العدل ، وللمزارات البهائية في عكا وحيفا ، وتأييد الغربيين في أوربا وأمريكا ومساعداتهم لها .

- لكن البهائية أقل خطراً من الفلسفات المادية الإلحادية التي تتبرقع بالعلوم الحديثة ، والمذاهب العقلية . ومع تقدم التعليم ينحسر خطر البهائية ويزداد خطر الفلسفات المادية بين أنصاف المتعلمين .

---

(١) أضواء على البهائية ؛ ص ١٢٨ .

● ويلاحظ أن حركات الردة القديمة والحديثة تستخدم الغواية بأن تُحَلِّل الناس من الضوابط ، وتُسقط عنهم الواجبات . هذا ما صنعه مُسَيْلَمة بن حبيب الكذاب[1] ، وما صنعته البهائية والبابية في العصر الحديث . بل يمكن أن نشير أيضاً إلى أن التمرد على الكنيسة المسيحية استعمل هذا السلاح نفسه ، وانتهى الأمر بالغرب كله إلى إباحة الاستباحة permissive cornucopia[2] ، التي استحلت الفحشاء وفعل قوم لوط ، وكل ضروب الشذوذ الجنسي ، وأطلقت العنان للشهوات الفردية لكي تعربد وتدمر الأسرة وأمن المجتمع وسكينته .

● وإذا كان البشر يميلون إلى التحلل من القيود والقيم والضوابط ، فإن النزعة الإنسانية إلى السمو ، والتميز من الحيوانات ، يمكن أن تهزم ذلك الميل إلى التحلل إذا أفلح التعليم والتربية والدعوة في إذكائها وتنشيطها ، إلى جانب الإهابة بجنة الدنيا والآخرة لأصحاب السمو الأخلاقي والطاعة لله تعالى .

● ولا يمكن أن ننكر أن هذا المنهج المشترك لحركات الردة قديماً وحديثاً قد نجح في تغيير أحوال نسبة كبيرة من أبناء المسلمين في كل عصر ومصر طُبق فيه ، وقد انخلع البعض من الإسلام كلية ، وتشكك البعض في العقائد الإسلامية ، وتحلل آخرون من الضوابط وأغرقوا في الشهوات المحرمات . وهذا يحتم على الدعاة تطوير الخطاب الديني ، للمواجهة عبر الوسائل الحديثة ، وعلى وجه الخصوص : الوسائل الإعلامية الثقيلة وعلى رأسها التلفاز والأعمال الدرامية التي ينجذب المشاهدون إليها ويتأثرون بها .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ٢ ص ٥٧٦ ، ص ٦٠٠ ، ٦٠١ ، زاد المعاد ؛ جـ٣ ص ٣٧

(٢) برجنسكي Out of Control; p 64

الفصل الخامس

أحوال المخاطبين من أهل الكتاب

اختلاف أحوال المخاطبين من أهل الكتاب

● وتختلف أحوال أهل الكتاب اليوم عن أحوال أسلافهم اختلافاً كبيراً . وأخطر الاختلافات هو نبذ كثير منهم لليهودية والنصرانية ، واعتناق الفلسفات المادية الملحدة . وقد بلغت نسبة الملحدين ٨٠٪ في بعض الدول الأوربية . والبقية منهم تأخذ الدين أخذاً غير صحيح .

- وهذه الاختلافات الجديدة تؤثر سلباً على الجاليات المسلمة التي تعيش في الغرب وتستلزم تطوير الخطاب الديني الإسلامي . فالملاحدة تحللوا من القيم المسيحية واليهودية وانغمسوا في الشهوات واللذات الحسية المحرمة ، من الفحشاء وفعل قوم لوط ، وزنا المحارم ، والمجاهرة بكل ذلك . وشهد العالم أجمع ولي عهد بريطانيا وهو يعلن على شاشات التلفاز علاقته الآثمة مع امرأة ، كما شهد العالم أجمع وسمع الأميرة ديانا ـ زوجته ـ وهي تعلن عن ممارستها الخيانة الزوجية . وشغل الناس في القارات الخمس بقصص الفحشاء التي مارسها « كلنتون » الرئيس السابق للولايات المتحدة ، ثم رئيس الجمهورية الفرنسية « ميتران » .

● ويعيش الدعاة في ذلك المناخ الغربي الملوث ولا هَمَّ لهم سوى وقاية أبناء المسلمين من طوفان الإلحاد والانحلال وهذا يتطلب تطوير الخطاب الديني . وعلى الرغم من ذلك اهتدى عدد كبير من الغربيين إلى الإسلام . ويقول الدكتور مراد هوفمان ـ أحد كبار المهتدين إلى الإسلام في القرن الماضي ـ وكان سفيراً

لألمانيا بالمملكة المغربية ، إن بعض المراقبين بعيدي النظر يتوقعون : «أن يصبح الإسلام الديانة السائدة في القرن القادم»[1]. ولكن يجب أن نتذكر أن عدداً من المسلمين جرفهم طوفان الإلحاد العام ، والانحلال الشامل . ثم إن الغربيين جاءوا إلى بلاد المسلمين مصممين على نشر ثقافتهم ، بما فيها من مسيحية وما فيها من إلحاد وانحلال[2].

● وأما أهل الكتاب الذين يعيشون بين المسلمين ، فيتمتعون بحرياتهم الدينية كاملة . وقد اندمجوا في الحياة مع المسلمين حتى شاركوهم في الجندية . وتبعاً لهذا لم يعدْ ثمة مسوِّغ شرعي لمطالبتهم بالجزية .

– ويحرص المسلمون على احتضان أهل الكتاب الوطنيين حفاظاً على الوحدة الوطنية ، التي تتعرض للمكائد من جانب الدول الكبرى الساعية إلى إثارة الاضطرابات والانشقاقات والحروب الأهلية بين المسلمين ومواطنيهم من المسيحيين ، كما حدث في لبنان ، وكما حدث في إندونيسيا والسودان .

– هذه كلها اختلافات جديدة في أحوال أهل الكتاب الوطنيين . فلم يعد هناك مجال لدعوتهم إلى الإسلام ، تجنباً لإثارة الفرقة والقلاقل . بل إن الأفراد الذين يرغبون في اعتناق الإسلام لا يُقبل منهم ذلك في مصر ـ مثلاً ـ إلا بعد إجراءات رسمية عديدة معقدة ، تشارك فيها الكنيسة القبطية .

● والحق أن الضعف الذي أصاب الأمة المسلمة هو الذي يحدد علاقتها بأهل الكتاب سواء الذين يعيشون في أوساط المسلمين والذين يعيشون في الدول الأجنبية ، بل إن هذا الضعف هو الذي فرض عليها المهادنة في مواجهة الاعتداءات الصهيونية والاستعمارية في البوسنة والشيشان وكشمير وتركمانستان وأفغانستان

---

(١) انظر كتابه : «الإسلام كبديل» ؛ تعريب عادل المعلم ؛ الشروق الدولية ؛ ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ط١ ص ٩ .

(٢) راجع الفصل الأول من هذه الدراسة .

والعراق . لأننا لا نستطيع أن نعادي الولايات المتحدة وروسيا والهند والصرب ، والصين[1] .

● وقد نزلت بالمسلمين مِحَنٌ عديدة ، فلم نعد نملك القوة لقتال الكفار المحاربين للإسلام ، أو إجراء المباهلة مع قادة الكنيسة في الغرب ، أو غير ذلك مما فعله سلفنا العظام الأقوياء .

- لكن أمامنا فُرصاً عديدة متاحة للدعوة عَبْر وسائل الإعلام الحديثة ، وخصوصاً القنوات الفضائية . وقد اتخذت الجاليات المسلمة في الغرب المبادرة ، واستأجرت بعض تلك القنوات فعلاً وهذا تطوير مؤثر في الخطاب الديني .

- وتلعب المراكز الثقافية الإسلامية في الغرب دوراً في الدعوة إلى الإسلام ، لكنها لا تكفي لأداء مهمات الدعوة على الوجه الأكمل ، فهي ضعيفة وفقيرة مالياً وعلمياً . والمسلمون في الغرب شراذم متباعدة . وبعد ٢٠٠١/٩/١١ فزعت الدول الغربية من الوجود الإسلامي بها ، وأخذت تدس أنفها في شئون الجاليات المسلمة ، على نقيض ما تقتضيه العلمانية السائدة ، وشرعت في إقامة اتحادات عامة لكل المسلمين ، تختار الدولة المعنية المرشحين لقيادتها ، بحيث تضمن طاعتهم لتعليمات الموظفين ، دون اعتبار لمصالح الجالية المسلمة[2] . وهذا كله يتطلب منا طرقاً ومناهج حديثة للدعوة[3] .

---

(١) والمهادنة جائزة شرعاً ؛ فيقول ابن رشد رحمه الله إن بعض الفقهاء أجازها : «ابتداءً من غير سبب إذا رأى الإمام في ذلك مصلحة للمسلمين ، وقوم لم يجيزوها إلا لمكان الضرورة الداعية لأهل الإسلام ، من فتنة أو غير ذلك ، إما بشيء يأخذونه منهم ، وإما بلا شيء . «بل ذهب بعض الفقهاء إلى حد القول إنه يجوز دفع الجزية للكفار لمحنة نزلت بالمسلمين ، و لقلتهم وضعفهم ، ومن ثم انتهوا إلى القول : إن الهدنة جائزة في كل حال . ابن رشد ؛ بداية المجتهد ؛ جـ ١ ص٥٣٠ ؛ وانظر : الأم للشافعي ؛ جـ ٤ ص ١١٠ .

(٢) راجع كتابي : مرض كراهية الإسلام ؛ دار الجمهورية ؛ ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٣م ؛ ص ٣٥-٣٧ .

(٣) انظر الفصول أرقام ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ من هذه الدراسة .

● وفي أعقاب صدور فتوى الخميني بإهدار دم سلمان رشدي كتبت أقول إن الصواب رَصْدُ مقدار الجائزة التي رُصدت لمن يقتله ، لبناء مؤسسة للسيرة والسنة النبوية الشريفة في قلب أوربا ، لنشر حقائقها بكل الوسائل الممكنة ، وبذلك نقضي على سلمان رشدي وأمثاله في كل مكان وزمان . ومعظم الشعوب الغربية توّاقة للمعرفة ، وتحترم الحقائق [1]. ولا زلت أعتقد بأن مثل هذه المؤسسة ضرورة دَعَوِيَّة وعلمية وسياسية . والمرْدود من ورائها يمكن أن يؤثر في السياسات الغربية على المدى البعيد .

صعوبات أمام الدعوة في أوربا - إيطاليا نموذجاً

● ذكرت فيما سبق أنه قبل قرنين من الزمان لم تكن هناك جاليات مسلمة في أوربا الغربية وأمريكا . فهذه الجاليات واقع جديد في حياة المسلمين والأوربيين . وأحوال المسلمين من أبناء الجاليات ليس لها مثيل في ماضي الأمة المسلمة . حقاً كانت هناك أقليات يهودية ونصرانية تعيش في بلاد المسلمين ، ولكن لم تكن هناك جاليات مسلمة في أوربا الغربية أو أمريكا .

- وتواجه الدعوة مشكلات نوعية كبيرة في المجتمعات الغربية . ونعرض لهذه المشكلات في إيطاليا كنموذج لما يحدث في الدول الأخرى في الغرب .

- يضم المجتمع الإيطالي المسيحي جالية يهودية وأخرى مسلمة . ويزيد عدد المسلمين على مليون نسمة . ولقد واجه المركز الإسلامي في روما ظروفاً عصيبة خصوصاً بعد يوم ٢٠٠١/٩/١١ حيث كثرت الاتهامات للمسلمين بأنهم إرهابيون ودمويون . . . إلخ . وحاول الدعاة تطوير الدعوة في مواجهة تلك الاتهامات بإتاحة

---

(١) أذكر حادثة وقعت لي شخصياً في جامعة «بوردو Purdue» في ١٩٩٤/٤/١٠ بعد أن ألقيت محاضرة عن «الآخر في الأخلاق الإسلامية» اجتمع حولي خمسة من الأساتذة ، ودار الحوار حول العلاقات الإسلامية الأمريكية ، فما أن انتهيت من عرض رأيي حتى بادر أحدهم قائلاً : «نحن الأمريكيين منافقون!» وكررها مرتين . فقد اقتنع بأن سياسات بلاده خاطئة وأنانية ومنافقة! وتشيع بين الأمريكيين خرافات كثيرة عن الإسلام ، يستطيع الداعية الماهر أن يبددها ، ويرسخ حقائق الإسلام العظيمة مكانها .

الفرصة للإيطاليين للالتقاء بهم في المركز للإجابة عن تساؤلاتهم وتبديد الأفكار المغلوطة عن الإسلام ، وتفنيد الاتهامات الباطلة التي ترددها وسائل الإعلام . لكن كم من الإيطاليين يمكن أن يكلِّف نفسه عناء الذهاب إلى مقر المجلس الإسلامي ؟!

- وذهب بعض الدعاة من أساتذة الجامعة المسلمين ـ بالاتفاق مع بلدية روما ـ إلى المدارس الإيطالية لتعريف التلاميذ بالإسلام . ويقول الدكتور عبدالله رضوان الأمين العام للمركز الإسلامي في روما ، إن هذه التجربة نجحت نجاحاً كبيراً ، الأمر الذي شجعهم على العمل على التوسع فيها ، وهذا مثال جيد لتطوير الخطاب الديني .

- وإزاء تحيز الإعلام ، وإغلاق القنوات الفضائية الرسمية في وجوه المسلمين ، اتجهوا إلى القنوات الخاصة . وقد سمحت إحداها ببث برنامج إسلامي أسبوعي يتضمن لقاءات مع علماء وأساتذة مسلمين ويقدم فتاوى للجالية المسلمة .

- ويشكو الدكتور عبدالله رضوان من نقص المطبوعات باللغة الإيطالية كما يشكو من وجود أخطاء في الترجمة الإيطالية لمعاني القرآن الكريم . ونَقْصُ المترجمين مشكلة أخرى تواجه المركز في نشاطه الدعوي .

وربما كان السبب الرئيس لمعظم المشكلات هو عدم اعتراف إيطاليا بالإسلام كدين معتمد[(١)].

● وهكذا بَرَزت أمام أعين الدعاة المسلمين في إيطاليا المهام التي يجب النهوض بها : وهي السعي لاعتراف إيطاليا بالإسلام والتوسع في إرسال الدعاة إلى المدارس والجامعات ، وحل مشكلات الترجمة وتوفير ترجمة جديدة لمعاني القرآن الكريم ، وكذلك الكتب الإسلامية باللغة الإيطالية للرد على الأباطيل وشرح

---

(١) من حوار أجرته المحررة علا مصطفى مع الأمين العام للمركز ، ونشره الأهرام يوم ١٤٢٤/٩/٢٩هـ .

عقائد الإسلام وشرائعه وأخلاقياته . ولعل إنشاء قناة إسلامية كفيل بسَدِّ النقص في عدد الدعاة ، وضيق الأفق المسموح به في القنوات الخاصة .

● وهذا هو أحد الاقتراحات لتطوير الخطاب الديني .

● وإذا لاحظنا أن ظروف الدول الأوربية بصفة عامة متشابهة ، كان إنشاء مؤسسة أوربية إسلامية للدعوة خير وسيلة لإزالة سوء الفهم الواسع العميق لدى الأوربيين عن الإسلام والمسلمين . وَ لْتكن البداية قناة فضائية ، ثم دار نشر باللغات الأوربية الأساسية ، ثم معهد للترجمة ، وهكذا . وسوف تستفيد الجاليات المسلمة من هذه المؤسسات .

- وأعتقد أن دراسة جدوى هذه المؤسسة ستظهر فوائد اقتصادية وسياسية للدول الإسلامية ، فضلاً عن الخدمات الجليلة للدعوة الإسلامية في أوربا . والمسلمون في أوربا الآن أكثر من خمسة وعشرين مليوناً ، وفي روسيا مثلهم . والحفاظ على دين الأجيال الجديدة واجب في أعناق المسلمين جميعاً . والمؤسسة المقترحة ستكون عاملاً فعالاً في خدمة الإسلام والغرب في آن واحد ، لأن سوء الفهم يضر الطرفين .

● ويحذرنا الشيخ محمد الغزالي من أن سوء حال الأمة المسلمة في داخل بلاد المسلمين ذاتها يؤثر على فعالية الدعوة في الخارج ، لأنه : « لا يُقبل من امرئ رَثّ الملابس أن يدعو إلى الأناقة »[1].

● وأنا أعتقد أن الدعاة يجب أن يميزوا بين «الإسلام» وبين « واقع أحوال المسلمين» للتخفيف من أثر تلك الحقيقة . والسلوك الحسن لأفراد الجاليات المسلمة ، وكذلك سلوك الدعاة الراقي ، له أثره الكبير في تحسين صورة الأمة المسلمة . يضاف إلى ذلك بعض الجوانب الإيجابية في حياة المسلمين ، مثل نظافة المجتمعات المسلمة من الخمور ، والشذوذ الجنسي والجريمة ، إذا قورنت بالغرب .

---

(١) انظر كتابه : علل وأدوية ؛ دار القلم ؛ دمشق ؛ ط ١ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص ٢٣٧

وكذلك تماسك الأسرة ، وقوة الأواصر الاجتماعية ، وجوانب أخرى عديدة يمكن تصويرها وتقديمها عبر القنوات الفضائية . فملابسنا ليست كلها رثة وملابسهم ليست كلها أنيقة !

التخويف من الإسلام في الغرب : هوس هستيري !

●ولقد اتخذت الدعوة المضادة للإسلام أشكالاً عديدة في عهد النبي ﷺ . من ذلك على سبيل المثال تخويف العرب من دعوته . فهذا الطفيل بن عمرو الدَّوسي يزور مكة ، فيُهْرَع إليه نفر من قريش ، ويقولون يُخوِّفونه : يا طُفَيل ، إنك قدمت إلى بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعْضَل بنا (يعني : اشتد أمره) ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا . . وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنَّه ولا تسمعنَّ منه شيئاً . واستجاب الرجل لهم فوضع في أذنيه قطعاً من القطن لكيلا يسمع كلام النبي! لكنه سمع شيئاً من كلامه الشريف وهو يصلي عند الكعبة ، فأحبَّه ، وذهب وراءه إلى بيته وسمع المزيد وأسلم ، ودعا قومه فأسلم بعضهم ، وتأخر بعضهم ثم أسلموا[1] .

● والآن تتخذ الدعوة المضادة للإسلام في الغرب هذا الأسلوب الجاهلي نفسه للصد عن سبيل الله . وقد بلغ التخويف من الإسلام حد الهوس الهستيري في كتاب « الحرب الشاملة سنة ٢٠٠٦ » لمؤلفه « سيمون بيِرشْ » ، سنة ١٩٩٩ . والمؤلف شغل منصب مساعد رئيس أركان الحرب البريطاني للشئون السياسية ؛ فهو شخصية عسكرية وسياسية مرموقة ، لكن كتابه حفل بالدعاوى الخرافية . وهو يزعم أن الحرب الشاملة ستندلع سنة ٢٠٠٦ بين التحالف الإسلامي العظيم ومعه روسيا ، وبين حلف الناتو ومعه أمريكا . وتبدأ الأحداث بثورات إسلامية توحِّده ، سنة ٢٠٠٤ ، تحت قيادة صلاح الدين الجديد الذي نصفه كردي ونصفه ألماني! وسوف تقع ثورة جديدة في روسيا تأتي بحكومة عسكرية يسيطر عليها صلاح الدين . وسوف يستعمل صلاح الدين السلاح الكهرومغناطيسي الذي يطلق نبضاً

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٣٨٢ - ٣٨٥

إلكترونياً جباراً يدمر كل شيء ، وبذلك يعيد الغرب في لحظات إلى مستوى العصر الحجري ![1]

- ومن الجلي أن هذا الكلام تنبؤات وهمية لا أساس لها . والغرض هو التخويف من الإسلام ، والتحريض ضده . وعلى الدعاة أن يتصدُّوا لذلك ، لأنه تحريض خطير للغرب ضد الإسلام والمسلمين .

● والعداء للإسلام بين أهل الكتاب في أوربا وأمريكا له أسباب قديمة وأسباب جديدة ، يجب أن تكون معروفة للدعاة .

- في القديم انتهت الحروب بين الأمة المسلمة التي وُلدت في جزيرة العرب بأن طُردت الإمبراطورية الرومانية المسيحية من بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا ، بل إن أمتنا النجيبة سرعان ما اجتازت البحر الأبيض في نهاية القرن الأول الهجري ، لتنشئ دولة إسلامية على التراب الأوربي في الأندلس . وذكرى تلك الأحداث يستحيل أن تُنسى ، لأنها تاريخ طويل يدرسه الأوربيون في المدارس والجامعات .

● ويرصد الأوربيون اليوم ظواهر إسلامية يعتبرونها خطراً على الثقافة الأوربية المسيحية . من ذلك ـ مثلاً ـ تكاثر أعداد المسلمين في الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية ، وتمسكهم بدينهم ، واهتداء أعداد من الأوربيين والأمريكيين كل عام إلى الإسلام ، ومنهم مفكرون ومثقفون وفنانون وأساتذة جامعات . ولهذا وجدنا القس الأمريكي الشهير بسقطاته الأخلاقية ، «سواجارت» يصرخ في الفضائيات العديدة قائلاً إن : «الإسلام يغزو بلاد الغرب بصورة مذهلة». وإن : «لندن عاصمة فكتوريا التي كانت تحكم العالم الإسلامي كله أصبحت تأوي أنشط مركز إسلامي في العالم ، وإن عدد المراكز الإسلامية في الولايات المتحدة أصبح يفوق عدد أعضاء الحزب الشيوعي الأمريكي .

(١) راجع كتابي : مرض كراهية الإسلام ؛ ص ٤٩-٥٣ .

● وفي حين يتراجع الحزب الشيوعي ، يتزايد عدد المراكز (الإسلامية) ، وتقوى جموع المسلمين»[1].

- وفي شهر فبراير عام ٢٠٠٤ أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية ـ وهي المجلس التشريعي الفرنسي ـ قانوناً يوم ٢٠٠٤/٢/١٠ يحظر على النساء المسلمات ارتداء الخمار في المدارس الحكومية[2]. وهذا القانون يتعارض مع مواثيق حقوق الإنسان التي تنص على حرية العبادة لأتباع كل الديانات .

- وهذا القانون ، وبالأغلبية الكاسحة التي نالها في المجلس التشريعي ، يعبر عن شعور بالضعف الثقافي أمام الإسلام ، وقد صرحوا بأنهم يخشون تحول الجماهير الفرنسية إلى الإسلام ونبذ العلمانية والمسيحية ، والثقافة الأوربية بصفة عامة . فالمسألة ليست قطعة من القماش تغطي بها المرأة المسلمة شعرها وعنقها ، ولكنها الحشمة والاحترام والستر والسلوك الأخلاقي النظيف الذي يميز المسلمات ، وبذلك يغري الأجانب على اعتناق الإسلام .

● هذه بعض الاختلافات التي طرأت على أحوال المخاطبين من أهل الكتاب ، ومن المسلمين الذين يعيشون بينهم . وهي اختلافات عميقة ، وداخلة في صلب العقائد الدينية . وآثارها على الدعوة والدعاة عديدة وثقيلة ، وتحتاج إلى تطوير واسع وعميق للخطاب الديني ، إلى «البصيرة» ، وإلى التماس أحدث وسائل التأثير والاتصال ، مع المثابرة والصبر على المكاره .

* * *

(١) انظر مجلة المختار الإسلامي ؛ شوال سنة ١٤٠٨هـ .

(٢) نشرته جريدة الأهرام اليومية في عدد ٢٠٠٤/٢/١١هـ .

الفصل السادس

تحديات علمية مستحدثة

الاجتهاد

● جاءت العصور الحديثة بسيل منهمر من الأفكار والنظريات ، والمعاملات المالية والعلاقات الاجتماعية ، والنظم السياسية ، وَسَعَتْ دوائر عديدة لإحلال الجديد المستورد محل كل ما هو إسلامي ، لكي تبهت الصبغة الإسلامية للمجتمع المسلم وينكمش نطاق الشريعة الإسلامية . وكان من الواجب مواجهة هذه التحديات المستحدثة بالاجتهاد الفقهي لمعرفة ما يحل من تلك المستجدات وما لا يحل ، وإدخال الحلال تحت مظلة الشريعة الغراء ، واستبعاد الحرام وصون الأمة من التردي فيه .

● وكانت الأمة المسلمة قد عاشت زمناً طويلاً لا تعرف التجديد ، ولا تمارس الاجتهاد ، فسَادَ الجمود ، وأغلقت أبواب الاجتهاد . ولقد رفض رجال من الأزهر ذات يوم إدخال «علم تقويم البلدان» في المناهج الدراسية ، واتهموا الذين طالبوا بإدخاله بمحاولة الغض من علوم الدين . وأصر شيوخ عديدون على رفض كل علم إلا إذا كان قد قال به شيوخهم المباشرون أو أحد الفقهاء الذين توفاهم الله ! [1] وكذلك فعل الشيوخ في عهد المرابطين : «حتى نُسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ [2] .

(١) محمد عبده ؛ الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ؛ سلسلة المواجهة ؛ رقم ٢ ؛ ص ١٤٦ ، وص١٦٠

(٢) الدكتور عبد المجيد النجار ؛ تجربة التغيير «في حركة المهدى بن تومرت» ؛ نشر المؤلف ؛ تونس ؛ سنة ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م ص ٢٧

- والإسلام بريء من الجمود . وعلماء أصول الفقه فصَّلوا القول في الاجتهاد ، وبينوا أحكامه ، وشروط ممارسته ، ويسروا ذلك ، فقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله إن المجتهد : « لا يشترط إلا أن يكون ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف:١٠٨) فيما يفتي ، فيفتي فيما يدري ، ويدري أنه يدري ، ويميز بين ما لا يدري ، وبين ما يدري ، فيتوقف فيما لا يدري ، ويفتي فيما يدري »[١] . ولا عيب في ذلك ، « وقد سئل الإمام مالك رحمه الله عن أربعين مسألة فقال في ست وثلاثين منها : « لا أدري » وكم توقف الشافعي رحمه الله ، بل الصحابة ، في المسائل »[٢] .

- فالاجتهاد في بعض المسائل ، دون الكل ، جائز . والقائم بذلك يسمى المجتهد الجزئي . وهذا يصدق على كثير من العلماء . ويدخل فيهم المتخصصون في مسائل شرعية معينة . فالذي درس الزكاة وحصل على درجة الدكتوراه فيها له أن يجتهد فيها ، وليس له أن يجتهد في غيرها . وهكذا انفتح باب الاجتهاد دائماً ولم يُغلق ، وإنما انغلق بعض العلماء على أنفسهم وعلى شيوخهم . فليس في الإسلام جمود ولا انغلاق ، ويجب أن يوجد المجتهدون في كل عصر ، والقرآن الكريم : « لا يزال بين دفَّات المصاحف ، طاهراً نقياً بريئاً من الاختلاف والاضطراب ، وهو إمام المتقين ومستودع الدين ، وإليه المرجع إذا اشتد الأمر وعظم الخطب »[٣] .

- فليس لنا نحن المسلمين عُذر في التوقف والتردد ، والاضطراب ، إزاء التحديات الحديثة ، الفكرية والعملية . لكننا ترددنا وتلعثمنا في العديد من المسائل ، الأمر الذي يسَّر لكثير من المحرمات أن تنتشر في بلادنا . وآخر ذلك الحكم في شأن الفدائيين الذين يناضلون ضد الصهاينة في فلسطين السليبة ، والحكم في الزواج العرفي ، والحكم في المخدرات والدخان والحكم في تأميم ممتلكات الأفراد في النظم الاشتراكية ، والحكم في أرباح المصارف الحديثة ،

---

(١) المستصفى ؛ ص ٤٨٢

(٢) الموضع نفسه

(٣) محمد عبده ؛ السابق ؛ ص ١٦٩

والحكم في زواج المسلم باليهودية (الآن ونحن مع إسرائيل في حالة حرب) ، والحكم في التسعير الجبري ، والحكم في الانقلابات العسكرية ، وغير ذلك من المستحدثات التي تتحدانا أن نجتهد وأن نبين حكم الشريعة فيها .

- ولقد صار هذا التردد سمة لحياتنا الإسلامية . وهو مَعْلَم من معالم الاختلاف بين حال المخاطبين اليوم وحال من سبقهم . فلم تشهد الحياة الإسلامية قبل عصر الاحتلال الأجنبي مثل هذا التردد أو التميع في مثل هذه الكثرة الهائلة من الأفكار والنظم والعلاقات ، بل إن هذه المسائل في الأغلب جاءت بسبب الاحتلال والاحتكاك الكثيف بالغرب .

تدهور أحوال الدعاة

- ومن التحديات المستحدثة تدهور مستوى الدعاة علمياً وثقافياً وخُلقياً . فالتعليم الجامعي في كليات الدعوة هابط ، والخريجون أشباه متعلمين ، ورسائل الماجستير والدكتوراه نُقُول متوالية . ومؤلفات أعضاء هيئة التدريس قليلة وتفتقر إلى الإبداع العلمي ، إلا من رحم الله تعالى .

- والكتابة الصحافية في أبواب الدين ، في الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات الشهرية منفصلة عن حياة الأمة ، وتشغل نفسها بتصريحات وأخبار وتحقيقات غير مجدية . وهناك عزوف عن استخدام الفنون والآداب .

● فالتدهور عام ، في الكم والكيف معاً .

● ويقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ، وهو أحد الذين مارسوا الدعوة حوالي نصف قرن في مصر ، في وزارة الأوقاف وخارجها : « إن هناك أناساً يشتغلون بالدعوة ثقافتهم مغشوشة ، قرأوا كتباً أُلِّفَت في عهود الاضمحلال ، أو حفظوا آراء قالها قوم عديمو الفقه . وقد يتعصبون لأوضاع جَرَّت على الإسلام البلاء ، أو تمر بهم أحداث حافلة بالعِبَر فلا يفيدون منها عبرة ! وقد يعرفون من الحق بعضه ويجهلون أو يجحدون البعض الآخر . أما علمهم بما جَدَّ في أرجاء العالم من أطوار ، وما يستتبعه ذلك من أقضية ذكية ، فصفر »[1].

---

(١) علل وأدوية ؛ دار القلم ؛ دمشق ؛ ط ١ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ؛ ص ٢٤٥ .

● في هذا التحدي يواجه الدعاة أنفسهم ، فالتدهور في تعليمهم وفي دراساتهم وفي كتاباتهم وفي ثقافتهم ؛ وهذا يتنافى مع الواجب الذي يحتم أن يكون الداعية ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف:١٠٨) ، وعلى منهج الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وأن يتمرس بكل الوسائل الدعوية الأدبية والفنية كل فيما يخصه، لكي يستطيع أن يواجه أعداء الإسلام الذين يسيطرون على وسائل التأثير ، ويديرونها باقتدار .

● هذا التحدي أصعب من التحديات الأخرى ، لأن مواجهة النفس يضعفها الغرور والرضا الزائف عن النفس وكراهية النقد واقتحام الجديد وتبعات التعلم المستمر أبداً .

● و« البصيرة » تتنافى مع مظاهر التدهور هذه كلها . فهي تعني : العلم والخبرة والحجة . وهي : « نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد والجنة والنار ، وما أعد الله في هذه لأوليائه ، وفي هذه لأعدائه »[1] . والنور يأتي من كسب الإنسان في الدرس والتحصيل . والقدرات الموروثة شرط للنبوغ في العلم . وتقاليد العلماء المسلمين تقتضي الاستمرار في البحث والدرس والتعليم والدعوة ، فيعيش الداعية مع المحبرة إلى المقبرة ، كما قال الإمام أحمد رحمه الله . أما التوقف بعد مرحلة معينة فلا يحقق البصيرة ، ولا يحافظ على وجودها إن كانت قد وجدت . فالقلب يشبه البطارية الكهربائية ، لا بد من شحنه وتجديد طاقته . وبهذه المثابرة تأتي مرحلة النضج التي هي أغنى فترات الحياة العلمية . وأما التوقف فيقصر دون النضج ، ويفضي إلى الضمور والمراهقة العلمية الدائمة .

– و« البصيرة » التامة لا يبلغها إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . وكبار الأئمة الذين يتفرغون للعلم ، ولا يشغلون أنفسهم بتجارة أو زراعة أو سُلطة ، يفوزون بأوفى نصيب منها . وبقدر النبوغ الموروث ، والتفرغ للدرس والتحصيل والدعوة ، والمثابرة في كل ذلك ، يكون نصيب الداعية من « البصيرة » .

---

(١) ابن القيم ؛ مدارج السالكين ؛ تحقيق محمد حامد الفقي ؛ نشر مكتبة السنة المحمدية (دون تاريخ)؛ جـ ١ ص ١٢٣ .

ذيوع الخرافات

- ومن التحديات التي تواجه تطوير الخطاب الديني اليوم ذيوع الخرافات بين الجماهير . ولا ريب أن الخرافات كانت موجودة منذ القدم ، لكن العالم تخلص منها في العصر الحديث إلى حد كبير ، وشاعت أساليب التفكير الموضوعي بين الناس . وهذا سبب أساسي لتقدم المجتمعات البشرية . غير أن شعوبنا المسلمة لا تزال ترسف في أغلال الخرافات والخزعبلات . والشيء المؤسف هو تورط كثير من الوعاظ والخطباء والكتاب المسلمين في أحابيل الخرافات والإسرائيليات ، والترويج لها على المنابر!

● وجذور المشكلة تضرب في صفحات كتب التراث . بل إن بعض المصادر المحترمة تنطوي على بعض الخرافات التي تنقل منها إلى الدعاة بيسر ، لما لهذه المصادر من احترام وتقدير . وعلى سبيل المثال يورد الطبري رحمه الله في تفسيره قصة فتى موسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ وكيف أنه شرب من ماء الخلد فخلّد ، وأنه يضرب في عرض البحر في سفينة إلى يوم القيامة !

- ونحن نعلم يقيناً أنه لا يوجد شيء اسمه « ماء الخلد » وأنه لا خلود لمخلوق ، والله تعالى يقول ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (الرحمن: ٢٦).

● وتنشر الصحف اليومية كلمة عن « النجوم » ، ويصدّق كثير من القراء تنبؤات المنجمين ، وتنسى الصحفُ وقراؤها قول الله تعالى ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن: ٢٦،٢٧).

● وهناك كتب عديدة ، مطبوعة ومتداولة ، في الوعظ والخطابة ، فيها من الخرافات أكثر مما فيها من العلم الصحيح .

● والأمية المنتشرة بنسب عالية في العالم الإسلامي تربة خصيبة للخرافات .

● فهذا أحد التحديات العلمية والتربوية التي تواجه الدعاة ، وتعرقل عملهم ، وتحتم عليهم تطوير الخطاب الديني لتنقية عقول الدعاة والمدعوين من الخرافة .

● ونتيجة للأوضاع السابقة ، ضعُفت الدول المسلمة من جميع النواحي العلمية والتقنية والسياسية والاقتصادية ؛ وعجز المسلمون عن حماية بلادهم ، فضاعت فلسطين وتركمانستان وكشمير وأجزاء من البوسنة ، وضاع الاستقلال الذاتي للشيشان بعد أن خربها الروس ؛ وحتى دولة إريتريا الصغيرة المعدمة المنفصلة حديثاً عن إثيوبيا فاجأت اليمنيين باحتلال جزيرة حنيش في البحر الأحمر!

– وتعاني الأقليات المسلمة من القمع في روسيا والصين والهند والولايات المتحدة ـ بعد ٢٠٠١/٩/١١ خاصة ـ وفي أوربا الغربية . ولا تستطيع البلاد المسلمة أن تقدم لها يد المعونة .

● وهاهي أمريكا تخرب أفغانستان ثم تحتلها، ثم تغزو العراق وتحتل أراضيه، دون أن يستطيع المسلمون تقديم أي شيء يذكر لإخوانهم المنكوبين . وتهدد أمريكا سوريا وإيران ، وتغير طائرات إسرائيل على سوريا ، فلا يستطيع المسلمون عمل شيء يردعها .

– ولأن لكل قاعدة شواذ، فإن حزب الله في لبنان، والمقاومة الفلسطينية الباسلة ، هما الشواذ على قاعدة الضعف السائدة .

● هذا الضعف ، وهذا التخلف العام ، يحتاج إلى منهج دعوي إغاثي آني ، لجمع المعونات لفصائل المقاومة ، ومنهج دعوي شامل لإنهاض الأمة من كبوتها ، والأخذ بأسباب القوة في جميع النواحي ، والله تعالى يقول ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال: ٦٠).

● وإن خطوة شجاعة من الدول المسلمة الكبيرة للوقوف معاً ، والتعاون معاً ، لَكَفيلة بإعادة التوازن لموقف المسلمين من الغرب ، وبث القوة والحرارة في الشعوب والجيوش المسلمة ، لتنفض عنها أدران الضعف والهوان .

– والعالم له عندنا مصالح كبرى ، لكننا لم نستطع أن نستثمرها في الدفاع عن بلادنا وشعوبنا ، باستثناء الحظر البترولي الذي قادته المملكة العربية السعودية لكبح

الاندفاع الأمريكي الجنوني في تأييد الاستعمار الصهيوني الاستيطاني في فلسطين سنة ١٩٧٣م .

● صنوة القول ـ إذن ـ في نهاية الباب الأول من هذه الدراسة ، إن أحوال المخاطبين في هذا العصر قد اختلفت عن أحوال من سبقهم اختلافات واسعة وعميقة ، الأمر الذي يحتم تطوير الخطاب الديني .

- ولا أزعم أنني استوفيت دراسة تلك الاختلافات في كل بلاد العالم الإسلامي ، وبكل تفاصيلها . فمثل هذه الدراسة الوافية تحتاج إلى كتاب كبير ، أو رسالة دكتوراه . وفي هذه الحالة سوف نكتشف تفاصيل عديدة وكثيرة ، ونوعية ، بسبب الظروف المحلية المختلفة في بلاد العالم الإسلامي . لكنني أزعم أن الحقائق العامة التي كشف عنها هذا الباب ، كدور الاحتلال الأجنبي والاحتكاك الكثيف بين العالم الإسلامي والغرب ، ودور الاستشراق والتنصير ، وظهور الجاليات المسلمة في البلاد الغربية ، والبعثات الطلابية وحركات الردة بصيغها المختلفة ، والتحديات الدعوية والعلمية ، لن تتغير ، ولن تُنْفَى ، ولا يمكن أن تُنكَر في أية دراسة موسعة.

- الدراسة الوافية سوف تُلقي المزيد من الأضواء على هذه الحقائق ، وسوف تؤكدها ، وترتب آثارها من حيث القوة ، وتقدم وتؤخر في تصنيفها .

● ومن دراستنا للباب الأول ثبت لي أن بيان اختلاف حال المخاطبين اليوم عن حال من سبقهم مبحث تمهيدي ضروري للبابين الثاني والثالث ، ولذلك جعلته موضوعاً للباب الأول . فاختلاف أحوال المخاطبين يتطلب وسائل جديدة مختلفة . وقد اختلف فكر المخاطبين اختلافات جذرية ، فكان من المحتم أن تختلف الوسائل . والقوى المناهضة للإسلام تستخدم وسائل أدبية وفنية وتقنية متنوعة ، فلابد أن نسخر تلك الوسائل نفسها للدعوة الإسلامية .

● واختلاف أحوال المخاطبين ، واختلاف وسائل الدعوة ، لابد أن يوازيه تطور في منهج الدعوة . وهكذا تنتظم الأبواب الثلاثة في كلٍّ عضوي واحد ، يمكن أن يكون فيه عون حقيقي للدعاة ويمكن أن يسهم في تأسيس علم الدعوة الإسلامية .

● والمنهج الدعوي ثابت لا يتطور ، لأنه محكوم بنصوص الكتاب والسُّنة . وهي نصوص قطعية الثبوت ، لكنها ظنية الدلالة . وعلى هذا يمكن أن نطور مفهومنا للحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ونحن ندعو أقواماً مؤمنين بالعلوم التجريبية ، وتسيطر عليهم الفلسفة المادية والحسية . وليس من الحكمة أن نغفل ثقافة المخاطبين ونمعن في الاستناد إلى المنامات والكرامات التي لا سند لها من كتاب أو سُنة ، كما كان يفعل بعض الوعاظ من أجدادنا .

- والقول نفسه يصدق على : الموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، فهما أصلان ثابتان مستندان إلى نص قطعي الثبوت ظني الدلالة . وهذه «الظنية» هي التي تتيح لنا تطوير مفاهيمنا أو توسيعها . وهذا هو موضوع الباب الثالث من هذه الدراسة .

* * *

الباب الثانى

اختلاف وسائل الدعوة

واقتراح وسائل جديدة

● وسائل الدعوة عديدة . وهذا ما سنراه في هذا الباب الثاني إن شاء الله تعالى .

- ومن الطبيعي أن تصدر القوانين لتنظيم العمل في هذه الوسائل ، من خطابة ووعظ ، وتربية وتعليم ، وبعوث ، ووسائل أدبية وفنية ، وأجهزة إذاعية وصحافية وتلفازية . . . إلخ .

- وإذا كانت بين الدولة والدعوة علاقة تعاون وتآزر واتحاد ، صدرت القوانين التي تكفل للدعاة أداء واجباتهم في حرية وأمان . وإذا كانت علاقة تضاد وتعارض ، صدرت التشريعات التي تقيد الدعاة وتحرمهم من استخدام الوسائل الدعوية الثقيلة كالتلفاز والإذاعة والصحافة .

● وفي ظل نظام « الهجين » السائد في معظم البلاد المسلمة لا يُسمح لأحد بنقد المكونات العلمانية فيه . وتوضع حدود صارمة للدعوة ، بحيث تدور في نطاق المسموح به ، وهو العقائد والعبادات . وأي خروج على هذا النطاق معناه حرمان « الخارج! » من العودة إلى الدعوة مرة أخرى بتلك الوسيلة .

● وبعض الوسائل مغلق في وجه الدعاة . فدُور النشر الحكومية التي تقذف بمئات الكتب ذات التوجهات العلمانية ، ترفض نشر أي كتاب لا يساير هذه الاتجاهات . وجوائز الدولة تمنح لأنصار التيار الرسمي ، وخصوصاً كبار الرسميين [1] .

وهناك وسائل فنية لا يُقبل الدعاة على استخدامها من تلقاء أنفسهم ، أهمها المسرح والسينما ومسلسلات التلفاز ، وأفلام الكرتون . وهذا ما نتمنى أن توضع له نهاية ، وسيكون موضوعاً للفصل الثالث عشر هنا .

---

(١) حدثت ضجة سنة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م في مصر بسبب ذلك ، وتكررت سنة ٢٠٠٥م .

وفي هذا الباب سوف نبحث عن الوسائل الجديدة ، كما بحثنا عن الأحوال الجديدة لدى المخاطبين في الباب الأول ، وكما سوف نبحث عن الجديد والمتطور في المنهج الدعوى في الباب الثالث . وهكذا ندرك أن « الجديد » في الأبواب الثلاثة هو غايتنا ، وهو الجوهر الذي يجعل هذه الدراسة كياناً عضوياً ، ويعطيها طابعاً واحداً ، مميزاً . ويكشف عن الموقف الإسلامي السديد من قضايا تجديد الخطاب الديني .

* * *

الفصل السابع

الخطابة والوعظ

تمهيد :

● لا ريب أن الخطابة يمكن أن تصبح وسيلة فعالة للدعوة ، إذا توفرت لها عناصر الخطابة العلمية الأساسية . وأهم هذه العناصر :

● الاستناد إلى كتاب الله تعالى وتفسيره السديد ،

● وإلى السنة النبوية الصحيحة ،

● ثم وَحْدة الموضوع ،

● والارتباط بمشكلات المسلمين المطروحة ،

● واجتناب المرويات الزائفة والإسرائيليات والخزعبلات والخرافات ، كما في كتاب «عرائس المجالس» للنيسابوري حيث يمزج الإسرائيليات بقصص القرآن عن الأنبياء ، ويخرج أكاذيب شنيعة[1] .

– إن الملايين من المسلمين يُهرعون كل يوم جمعة إلى بيوت الله وهم على استعداد قلبي وعقلي لتلَقّي التوجيه والإرشاد . وفي رحاب الله يسود الإصغاء والخشوع وتتفتح القلوب للتأثر والاستيعاب . لكن معظم خطباء اليوم يبددون هذه الفرص النادرة في صراخ قوامه الإنشاء ، والتكرار ، فيغفو البعض ويضجر آخرون ، وينصرف سائرهم عن الخطيب .

● وأسُّ البلاء هو التطويل الذي يقود إلى تعدد المسائل .

---

(١) طبع مصطفى البابي الحلبي ؛ ط٤ سنة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م .

● وأغلبية الخطباء تفتقر إلى العلم والفقه والمعرفة . وتكثر لديهم الأخطاء التي يعرف كثير من المصلين أنها أخطاء . وأَدْمَنَ كثير منهم القصص الزائفة والخرافية التي ربما تعجب العوام ، ولكنها تسيئ إلى شخصيات وزعامات إسلامية من الصحابة ﷺ ومن غيرهم . وبعض القصص يصدم المسلم ، ويهز إيمانه بدينه ، وبعضها يضلل المخاطبين ، ويقنع الكثيرين بأن الإسلام منفصل عن حياة الناس . ويخفق معظم الخطباء في استخلاص العِبَر من الأخبار والآثار ، كما يعجزون عن فرز الأخبار بمعايير علم الحديث وأصول الفقه .

● ومعظم الخطباء ينقل خطبته من كتاب منشور ، دون أن يراعي تنوع المخاطبين ، واختلاف المكان والزمان . وعلى الرغم من مرور السنين ، لا يطوِّر الخطيب أداءه ، ولا يحاول أن يبلغ مستوى الداعية الباحث الذي يواجه مشكلات الناس المطروحة بالضوابط الإسلامية الشرعية الصحيحة .

● وفي إيجاز ، نرى أن هذه الوسيلة الدعوية الأصيلة قد فقدت فعاليتها . ولابد من بحث وتخطيط وتعليم وبرامج أكاديمية لاستعادتها من جديد وتطويرها .

● وسوف نستقرئ بعض خطب النبي ﷺ ، وخطب عمر بن عبد العزيز ﷺ ، ومنهج المودودي رحمه الله ، لكي نستخلص أهم قواعد الخطابة المنبرية ، ثم ننظر في خطب اليوم وننقدها في ضوء هذه القواعد . والله تعالى من وراء القصد .

* * *

● يقول ابن إسحاق فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن إن رسول الله ﷺ خطب المسلمين فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله :

● «أما بعد ، أيها الناس ، فَقَدِّموا لأنفسكم . تَعْلَمُنَّ - والله - لَيُصْعَقَنَّ أحدُكم ، ثم لَيَدَعَنَّ غَنَمَه ليس لها راع ، ثم لَيَقولَنَّ له ربُّه ، وليس له ترجمانٌ ولا حاجبٌ يحجبُه دونه : ألم يأتِك رسولي فَبَلَّغَك ، وآتيتُك مالاً وأفضلْتُ عليك؟ فما قَدَّمتَ لنفسك؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يميناً وشمالاً فَلا يَرَى شيئاً ، ثم لَيَنْظُرَنَّ قُدَّامَه فلا يرى غير جهنم! فَمن استطاعَ أن يَقِيَ وَجْهَهُ من النار ولَوْ بِشَقٍّ من تمرةٍ فَلْيَفْعَلْ ، ومن لم يجدْ فَبِكَلِمَةٍ طيبةٍ ، فإنَّ بها تُجْزَى الحسنةُ عشرَ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

● وقال ابن إسحاق إن رسول الله ﷺ خطب الناس مرة أخرى فقال :

● «إن الحمد لله ، أحمدُه وأستعينُه ، نعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا ، من يهدِه اللهُ فلا مضِلَّ لَه ، ومن يُضْلِل فَلا هَادِيَ له ، وأشهد أن لا إله إلاّ اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه . إنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله تباركَ وتعالى ، قد أفلح من زَيَّنَهُ الله في قلبه ، وأدْخَلَهُ في الإسلامِ بعد الكفرِ ، واختاره على ما سِواهُ من أحاديث الناسِ ، إنه أحسنُ الحديث وَأبْلَغُهُ . أحِبُّوا ما أَحَبَّ اللهُ ، أحبوا الله من كلِّ قلوبكم ، ولا تَمَلُّوا كَلامَ الله وذِكْرَهُ ، وَلا تَقْسُ عنه قلوبكم ، فإنَّهُ - مِن كلِّ ما يخلُقِ اللهُ - يختارُ ويصطفِي ، قد سمَّاه اللهُ خِيرَتَه من الأعمال ، ومُصْطَفاهُ من العبادِ ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أُتيَ الناسُ الحلالُ والحرامُ . فَاعبُدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتَّقُوه حَقَّ تُقاتِه ، واصْدُقوا اللهَ صالحَ ما تقولون بأفْواهِكم ، وتَحَابُّوا بروحِ اللهِ بينكم ، إن اللهَ يغضبُ أن يُنْكَثَ عهدُه ، والسلام عليكم»[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ حـ١ ص ٥٠٠،٥٠١- وهناك خطب أخرى للنبي ﷺ في تاريخ الطبري و«العقد الفريد» و «الطبقات» .

كانت خطبته قصداً

● وعن جابر بن سمرة قال : كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات ، « فكانت صلاته قصْداً وخطبته قصداً »[١]. وشرحه النووي فقال : « أي بين الطول الظاهر والتخفيف الماحق »[٢].

● وكثير من الخطباء اليوم يطيلون خطبهم « الطول الظاهر » وبذلك يتورطون في مخالفات منهجية مضرة ، ألا وهي : تعدد موضوعات الخطبة واختلاطها وغموضها ، وإملال المصلين ودفعهم إلى النوم أو التبرم والغضب ، إذ يشعرون أن الخطيب يضيع أوقاتهم في غير طائل . والأرجح أن التطويل يفضي إلى تعدد الموضوعات . ووراء ذلك أخطاء كبيرة ، منها عدم التحضير والإعداد والرغبة في محاكاة بعض الخطباء المشهورين[٣].

● ومن المحزن أن نعترف بأن الخطابة كوسيلة للدعوة فقدت فعاليتها لدى الأغلبية من الخطباء على الرغم من اتساع المجال في محطات الإذاعة أمامهم . ولم تفلح برامج التدريب في الارتفاع بمستوى الخطباء ، ومازلنا نعاني العيوب العديدة في الخطب المنبرية والإذاعية ، من شرعية ولغوية ، وأخطاء في تلاوة الآيات القرآنية ، وتحريفات في الأحاديث النبوية . ولَوْلا حرص المسلمين على صلاة الجمعة لما وجد كثير من الخطباء من يجلس بين أيديهم .

● فلو عاد الخطباء إلى السُّنة المطهرة ، وقصروا خطبهم وأحاديثهم ، وأعدوها جيداً ، لأمكن تلاشي الكثير من العيوب التي ذكرتها توّاً ، ومن ثم استعادة الدور المؤثر للخطبة المنبرية والحديث الإذاعي .

● وأعتقد أن من الضروري مساعدة الخطباء الشبان بتأليف كتاب يغطى ٥٢ أسبوعاً بخطب مطورة ، وقصيرة ومحكمة[٤]. فإذا نضج الخطيب وتقدم في

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ؛ الشرح ؛ حـ ٦ ص ١٥٣ .

(٣) الشيخ كشك مثال لتطويل الخطبة وتعدد موضوعاتها ، غفر الله لنا وله .

(٤) وفقني الله تعالى إلى تأليف كتاب يضم خطباً متطورة لعام كامل ، نشرته مكتبة وهبه بالقاهرة ٢٠٠٩ م .

الدراسات الإسلامية ، كان له أن يقوم بإعداد ما يشاء من الخطب المناسبة للجمهور في مسجده ، متبعاً القواعد العلمية والشرعية .

- وفي بعض البلاد الإسلامية تحتم تعليمات الأوقاف كتابة الخطبة قبل إلقائها ؛ وفي بعض الأحيان يتحدد موضوعها من قبل السلطات . والكتابة مفيدة دون ريب ، لكن تحديد الموضوعات قد يبعد الخطيب عن المسائل الحيوية المطروحة في مجتمعه المحلي .

انفعاله ﷺ

● وعن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احْمرَّت عيناه وعَلاَ صوته ، واشتدَّ غضبه ، حتى كأنه منذر جيش . . . !

●ويعلق النووي على هذا الخبر فيقول إنه : « يستدل به على أنه يُستحب للخطيب أن يفخم أمر الخطبة ، ويرفع صوتَه ، ويجزل كلامه ، ويكون مطابقاً للفصل الذي يتكلم فيه ، من ترغيب وترهيب . ولعل اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمراً عظيماً وتحديه خطباً جسيماً »[1] .

● وهذا يدل على أن خُطبه ﷺ كانت مرتبطة بمشاغل الأمة .

- ومن شرح النووي يتبين أن غضب النبي ﷺ واحمرار عينيه لم يكن يحدث في كل خُطَبه ، بل حين يكون هناك دواعي لذلك . والخبر يدل على شدة انفعال النبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا وقعت واقعة عظيمة أو خَطْب جسيم .

● ولا يحتاج الخطباء اليوم إلى رفع الصوت لأن مكبرات الصوت تصل به إلى كل أرجاء المسجد ، بل وتغطي تخومه . والمفروض أنها تستخدم لإيصال الخطبة للمصلين في المساجد الكبرى ، لكن المسئولين في المساجد أسرفوا في استخدامها ، فتعددت الأجهزة وتضخمت بحيث اختلطت موجاتها وتداخلت وأصبح معظم المصلين غير قادرين على فهم ما يقوله الخطيب وهم يخرجون من المسجد وهم

---

(١) صحيح مسلم ؛ شرح النووي ؛ جـ ٦ص١٥٥،١٥٦ .

يعانون من وطأة الصوت الراعد ، وكأن في آذانهم طبولاً تدق ! وهكذا صرنا بحاجة ماسة إلى العودة إلى الصوت العادي ، دون مكبرات ، كما كان يفعل النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وبخاصة في المساجد الصغيرة . أما المساجد الكبرى فالحاجة ماسة لمكبرات الصوت ، شريطة التنظيم الدقيق وعدم الإسراف في عددها وقوتها . ولا بد من تعليمات صارمة من رجال الأوقاف للعمال والفنيين ، لأن النصيحة لا تجدي مع الكثيرين منهم .

- وهناك اعتراف عام بتدني مستوى الخطبة اليوم .
- وكبار الخطباء يخطئون .

– قال الشيخ كشك غفر الله له : « إن الله يوم الاثنين ـ يوم الزلزال في القاهرة سنة ١٩٩٢م ـ كان يخاطبنا خطاباً صريحاً وواضحاً . كان يقول لنا بلسان العظمة : « إنني أنا الله » من أنتم يا سكان الأرض؟ هل لكم قبل بمحاربة الله[١]؟ »

– وهذا خطأ . فالواجب في كل مرة يقول فيها المسلم « قال الله تعالى » أن يتبع ذلك بنص قرآني أو بنص من حديث قدسي صحيح . وغير هذا تقوُّل على الله . ولفظ « لسان » لا سند له من كتاب أو سُنة .

– يقول الدكتور محمود محمد رسلان رئيس قسم الدعوة بكلية أصول الدين بالمنصورة : «أصبحت الخطابة اليوم عبارة عن كلمات تُحفظ وتُلقى ، ومعظمها يدور حول الدنيا وذَمِّها . والناس ملُّوا هذه الأساليب ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعبارات مجملة ، لا تشفى من أمراض النفوس شيئاً ، ولا تصل إلى أعماق القلوب . وبعضها يخلط الأوامر بالنواهي ، ويجمع بين أمور كثيرة ، ولا يستوْفي الكلام على واحد منها ، فيحذر من ترك الصلاة ، وشرب الخمر ، والزنا والربا وما إلى ذلك من المنكرات كل ذلك في خطبة واحدة»[٢].

---

(١) الخطب المنبرية ؛ الخطبة رقم ٧٨ - حـ١٤ ص ١٧٣

(٢) انظر كتابه : «الخطابة»؛ توزيع دار التقوى للنشر والتوزيع ؛ ط٢ سنة ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م ص٦٩.

- والمسلم العادي غير راض عن مستوى معظم الخطباء . هذا في حين أن خطبة الجمعة يمكن أن تكون مفيدة ومؤثرة ومرضية لأشواق الجميع ، إذا خضعت للتطوير الشرعي والعلمي السديد .

- وعلى هذا يتحتم على كل مسئول أن يطرح مشكلات الخطابة المنبرية على بساط البحث ، بُغْيَة تطوير هذه الوسيلة المهمة للدعوة . وإن السكوت على الوضع الحالي للخطابة خطأ جسيم وسوف يسألنا ربنا جل جلاله عن ذلك .

- والتطوير يعني : الالتزام بالقرآن الكريم ، واتباع السنة المطهرة ، واجتناب الخرافات والإسرائيليات ، والالتزام بمشاغل الأمة ، واحترام عقلية المخاطبين المعاصرين المتعلمين والمثقفين .

لغة الخطبة

● وتشير عبارة الإمام النووي في شرح الحديث إلى لغة الخطابة . فهو يقول إنه : « يستحب للخطيب أن يفخم أمر الخطبة ، ويرفع صوته ، ويجزل كلامه ، ويكون مطابقا للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب أو ترهيب».

- ومعنى هذا أن لغة الخطبة يجب أن تتناسب مع الموضوع ، ومع مستوى غالبية المتلقين . وهذا التناسب قد يتطلب جَزْل الكلام وقد يتطلب العامية أحياناً . ولا ريب أن الفصاحة وجزالة الألفاظ ، من مميزات الخطابة الراقية . لكن مستوى المتلقين ربما يتطلب النزول إلى اللهجة التي توصل الحقائق إلى عقولهم .

- فاللغة وسيلة للدعوة ، وليست غاية للدعوة . والداعية يعلِّم الإسلام ولا يعلِّم النحو والصرف والبلاغة .

- وهاهنا لابد من توكيد واجب مهم هو : سلامة الإعراب إذا تكلم الخطيب بالفصحى لأنه قدوة . فإذا اضطر إلى العامية فلا مانع . أما أن يتكلم الفصحى ويحطم قواعد النحو فذلك تقصير شديد وعيب شنيع يجب اجتنابه بكل دقة

وحرص . ومن المحزن أن نلاحظ شيوع ذلك التقصير الشديد في خطب الجمعة ، وفي الأحاديث الإذاعية والتلفازية هذه الأيام .

- ومن تأمل خطبتي النبي ﷺ وشرح النووي لهما نستخلص القواعد التالية :

- قصر الخطبة ،

- وقصر الخطبة يتطلب وحدة الموضوع، (والتطويل يعنى تعدد الموضوعات).

- وارتباط الخطبة بمشاغل الأمة ومشكلاتها ،

- وأنه ﷺ كان يغضب أحياناً فيعلو صوته وتحمر عيناه .

- ومن الممكن أن نقول إن هذه هي القواعد الأساسية للخطبة . ويضاف إليها تحذيرات من التقوُّل على الله تعالى زوراً ، ومن الشوائب التي تختلط بالخطب من : الإسرائيليات والخرافات ، والأخطاء العقدية والفقهية واللغوية . . وسوف نجد هذه القواعد متبعة لدى كبار الخطباء من السلف والخلف جميعاً .

مثال من خطباء السلف

وهذا مثال لخطباء السلف من التابعين الذين التزموا بالسنة في خطابتهم .

إنه عمر بن عبد العزيز ﷺ .

- فيقول ابن سعد : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا استطرد في خطبته قال : «استغفر الله ، استغفر الله !»[(1)]

-«وكتب عمر بن عبد العزيز إلى «عثمان بن سعد» واليه على دمشق : إذا صليت بهم فَأَسْمِعْهم قراءتك ، وإذا خطبتَهم فأفهمهم موعظتك» .

- فالمهم هو وصول الرسالة إلى المخاطبين . وكان عمر مثالاً للخطيب المسلم ، فكان يُسمعُ جلَّ أهل المسجد موعظتَه وليس بالصياح[(2)].

(١) الطبقات الكبرى ؛ لابن سعد ؛ جـ٥ ص٣٩٥ .

(٢) نفسه ؛ ص ٤٣٢ .

- ويرتبط الأذان بالخطابة عند عمر بن عبد العزيز . فالأذان له عنده أصول . فيُذكر أنه كان لعمر بن عبد العزيز مؤذن :« إذا أذَّن رَعَدَ !» فسمع جارية له تقول : قد أذَّن الراعبي! فبعث (عمر) إليه : « أذِّن أذاناً سمحاً ، ولا تغنَّه ، وإلاّ فاجلس في بيتك[1]!»

- فلا مجال للصياح المرعب الذي يهز كيان السامعين ! وكان المؤذن عند ذاك لا يملك مكبرات الصوت ، وعلى الرغم من ذلك استبشعت جارية أمير المؤمنين صوته المرعب ! فما بال مؤذنينا اليوم يصمون آذان المسلمين ويثقبونها ، وهم لا يشعرون بهذا البون الشاسع بينهم وبين ما كان عليه السلف الصالح من السماحة والبساطة والرقة ؟!

معركة بسبب التطويل

● ولقد كان جعفر بن سليمان الهاشمي - ابن عم الخليفة العباسي المنصور- ، والياً على المدينة المنورة . وقد خطب جعفر يوماً فأطال الخطبة . وبعد الصلاة قال له ابن عجلان :« يا هذا ، اتق الله ! تطيل بيانك وكلامك على منبر رسول الله ﷺ ؟» وغضب الأمير وأمر بحبسه . وعلم ابن أبى ذئب بالمشكلة ، فكلم الأمير فيها ، فقال الأمير : « ما يكفيه أنه يأمرنا فيما بيننا وبينه ، فنصير إلى ما يأمرنا به ، حتى يصيح بنا على رؤوس الناس فَنُسْتَضْعَف؟ فقال ابن أبى ذئب : ابن عجلان أحمق أحمق أحمق ! هو يراك تأكل الحرام ، وتلْبَس الحرام ، فيترك الإنكار عليك ، ويقول لا تُطل بيانك وكلامك على منبر رسول الله (ﷺ)! فقال الوالي : أخْرِجوا ابن عجلان (من السجن) ، ما عليه من سبيل»[2].

- ويتضح من الخبر أن إطالة الخطبة كانت خطيئة في نظر العلماء ؛ وأن الإطالة على منبر رسول الله ﷺ أفحش ، لأنها مخالفة لسنته على منبره الشريف . ولذلك

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ؛ ص ٤٥٨ .

(٢) عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازي ؛ آداب الشافعي ومناقبه ؛ تحقيق الشيخ عبد الغنى عبد الخالق ؛ مكتبة التراث الإسلامي ؛ حلب ، سوريا ؛ (دون تاريخ) ؛ ص٤٨،٤٩.

ثار ابن عجلان على الأمير معرِّضاً نفسه للسجن . ولم تكن ثورته حماقة كما قال ابن أبي ذئب ، بل غيرة على السُّنة وعلى منبر رسول الله في مسجده الشريف .

- والحادث يؤكد أن تطويل الخطبة خطأ جسيم ؛ ولذلك وجدنا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يستغفر الله حين يستطرد في خطبته . والتطويل يفضي إلى الخروج عن الموضوع ، وإلى التشتت والتشويش ، وفَوَاتِ الغاية الشرعية من الخطبة المنبرية .

- وإخراج الأمير ابن عجلان من السجن اعتراف بالخطأ وتقدير للباعث النبيل الذي حمله على الاعتراض العلني عليه ، وكان عليه أن يُسِرَّ باعتراضه ، صيانةً لهيبة الأمير بين الرعية . وهذه قاعدة مهمة في منهج الدعوة وآدابها .

المودودي ومنهجه في الخطابة والمحاضرة

● ونتنقل إلى العصر الحديث ونختار خطيباً بارزاً ومحاضراً قديراً هو أبو الأعلى المودودي . فكيف كانت خطب المودودي؟

- كانت خطب المودودي تتبع منهجاً خاصاً :
- فهو يعالج الموضوع في سياقه التاريخي ،
- ويحرص على تقديم الأدلة على صحة ما يؤمن به ،
- ويضرب الأمثلة لتيسير فهم المخاطبين ،
- وهو يعبِّر عن أفكاره بأساليب لغوية أدبية قوية ،
- وهو يوجز في القول ، ولا يطيل ويستطرد .

● وكان المودودي حريصاً على إعداد خطبه ومحاضراته :

- فهو يحدد موضوعه ويضع له عنواناً ،
- وهو يدرس موضوعه دراسة عميقة ،
- ثم يسجل النقاط الأساسية في الموضوع ،
- ثم يفصل كل نقطة ،

- وهو يعرف أين ينتهي ، كما يعرف من أين يبدأ[1] .

- بهذه المنهجية العلمية الدقيقة كان المودودي يخلب ألباب المخاطبين ، دون أن يلجأ إلى التهويل أو الإدهاش بقصص خرافية ، وحواديت شعبية . وبهذه المنهجية يعتبر المودودي خطيباً ومحاضراً نموذجياً . وخطبه ومحاضراته جديرة بأن تحتذى . لكن هذا لا يعنى التقليد البليد ، أو الحفظ الأعمى . فإن لكل خطبة فردانيتها التي تجعلها غير قابلة للتكرار أو الاجترار . فالمطلوب هو المنهجية السديدة ، أما الموضوعات فلكل مقام مقال . وهكذا يتحتم على الداعية أن يفكر لنفسه ولظروفه ولجمهوره ومشكلات مجتمعه ، ثم يسهر ، ويجتهد لتشكيل خطبته على الأسس السليمة .

واجب المستمعين

● ويتأثر الخطيب والواعظ (وكل متحدث في ندوة أو جلسة) بحالة المخاطبين من حيث العدد ، ومن حيث الإصغاء . وكذلك الكاتب حين يشعر أن قراءه يتجاوبون معه ، أو العكس . لكن الخطيب والمتحدث أكثر عرضة لتأثير المخاطبين .

- وقد تكون حالة المخاطبين من اللامبالاة ناشئة عن عيوب في الخطيب أو المتحدث نفسه ؛ إذ يخفق كثيرون من الدعاة في الاستئثار باهتمام المخاطبين ، كما يحدث في خطب الجمعة المكرورة التي لا تتصل بحياة المصلين ومشكلاتهم الحياتية ، أو الدينية ، والتي تغرق في الخرافات والإسرائيليات ، والتي قد تطول حتى تتجاوز الساعة !

- والعلاج هو أن يكون المتحدث واعياً بمشكلات مجتمعه ، وأن يكون قادراً على البحث العلمي لمعرفة توجيهات الإسلام لحلِّها . عندئذ سينتبه الغافل ، ويتيقظ النائم ، ليجد المتحدث آذاناً صاغية .

---

(١) فاروق عبد السلام الصاوي ؛ فقه الدعوة الإسلامية والإعلام ؛ ص٢١٧، ٢١٨ .

- وعلى المتحدث أن يتذكر أن بعض المسلمين تركوا المسجد وهُرعوا إلى اللهو والتجارة ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (الجمعة: ١١). فإذا كان ذلك قد حدث والخطيب هو رسول الله ﷺ ، فلماذا لا يحدث أمام كل خطيب آخر؟! وقد تضاعفت المغريات في أيامنا هذه ، حتى منعت بعض المسلمين من صلاة الجمعة ذاتها ، واشتد بريق اللهو وانتشر حتى بلغ الرعاة في قمم الجبال والمعتكفين في محاريب المساجد ، عن طريق الإذاعات والفضائيات وأجهزة الاتصالات الحديثة ، ومكبرات الصوت التي تصرخ بلا ضوابط في السراء والضراء .

- ثم إن الداعية المسلم ليس مسئولاً عن هداية المدعوين ، فَلْيَحْضُر من شاء ، وليتخلف من شاء ، وحسابه عند ربه . وقد يحضر العدد القليل ، وفيهم من شرح الله صدره للعلم ووفقه للعمل . ويُذْكَر أن أحد معلِّمي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية كان يشكو قلة العدد وضعف التلاميذ ، ويتبرَّم من ذلك . ولو علم أن أمامه ذلك الطفل النابغة لما شكا وتبرم !

(القصص الزائف للإدهاش!) قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري

● وهي قصة مشهورة بسبب تكرار عرضها على الجماهير في خطبة الجمعة . وهي أنموذج للرغبة في الإدهاش ، وأنموذج لسوء الاختيار وعدم التمحيص ، والاستهانة بأعراض الصحابة ﷺ .

- وترد هذه القصة في كتب التفسير كسبب لنزول قول الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾(التوبة: ٧٥-٧٧)

- ويرويها الخطباء في المساجد لبيان وجوب الزكاة وشناعة منعها . فيذْكر أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري سأل النبي ﷺ أن يدعو الله أن يرزقه مالاً ، وألح في

السؤال ، فدعا له النبي . واتخذ ثعلبة لنفسه أغناماً ، أخذت تتكاثر كما يتكاثر الدود .

- ولما نزل قول الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ (التوبة:١٠٣) رفض ثعلبة إيتاء زكاة ماله وقال : ما هذه إلا أخت الجزية ! ثم علم ثعلبة بنزول آيات فيه ، فهُرع إلى النبي ﷺ يحمل إليه زكاته . لكن النبي رفض قبولها وقال : « إن اللهَ تعالى قد منعني أن أقبلها منك». فجعل ثعلبة يبكي ويحثي التراب على وجهه حزناً وأسفاً .

- ورفض أبوبكر وعمر وعثمان قبول زكاة ثعلبة . ومات ثعلبة في عهد عثمان ، ﷺ أجمعين .

● وتثير قصة ثعلبة إشكالات تمنع الباحث المسلم من قبولها .

- فهي ـ أولاً ـ شاذة في ضوء الأصول الإسلامية . فالتوبة النصوح التي أبداها ثعلبة كانت كفيلة بقبول زكاته . والله تعالى يقول عن المنافقين المعاندين ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (التوبة:٧٤).

- وهي ـ ثانياً ـ مطعون في صحتها . قال القرطبي رحمه الله : «وثعلبة بدري أنصاري ، وممن شهد له الله ورسوله بالإيمان . . فما رُويَ عنه غير صحيح»[١]. وقد قال رسول الله لعمر : «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». وثعلبة حضر بدراً وأبلى فيها بلاءً حسناً[٢].

● وهناك قصة أخرى وردت في كتب التفسير كسبب لنزول الآيات السالفة الذكر من سورة التوبة ، لكن الدعاة يغفلونها ، لأنها لا تدهش المصلين ، ولا تصلح خطبة بسبب قصرها .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ؛ جـ ١ ص الآيات ٧٥-٧٧ .
(٢) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٥٢٢ ، ص ٦٨٨ .

● ومن جهة أخرى يجرح كبار المحدِّثين رَاوِيَيْ القصة ، وهما علي بن زيد ، والقاسم بن عبدالرحمن[1] . ولم يعدِّله سوى الإمام الترمذي ، وأبو حاتم . وجمهور علماء الحديث على أنه : « إذا اجتمع في شخص جرح وتعديل ، فالجرح مقدم ، لأن المعدِّل يخبر عما ظهر من حاله . والجارح يخبر عن باطن خَفِيَ على المعدِّل . فإن كان عدد المعدلين أكثر ، فقد قيل : التعديل أَوْلَى . والصحيح والذي عليه الجمهور : أن الجرح أولى ، لما ذكرناه ، والله أعلم »[2] .

● لهذا أقول : إن الرغبة في الإدهاش يجب كبحها بحيث تنحصر فيما يصح من الأخبار . والتمحيص يجب أن يكون دقيقاً ، لكي نتجنب مثل هذه الأخطاء الشنيعة . وتلك مشكلة دعوية عسيرة ، لأن كبار الدعاة يرددون قصة ثعلبة ، ويستبيحون عرضه على المنابر . والصغار يحاكون الكبار! وكلما واجه الخطيب مأزقاً ، ولم يجد موضوعاً ، تذكَّر قصة ثعلبة ، ليتخطى المأزق ، ويقع في مأزق أخطر وأشنع . وتقع تبعات الإصلاح والتصحيح على عاتق أساتذة الدعوة ومعاهد وكليات الدعوة في جامعاتنا الإسلامية بصفة أساسية ، وعلى عاتق كل داعية .

الدعوة إلى ما لا يطاق! قصة سعيد بن عامر : الحقيقية والزائفة

● وهذه القصة أنموذج للدعوة إلى « ما لا يطاق » ، وأنموذج للإدهاش وإثارة الإعجاب ، وكذلك لعدم التمحيص ، والزهد الزائف . فتقول المصادر الإسلامية إن « سعيد بن عامر بن حديم القرشي الجمحي » : « من كبار الصحابة وفضلائهم . . . أسلم قبل « خَيبر » ؛ وهاجر فشهدها وما بعدها . وولاَّه « عمر » حمص . وكان مشهوراً بالخير والزهد . « ويذكر أنه كان يفرق المال الذي يأتيه من عطائه ، وله في ذلك قصة مع زوجته . وتقول الأخبار إن سعيد بن عامر لَقي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال له : « إن أهل الشام يحبونك . قال (سعيد) : لأني أعاونهم وأواسيهم . فقال (عمر) : خذ هذه عشرة آلاف فتوسَّع بها . قال (سعيد) : أعطها

---

(١) راجع ميزان الاعتدال ؛ للذهبي .

(٢) مقدمة ابن الصلاح ؛ تحقيق الدكتورة بنت الشاطئ ؛ ص ٢٢٤ .

من هو أحوج إليها مني». وقد مات سعيد سنة ٢١هـ في عهد عمر ﷺ . هذه خلاصة ما ذكره «ابن حجر» عن ذلك الصحابي الجليل [1].

- وفي «كتاب الاستيعاب في أسماء الأصحاب» ذُكر أنه قد بلغ عمر : «أنه يصيبه لَمَمٌ ، فأمَرَه بالقدوم عليه . وكان زاهداً ، فلم ير معه إلا مِزْوَداً وعكازاً وقَدَحاً . فقال له عمر : ليس معك إلا ما أرى ؟ فقال له سعيد : وما أكثر من هذا ؟ عكازاً ، ومزوداً أحمل بها زاداً ، وقدحاً آكل فيه . فقال له عمر : أبِكَ لَمَمٌ ؟ قال : لا . قال عمر : فما غَشِيَّة بلغني أنها تصيبُك ؟ قال : حضرتُ «خُلَيْف بن عَدِي» حين صُلب ، فدعا على قريش وأنا فيهم . فربما ذكَرْتُ ذلك فأجِدُ فترة حتى يغشى عَليَّ . فقال له عمر : ارجع إلى عملك . فأبَى ، وناشده الإعفاء . فقيل إنه أعفاه» [2].

● هذه هي القصة الحقيقية التي نجدها في المصادر الإسلامية . أما القصة الزائفة التي يرويها بعض الدعاة للحث على الزهد وتحقير الدنيا ولذاتها ، فتقول إن أهل الشام قدموا على «عمر» وشكوا سعيد بن عامر لأنه يحتجب عنهم يومين كل أسبوع . وحقق «عمر» في الشكوى فقال له سعيد : إن لي ثوباً واحداً ، فإذا غسلتُه احتجبت يوماً حتى يجف . وزوجتي مريضة ، فأنا أحتجب يوماً آخر لأداء أعمال البيت نيابة عنها . فرده عمر إلى عمله .

- وتذكر القصة الزائفة أيضاً أن سعيداً كان يفرق راتبه كله على الفقراء ، ثم يعيش على أموال الصدقات ! وأن ذلك يسبب خلافاً مع زوجته .

● وبهذا التزييف يريد بعض الدعاة حث الناس على الزهد في الدنيا وأعراضها الفانية .

● ومن الجلي أن القصة الزائفة الْتَقَطَتْ بعض الحقائق ، ثم ضخمتها ، لإدهاش المخاطبين وإثارة إعجابهم . فقد كان سعيد زاهداً في الدنيا حقاً ، لكن ليس إلى

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ؛ نشر دار الفكر ؛ القاهرة ؛ سنة ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م ؛ رقم ٣٢٧٠ — جـ٢ ص ٤٨ .

(٢) كتاب الاستيعاب ؛ ليوسف بن عبدالله النمري القرطبي ؛ على هامش «الإصابة» ؛ ص ١٢

درجة أن ينسى تعاليم دينه ، فيفرق راتبه كله ، ثم يعيش على الصدقات ، وهو الأمير الذي يجب أن يحافظ على تعاليم الدين ويطبقها ، لا أن ينتهكها . وكيف يمكن أن ينال احترام الناس وهو يعيش على الصدقات؟!

● وقد حقق معه عمر ، لكنْ ليس في مسألة تفريق راتبه أو الاحتجاب عن الرعية يومين كل أسبوع ، بل في مسألة «الغشية» التي كانت تلم به أحياناً . أما تفرقة الراتب والاحتجاب فلا أصل لهما .

- ومن الجلي أن ما تدعو إليه القصة الزائفة غير ممكن تطبيقه في الحياة ، فهو يدخل في «ما لا يطاق» ـ أي أنها تدعو إلى عمل غير شرعي ؛ والداعية الذي يدهش المخاطبين بهذه الأكاذيب لا يستطيع هو نفسه أن يطبقها . ومهما برع الداعية في إدهاش المخاطبين ، فإنهم لن يحاولوا محاكاة القصة! فكأن الداعية يضيع وقته فيما لا طائل من ورائه ، بدلاً من الدعوة إلى الزهد الشرعي الذي مارسه رسول الله وصحابته رضوان الله عليهم ، وهو في جوهره زهد في الحرام . وأما المال الحلال فيشرع البحث عنه والسعي لكسبه ، فهو قوام الحياة للفرد والجماعة .

أصدقاء خطيب الجمعة

● وبعد فهذه وسيلة جديدة مقترحة ، لمساعدة الخطباء في تطوير خطبهم وهي تشبه أي ورشة عمل أو دراسة . فالخطيب يعرض خطبته على لجنة من أهل المسجد قبل أن يلقيها ، ويسمع تعليقات الأعضاء على مضمونها . وبعد إلقائها يستمع إلى آرائهم في الإلقاء . ولا شك في أن ذلك سيكون مفيداً له في عمله الدعوي . وليكن اسم اللجنة : أصدقاء الخطيب .

● لكن أغلب الخطباء سوف يعارضون هذا الاقتراح ، خشية النقد الذي ربما يكون شديداً بسبب كثرة أخطاء الخطيب . ونحن نعلم مدى تدني مستوى الخطابة في هذا العصر . وعلى السلطات الدينية أن تقنعهم بقبول التجربة لصالح الدعوة .

- ويقتضي هذا الاقتراح أن يكتب الخطيب خطبته ، ويناقشها مع اللجنة ، ويعدِّل فيها ويحذف ويضيف ، ثم يبيِّضها ، ويلقيها يوم الجمعة ، قراءةً ، أو عن ظهر قلب .

- وربما يكون عدد أعضاء اللجنة ثلاثة أو اثنين من المتعلمين فقط .

- وفي البداية نجرب هذا الاقتراح في عدد قليل من المساجد ، ولْيَكُنْ بطلب من الخطيب نفسه . وعلينا أن نقنع الخطباء بفائدة هذه اللجان العلمية لهم وظيفياً .

- ويجب أن نتذكر أن ترك الخطيب دون مساعدة ينطوي على خطورة ، وقد يزيد جمهور المصلين على الألف ، وفي بعض المساجد الكبرى ، يتجاوز الآلاف . ونحن نرى الآن أن كبار الخطباء يقعون في أخطاء علمية فادحة ، وبعضهم يخاصم الخطابة العلمية وقواعدها وأصولها ، ويُغرق الناس في الخرافات والتهاويم . وردَّة الفعل تتخذ أشكالاً عديدة ، أولها تبديد فرصة فريدة للدعوة الإسلامية . فبدلاً من تثقيف المصلين دينياً ، يحشو الخطيب أذهانهم بالأخطاء[1] . ويهجر بعض المصلين مسجد الحي ، باحثاً عن خطيب جيد . ويفضل بعضهم تعمد التأخير كيلا يسمع الخطبة !

ولا شك أن ترك خطيب التلفاز والإذاعة دون معاونة علمية ودَعَويَّة فيه خطورة أكبر ، بسبب ضخامة الأعداد من النساء والأولاد الذين يستمعون إليه في البيوت[2] .

وفي هذا يقول المودودي : « إن انتقاد بعضنا بعضاً على أخطائنا ومواطن الضعف فينا من أنفع الوسائل لإصلاحنا الجماعي »[3] . والنجاح في هذا يتوقف على الخطيب نفسه ، ومدى رغبته في إجادة خطبته وتبليغ رسالته الدينية ، كما يتوقف على طريقة عمل « الأصدقاء » أعضاء اللجنة . وقد وضع المودودي ست قواعد لتنظيم عمل النقاد ، وهي :

---

(١) راجع كتابي : رسالة إلى خطيب مسجدنا ؛ دار الاعتصام بالقاهرة ؛ سنة ١٩٩٢ ، ص ٧ .

(٢) أثيرت هذه القضية في مصر في فبراير سنة ٢٠٠٤م- الأهرام ٢٠٠٤/٢/١٩م .

(٣) انظر كتابه : تذكرة دعاة الإسلام ؛ باكستان ؛ ط ٢ ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م ؛ ص ٦٠،٦١ .

١- أن يعتقد الناقد أن الله تعالى شاهدٌ عليه، ومُحَاسِبُهُ على عمله .
٢-وأن يحرص على أن تكون لهجته مُعَبِّرة بوضوح عن رغبته في الإصلاح .
٣- وأن يعتقد أن نقده قائم على أساس صحيح .
٤- وأن يتكلم بلهجة من يريد الإصلاح ، لا التشهير ولا الإساءة .
٥- وعلى المنقود أن يُصغي لإخوانه بإخلاص ويفكر فيما يقولون بجدية .
٦- وعلى الجميع التزام الإيجاز حتى لا يتحول النقد إلى مراء عقيم[١].

على هذه الأسس نرجح أن تكون جلسات اللجنة حلقات علم مفيدة للجميع . وربما نضيف بعض القواعد التي تحدد أهلية «الأصدقاء» من حيث المؤهلات العلمية ، ومن حيث السن ، والمكانة الاجتماعية ، كما تحدد وجوب أخذ الخطيب بملاحظات اللجنة ، إذا ثبت أنها مستندة إلى نصوص من الكتاب والسُّنة ، ووجوب الأخذ برأي الخطيب إذا استند إلى مثل تلك النصوص .

ويكون اختيار «أصدقاء الخطيب» من قِبَل المصلين الحريصين على أداء الصلاة في المسجد ، وقد يُكْتَفى بعدد محدود منهم . ويعاد انتخاب الأعضاء كل سنة هجرية . وعمل اللجنة يمكن أن يُعتبر حِسْبة ، لأن من عمل المحتسب تعهد الأئمة[٢].

● التسجيلات (لخطب الجمعة وغيرها)

● ومع انتشار «المسجلات» بدأ البعض في تسجيل الدروس والخطب المنبرية لنفسه . ثم تطورت العملية إلى تجارة واسعة . وبعض الخطباء والوعاظ نال شهرة مدوية ، ولذلك انتشرت تسجيلاتهم في البلاد المسلمة وعبر القارات . وكثيراً ما تُسمع خطب الجمعة ومواعظ كبار الوعاظ في الحافلات وسيارات الأجرة . ولجأ بعض الوعاظ الممنوعين في بلادهم من الوعظ والخطابة إلى تسجيل

---

(١) تذكرة دعاة الإسلام ؛ ص ٦٠،٦١ (بتصرف) .
(٢) راجع كتاب «الحسبة في الإسلام» لشيخ الإسلام ابن تيمية ؛ دار الكتاب العربي ؛ ص ١٠

أحاديثهم . ويستطيع المسلمون أن يجدوا الكثير من المواقع على الشبكة الدولية (الإنترنت) التي خصصت لهذا الشيخ أو ذاك . وبهذا زادت أهميتهم وخطورتهم .

● والمفروض أن يسعد كل مسلم بوجود وسائل حديثة للدعوة . غير أن بعض الدعاة يقع في أخطاء صغيرة وكبيرة ، ولا يسع أحد أن يصححها . وبعض الدعاة ليسوا علماء متخصصين ، ولكنهم محبون لدينهم راغبون في نشره . وهؤلاء أكثر من غيرهم رواجاً بين المستمعين والمشاهدين ، وأكثرهم أخطاء أيضاً . إنهم يَتَّصِفُون بالإخلاص والحمية الدينية ، لكنهم يفتقرون إلى النظرة الكلية للإسلام وإلى المعرفة الدقيقة بأصوله العقدية والفقهية . ويبدو بعضهم وكأنه لا يعرف شيئاً عن أصول الفقه ، وعلوم الحديث . ومن هنا تأتي الأضرار من حيث لا يقصدها الداعية .

● ومن الجلي أن القيود الرسمية تقف وراء اللجوء إلى هذه الوسائل . ولو طالبنا بتنظيم التسجيلات لتحاشي الأخطاء ، فإن هذا التنظيم سيجلب مزيداً من القيود المفروضة على بعض الدعاة ، ونحن لا نريد المزيد من القيود . وفي اعتقادي أن إتاحة الفرصة للدعاة عبر الإعلام ، مع تكليف العلماء بنقدهم وتقويم أقوالهم قبل إذاعتها ، هي أسلم الطرق ، والله أعلم .

● ويجب أن نفكر جدياً في طريقة لقياس أثر الخطب المنبرية ، لكي نستطيع تقويم الأداء ، ويستطيع الخطيب أن يطور أسلوبه ، بدلاً من نظام التفتيش المعمول به حالياً والذي أثبت عدم جدواه[1].

ولعلنا الآن نستطيع أن نجمع القواعد العلمية للخطابة فيما يلي

١- الالتزام بكتاب الله تعالى وسُنة نبيه ﷺ .

٢- تجنب الخرافات والتهاويل والإسرائيليات .

٣- كتابة الخطبة كاملة ، أو تحديد نقاطها الرئيسية ، ثم تفصيلها .

---

(١) الاتصال ونظرياته المعاصرة ؛ ص ٤٣ ، ص ٥١ .

٤- وضع عنوان للخطبة .
٥- التزام وحدة الموضوع .
٦- يجب أن يقدم الخطيب أدلة تثبت صحة الرسالة التي يبلغها للناس .
٧- يجب أن تكون الرسالة واضحة ومفهومة لجمهور المصلين ، وضرب الأمثال مفيد في هذا الصدد .
٨- وقت الخطبة لا يجوز أن يزيد على عشرين دقيقة .
٩- لغة الخطيب يجب أن تتناسب مع موضوع خطبته ومع مستوى غالبية المخاطبين .
١٠- رفع الصوت أحياناً ، وإظهار الغضب ، يجب أن يكون بحساب .
١١- يجب أن يكون موضوع الخطبة متصلاً بالمشكلات التي يعيشها الناس .

وهذه بعض واجبات الخطيب :

١- يجب أن يكون الخطيب صاحب سيرة حسنة ومحترمة ، بأن يترفع عن الرذائل، ويجسد في نفسه ما يدعو إليه الناس من التقوى والبر .
٢- يجب على الخطيب أن يتقبل نصائح المدعوين بسرور .
٣- يجب على الخطيب أن لا ينخرط في أعمال مهنية تسيئ إلى مكانته .
٤- وعلى الخطيب أن يعود نفسه على قول « لا أدري» إذا سئل عن شيء لا يعرفه.
٥- ويجب أن يكون الخطيب عالماً ومثقفاً وباحثاً جيداً .

● هذه القواعد تشكل جانباً من « علم الخطابة الإسلامي» الذي هو جزء من « علم الدعوة الإسلامي » الذي نتمنى أن يتم تأسيسه .

مجالس العلم والوعظ

● هي وسيلة تقليدية مهمة ، لا تزال تمارس إلى اليوم في المساجد ، ويقوم بها عادة أئمة المساجد ، الذين تخرجوا من الكليات والمعاهد العليا ، ويتقاضون المرتبات من الحكومات المسلمة . لكن الانحرافات لحقت بها ، كما لحقت

بغيرها من الوسائل . وانتشرت كتب عديدة فيها مواد لكل جلسة . وتختلط فيها حقائق الإسلام بالخرافات والخزعبلات على نحو يثير الحزن !

- ونأخذ مثالاً لمجلس عنوانه : «اطمئنان القلب بمشاهدة قدرة الله تعالى» . ويبدأ المجلس بقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (البقرة:٢٦٠) وينقل الواعظ كل ما قابله من الروايات حول أسباب النزول ، والتفسير .

● وإلى هنا يمكن أن نتجاوز عن النقل دون وعي ودون مراعاة لحال المخاطبين . لكنه يضيف حكاية فيقول :« إن صياداً في الزمن الأول اصطاد سمكة ، فأخذها منه ظالم وضربه . فقال الصياد : يا ربِّ ، خلقتني ضعيفاً وخلقته قوياً حتى ظلمني . سلِّط عليه خَلْقاً من خلقك ، فاجعله عِبرةً للمسلمين . فلما ذهب الظالم إلى داره شوى السمكة . فلما وضعها على المائدة وأراد أن يتناولها لدغته السمكة بإذن الله تعالى . وأخذ الدود يده ، فلم يقدر على الصبر حتى قطعها ، ثم سرى إلى ذراعه حتى قطعها . ثم نام فرأى في المنام من يقول له : رد الحق إلى صاحبه حتى تنجو من هذه العِلَّة . فلما استيقظ علم ذلك ، فجاء إلى الصياد فأعطاه عشرة آلاف درهم واستحل منه . فلما جعله في حِلٍ تناثر منه الدود ، فصارت يده كما كانت بقدرة الله تعالى»[1].

● كان المخاطبون في الماضي يتقبلون هذه الحكايات بسرور ورضا . أما الآن فلم تعد تُقبل إلا في أضيق نطاق . وهي تصد الطبقات المتعلمة عن الوعظ الطيب .

اقتراح عملي

إن هذا الواعظ وزملاءه بحاجة إلى كتاب شامل لدروس مفيدة ، تعتمده الإدارات المختصة ، مثلما تعتمد كتب التربية الإسلامية في المدارس ؛ ويكلف الواعظ بشرح الدروس ، والالتزام بها ، ويمنع من تداول تلك «الدرر!» الغنية بالخزعبلات الضارة لدين المسلم وعقله .

* * *

(١) درة الناصحين في الوعظ والإرشاد ؛ مصطفى البابي الحلبي ؛ بمصر ؛ ص ٢١ .

الفصل الثامن

الوسائل التربوية

نظرية موجهة للتربية الإسلامية

● إن التربية نوع من الدعوة ، بل من أخطر أنواع الدعوة . ولا بد من وجود نظرية عامة توجه النشاط التربوي إلى غايات ومقاصد إسلامية عليا . فإذا تحققت ، نشأت أجيال ذات توجهات فكرية وسلوكية معينة ، هي التي أرادتها النظرية التربوية ، والتزم بها رجال التربية .

– وفي الإسلام ، «الإنسان الصالح» هو غاية التربية والدعوة بكل ضروبها . و«الصلاح» المنشود هو الصلاح الذي تحدده تعاليم الإسلام ، في العقائد ، والشرائع ، والأخلاق . وصلاح النفس البشرية هو الطريق إلى صلاح كل شيء . يقول صاحب المنار إنه : «إذا صلحت النفس البشرية أصلحت كل شيء تأخذ به ، وتتولى أمره . فالإنسان سيد هذه الأرض ، وصلاحها وفسادها منوط بصلاحه وفساده»[1]. فالتربية يجب أن تتجه إلى إصلاح النفس أولاً ، وأن تخطط مناهجها لبلوغ هذه الغاية السامية .

– ومن الخطأ أن تؤول أفكار بعض التربويين اليوم إلى نسيان النظرية التربوية الإسلامية ، وتقول للتلاميذ إن كل الخيرات مرهونة بالعلم والتقنية ، وتسجل هذه المقولة على غلاف الكراسات ، لتلازم التلاميذ طوال العام . والعلم والتقنية مهمان جداً ، ولا يرتاب في ذلك أحد . لكن العلم والتقنية وحدهما لا يزودان البشر بالعقائد والقيم التي تضبط سلوكهم وترتفع به . وصلاح النفس البشرية مرهون

---

(١) تفسير المنار ؛ المقدمة ؛ ص ٧ .

برسوخ الإيمان بالله تعالى ، وطاعته ، والعمل بكتابه وبسنة رسوله . والعلم والتقنية ، دون إيمان وطاعة وقيم ، ينشآن أجيالاً من الفنيين المهرة الذين يتفلّتون من القيم والقوانين ، ويخضعون لشهواتهم الفردية ، ونزواتهم الأنانية . ولا يمكن أن ينشأ مجتمع صالح ، متقدم ، متحضر ، بمثل تلك الأجيال . والحمد لله أن أحداً لم يأخذ بنصائح وزارة التعليم المصرية لتلاميذ مدارسها !

التربية المدرسية

● ونستطيع أن نوجز أهداف التربية والتعليم في كلمتين اثنتين هما : القيمة والمهنة . فكل المواد الدراسية ، في أي بلد في العالم ، تخطط بُغْيَة تنشئة إنسان صالح ، يجيد مهنة ، ويلتزم في تفكيره وسلوكه بقيم أخلاقية وضوابط فكرية ، يؤمن بها المجتمع الذي يعيش فيه . و« الصلاح » تحدده قيم المجتمع الخاصة ؛ أما المهنة فتحددها الحاجات الحياتية البشرية المشتركة بين أمم الأرض ، في مجالات الزراعة والصناعة والطب والتقنية والدفاع والتعليم والاجتماع والسياسة ، والدين ، والفنون والآداب .

● هذه الصورة الموجزة تحتاج إلى شروح وإيضاحات كثيرة ربما تستغرق كتاباً كبيراً . لكننا هنا معنيون فقط بالدور الدعوي للمدرسة ، أو للتربية والتعليم ، من الحضانة إلى الجامعة . وهو دور مهم جداً ، ومؤثر جداً ، وجدير بالاهتمام في أي بحث في تطوير الخطاب الديني في ضوء الواقع المعاصر . ففي هذا الواقع اليوم تضخم الدور الدعوي للتربية والتعليم ، بسبب التوسعات الهائلة في تشييد المدارس والمعاهد والكليات ، لكي تستوعب جميع المواليد ، وتقضي على الأمية ، وتفسح مجال الترقي في الدراسة إلى مرحلة الدراسات العليا .

● وبهذا التوسع سَلبت المدرسة الدور التربوي للأسرة إلى حد كبير ، أو لنقل إن الأسرة تنازلت عن دورها التربوي للمدرسة ، حيث انشغل الآباء والأمهات بالعمل ، ووضعوا أولادهم في حضانة المدرسة (في رياض الأطفال) . وحتى في القرى الصغيرة ، تبعث بعض الأسَر بأولادها إلى دور الحضانة صيانة لهم من الآثار

السلبية لزمرة اللعب في الشارع . ولا ريب أن كثيراً من الأسَر لا تزال تتمسك بواجباتها التربوية ، سواء بعثت بالأولاد إلى دور الحضانة أو أبقتهم في رعايتها المنزلية . لكن الاتجاه إلى دور الحضانة يتعاظم ، مع دخول أعداد كبيرة من النساء إلى ميدان العمل ، ورغبة كثير من النساء في التفرغ للرياضة ، أو الخمول والكسل واللهو !

● ونال التلفاز حظه كاملاً من أوقات الأولاد والآباء أيضاً ، وأصبح المربِّي رقم واحد في كثير من البيوت ، قبل المدرسة ، والأسرة ، وتعاظم تأثيره بما يتمتع به من جاذبية وإغراء للصغار والكبار . وأصبح كفُّ الأولاد عن الاستمرار في المشاهدة عسيراً .

● وندع التلفاز الآن لنركز على التربية موضوع هذا الفصل .

- إن المدرسة حياة يومية متصلة . فبعد اليوم الدراسي الذي يمتد من ست ساعات إلى ثماني ساعات ، تبدأ فترة المذاكرة التي تكون قصيرة في مرحلة الحضانة والابتدائي ، ثم تمتد في المراحل التالية حتى تستغرق يوم الطالب ونصف ليله . ويدرس التلاميذ « المواد القيميَّة » التي تنطوي على دعوة إسلامية ، أو دعوة مضادة ، في مناهج التربية الإسلامية والأخلاق والتاريخ والقراءة والتربية الوطنية والفلسفة والاجتماع والآداب والفنون والاقتصاد والسياسة والأحياء .

● وقد يتبع المعلمون والأساتذة منهج الدعوة الإسلامية السديد ، وقد لا يتبعونه (مثل أي داعية ، بأي وسيلة دعوية أخرى). وهم يستخدمون وسائل دعوية عديدة ، وإن كان الأغلب الأعم اتباع طرق تدريس المواد المقررة . ففي بعض المدارس يدرَّب التلاميذ على الخطابة ، وكتابة المقال ، والتمثيل المسرحي ، والشعر ، والصحافة المدرسية والجامعية .

- ويبذل التلاميذ والطلاب جهداً كبيراً في تحصيل هذه المواد « القيمية » ، « الدعوية » لأنهم يمتحنون فيها ، وينجحون أو يرسبون . ومن هنا كان تأثيرها عميقاً ، سلباً وإيجاباً .

● يقول الشاعر الهندي المسلم «أكبر الإله آبادي» : «يا لبلادة فرعون الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات وقد كان ذلك أسهل الطرق لقتل الأولاد! ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة في التاريخ»[1]. كان بوسع فرعون أن ينشىء أجيالاً من المصريين الموالين له لو أنه أنشأ الكليات والمعاهد والمدارس ووضع لها المناهج المناسبة لذلك الغرض .

- وقد وصل تفكير النظم الحاكمة اليوم إلى هذه البدهية ، وسخَّروا التربية والتعليم لتنشئة أجيال تؤيدهم وتدين بالولاء لهم . وفي العالم الإسلامي دولة واحدة هي التي يتفق نظامها السياسي مع الإسلام إلى حد كبير ، هي المملكة العربية السعودية ، وتسخر التربية والتعليم في مواده «القيمية» للدعوة إلى الإسلام والنظام الملكي الوراثي . وسائر الدول الإسلامية تخضع لنظم «هجين» فيها عناصر إسلامية وأخرى رأسمالية أو اشتراكية أو شيوعية بنسب متفاوتة من دولة إلى أخرى . وكل دولة تسخر التربية والتعليم لتسويغ نظامها «الهجين» لدى تلاميذ المدارس والكليات ، فنشأت أجيال حائرة مضطربة . وانحازت نسبة منهم إلى الإسلام بالمعنى الكامل ، ورفضت المكونات الأجنبية في «الهجين» ؛ وانحازت نسبة أخرى منهم إلى المكونات الأجنبية ، وتخلت عن الإسلام بمعناه الكامل ، ورضيت بالإيمان بأجزاء منه ، ونبذت أجزاء . وساد في تلك الدول نظام «الاجتزاء» الذي ضمن بقاء «الهجين» الثقافي والاقتصادي بمكوناته المتعارضة ، الأمر الذي تسبب في صدامات متصلة بين النظم وبين رعاياها .

● وفيما يلي أمثلة «للدعوة المضادة» عن طريق التربية والتعليم :

● فهذا نبي الله نوح عليه السلام ، وقصته مع قومه معروفة للتلاميذ في المرحلة الابتدائية ، مع دراسة لها كما جاءت في سورة هود ؛ ولكن في المرحلة الثانوية يقال إنه رجل صالح ، أسَرَّ إليه «إيا» إله الحكمة بأمر الطوفان ونصحه بصنع سفينة ففعل وبذلك نجا من الغرق !

---

(١) أبو الحسن الندوي ؛ «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة العربية ؛ ص ١٨٣

● ويقال إن رسول الله ﷺ اكتسب صفات الصبر والرحمة ، والقناعة والصدق والأمانة من عمله في رعْي الأغنام ، ثم في التجارة . إذن ، لا تأثير للرسالة السماوية ، ولم يؤدبه ربه فأحسن تأديبه ، كما قال ﷺ عن نفسه . ولا ذِكْر لقول الله تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ (النجم:٣-٥). ومئات من التوجيهات والأوامر القرآنية التي رسمت له ولأمته أرفع درجات السلوك .

● والجيوش التي فتحت الشام واليمن ومصر وفارس والأندلس توصف بأنها «عربية» لا مسلمة ، والدول التي أقامتها أيضاً دول عربية . وخالد بن الوليد ﷺ شخصية عربية !

● ويقال : إن مصر وشخصيتها الحضارية من صنع النيل ،ولا أثر للإسلام فيها !

● وهجرة الرسول ﷺ كانت استغفالاً للمشركين لا معجزة فيها !

● ويقال إن علماء مصر أثروا في عقيدة الإسلام ! (يعني : هي عقيدة متغيرة من صنع بشر!)

● ونهوض الأوطان يتحقق بالعلم وحده ، بلا قيم ولا دين !

● وتدرس الحضارة الفرعونية فلا يُستشهد بآية قرآنية واحدة من الأربع والسبعين التي ذكرت فرعون !

● ودَرَسَ التلاميذ صفحة ونصف عن الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ﷺ ، ودرسوا ثماني صفحات كاملة عن المغني سيد درويش !

● ودرسوا ١٤ صفحة عن الخلفاء الراشدين ﷺ ، و٤٢ صفحة عن رواد عصر التنوير (رفاعة الطهطاوي وأتباعه) .

● ولقد كانت النزعة العلمانية هي الباعث على اقتراف كل هذه الأخطاء وغيرها مما لم أذكره . لقد أورثت أولئك المؤلفين الجفوة تجاه القرآن فلم يعترفوا بأنه

أكد مصدر عن فراعنة مصر القديمة ؛ وهي التي حملتهم على نسيان القيم الأخلاقية والتشريعية ، وتسخير كل المناهج لتوكيد قيمة واحدة هي : الوطنية . وهي التي صورت لهم «العروبة» كبديل للإسلام ، وهي التي أوقعتهم في سائر التجاوزات .

● وهكذا صارت المناهج «القيمية» مضادة للخطاب الديني الإسلامي الصحيح . واستبيحت الحقائق العلمية والتاريخية من أجل نصرة الدعوة المضادة ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (الصف:٨).

البعوث الدعوية

● والبعوث وسيلة تربوية أصيلة للدعوة . فقد كان رسول الله ﷺ يبعث الصحابة لتعليم الناس الإسلام . ومن أشهر بعثاته ﷺ ، تلك التي أرسلها إلى «عَضَل والقَارَة» سنة ثلاث هجرية ، وفيها من خيرة الصحابة العلماء : مَرْثَد ابن أبي مرثد ، وخالد بن البُكَيْر ، وعاصم بن ثابت ، وخُبَيْب بن عَدِيّ ، وزيد ابن الدَّثِنَّة ، وعبدالله بن طارق ﷺ .

– وغدرت «عَضَل والقَارَة» بأولئك الدعاة الأبرار في مأساة محزنة أليمة ، إذ قتلوا خمسة ، وأسَروا «خُبَيْب بن عَدِيّ» وباعوه إلى مشركي مكة ليقتلوه ظلماً وعدواناً[1] . وتكررت المأساة في «بئر معونة»[2] .

● ولا يزال للبعثات دورها في الدعوة في عصرنا هذا . فالدول المسلمة الكبيرة والمتقدمة علمياً ترسل العلماء والدعاة والمدرسين إلى البلاد المسلمة ، والبلاد غير المسلمة ، لتعليم الأقليات والجاليات المسلمة . وتتوقف نتائج المبعوث على معرفته بالإسلام أولاً ومعرفته بلغة القوم الذين يتلقون عنه ثانياً ، ثم على حميته الدينية التي تهوّن عليه المشاق ، وتزوّده بالصبر والمثابرة .

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ٢ ص ١٦٩-١٧٣ .
(٢) نفسه ؛ ص ١٨٣- وقد استشهد فيها أربعون داعية ﷺ .

● وتستَقْبلُ الجامعاتُ الإسلامية الكبرى أعداداً من الطلاب من بلاد إفريقيا وآسيا لتعليمهم الإسلام ، كي يعودوا إلى بلادهم ، يدعون إلى الله على بصيرة [1].

- فالابتعاث وسيلة أصيلة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، لكنه اتخذ أشكالاً مختلفة عبر العصور . ويجب دعمه من طرف الدول المسلمة الغنية ، لمواجهة التنصير والاستشراق ، وقوى الدعوات المضادة والمرتدة ، كالقاديانية والبهائية والفلسفات الإلحادية في البلاد المسلمة الضعيفة . وهذا الدعم يشمل تطوير الخطاب الديني إلى جانب الدعم المالي والسياسي .

● ومعلوم أن الأزهر يقوم منذ سنين عديدة باستقبال الطلاب العرب والأتراك والهنود والأفارقة في معاهده وكلياته . وقد شُيد معهد خاص للبعوث في القاهرة ، ومدينة سكنية للطلاب الوافدين ، كما أرسل البعوث إلى الخارج للدعوة والتربية ، بقدر ما سمحت له إمكاناته المادية .

- وأسهمت السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وباكستان وماليزيا في تدعيم البعوث الإسلامية وتربية الطلاب الوافدين .

● وعلى الأمة المسلمة أن تضاعف البعوث ، وتسهم دول أخرى في نفقاتها .

- وكانت الدعوة إلى الإسلام موضع ترحيب وتقدير من جانب المسلمين وغير المسلمين في الماضي والحاضر . ففي عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ ، طلب ملك الهند إرسال عالم مسلم إليه يعلمه الإسلام . وجاء في الرسالة : « أما بعد ، فإني قد بعثت إليك بهدية ، وما هي هدية ، ولكنها تحية . وأحببت أن تبعث إليّ رجلاً يعلمني ويفهمني الإسلام ، والسلام » [2].

- وأظهر المسلمون من غير العرب رغبتهم القوية في معرفة دينهم على أيدي الدعاة العرب . ولذلك تواصلت البعوث قديماً وحديثاً .

---

(١) على رأسها جامعات الأزهر والمدينة المنورة والإمام محمد بن سعود بالرياض .

(٢) راجع : دكتور محمد ماهر حمادة ؛ الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي ؛ مؤسسة الرسالة ؛ ط ١ ١٣٩٤-١٩٧٤م ؛ ص ٥٤١ — رقم ٧٩٠ .

- لكن الشكوى من عدم كفاية هذه البعوث لا تزال تتردد في الإعلام . فهذا مفتي زيمبابوي - الشيخ إسماعيل بن موسى - يشكو من قلة المدرسين المؤهلين وعدم وجود معهد إسلامي لتدريب أئمة المساجد ، كما يشكو من سوء المناهج التعليمية وهزالها . وهو يطالب ببعث المزيد من المدرسين والوعاظ ، وإنشاء المزيد من المدارس والمراكز الإسلامية . وهناك فرصة لدعوة الوثنيين من أهالي تلك البلاد إلى الإسلام وإنقاذهم من عبادة الأصنام والأوثان ، إلى جانب نشر الوعي الإسلامي بين المسلمين ، وتحصينهم ضد الدعوات المضادة التي تنشط في طول البلاد وعرضها[1]. وهذا يتطلب خطاباً دينياً شاملاً ومتطوراً .

● وفي لقاء آخر بين المحرر والدكتور إبراهيم أبو محمد رئيس المؤسسة الأسترالية للثقافة الإسلامية ، عرض مشكلات الجالية المسلمة في أستراليا ، فكان سوء فهم الأستراليين للإسلام أخطرها ، إلى جانب مشكلة تغريب الجيل الجديد من أبناء المسلمين الذين ولدوا هناك وتربوا في المدارس العامة . وقد أنشأت الجالية المسلمة إذاعة خاصة لبيان حقائق الإسلام لغير المسلمين ، والدعوة إلى طاعة الله بين المسلمين . وطالب رئيس المؤسسة الإسلامية بإنشاء فضائية للدعوة الإسلامية ، لأنه لا يفل الحديد إلا الحديد . وهناك مئات الفضائيات التي تعرض مبادئ المسيحية والفلسفات الإلحادية ، وتغري المشاهدين بالتحلل من الدين والقيم الأخلاقية . وفي اعتقادي أن إنشاء فضائية للدعوة مطلب يسير التحقيق .[2]

● وأموال الزكاة تقدر اليوم بمليارات الريالات والجنيهات والدراهم والدولارات ، ومن المشروع إنفاق جزء منها على الأنشطة الدعوية . فيقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله : «ومن أهم ما يُنفق في سبيل الله (من أموال الزكاة) في زماننا هذا : إعداد الدعاة إلى الإسلام وإرسالهم إلى بلاد الكفار من قِبَل جمعيات منظمة تمدهم بالمال الكافي ، كما يفعله الكفار في نشر دينهم . . ويدخل فيه النفقة

---

(١) وردت شكواه ضمن حوار أجراه المحرر محمد جمال أبو زيد في جريدة الأهرام يوم ١٤٢٥/٩/٢٣هـ ، ٢٠٠٣/١١/١٧م .

(٢) أجرى الحوار المحرر محمود عشب ونشره في الأهرام يوم ١٤٢٥/٩/٢٥هـ-٢٠٠٣/١١/١٩م .

على مدارس العلوم الشرعية وغيرهم مما تقوم به المصلحة العامة . وفي هذه الحالة يُعطى منها معلمو هذه المدارس ماداموا يؤدون وظائفهم المشروعة التي ينقطعون بها عن كسب آخر ، ولا يُعطى عالم غني لأجل علمه وإن كان يفيد الناس به »[1].

ويشير رشيد رضا هنا إلى بعثات التنصير التي انتشرت في جميع أرجاء العالم ، والعالم الإسلامي خاصة ، ونجحت في تنصير أعداد كبيرة من أبناء المسلمين في آسيا وإفريقيا . والبعثات الإسلامية يمكن أن تواجه تلك البعثات في داخل بلاد المسلمين ، وفي أمريكا وأوربا .

● واليوم هناك غير المدارس وسائل حديثة للدعوة إلى الإسلام ، ومواجهة حملات التشويه التي يشنونها ضده . ولا ريب أن فضائية إسلامية أو مؤسسة أكاديمية إسلامية أو دار نشر إسلامية في أوربا خير ألف مرة من رصد الأموال لقتل رجال من أمثال سلمان رشدي . وإذا توفرت وسائل التمويل ، فما عذرنا للتقاعس عن أداء واجباتنا نحو الدعوة الإسلامية ؟ لماذا لا نحاول الوفاء بحاجات المسلمين في الخارج - في أوساط الأقليات والجاليات المسلمة ، وفي البلاد التي أغلبيتها مسلمون لكنهم فقراء مثل بنجلاديش؟

- ولو أننا تعمقنا في بحث القضية فسوف نجد مصالح كبيرة تعود على الأمة المسلمة ، سياسية واقتصادية وثقافية . وعلينا أن نكشف عن تلك المصالح المحتملة لإثارة الحمية لدى الدول المسلمة القادرة مادياً وثقافياً على الشروع في العمل . والشعوب المسلمة غافلة عن هذه الأبواب لإنفاق زكاتها فيها ، ولذلك يُؤتونها للفقراء والمساكين فقط ، دون سائر الأصناف المستحقة لها .

دور المكتبات

● وتؤدي المكتبات العامة دوراً مؤثراً في تطوير الخطاب الديني، ونشر الثقافة . والعالم كله يعرف هذه الحقيقة ، ولذلك تحرص الدول على نشر المكتبات العامة

---

(١) راجع تفسير المنار ؛ تفسير الآية رقم ٦٠ من سورة التوبة .

في طول البلاد وعرضها ، بحيث توجد مكتبة في كل حي من المدينة ، وفي كل قرية ، ومدرسة وكلية وصحيفة ، لكي يصبح الدين وعلومه ، والمعرفة والثقافة في متناول الجميع . وكان لهذا مردود عظيم .

- وفي العالم الإسلامي يمكن أن تكون المكتبات أرخص وسيلة للدعوة ، لأن تكوينها لا يحتاج إلى مبالغ كبيرة . ومن الممكن أن يكون مقرها في المدرسة أو في المسجد أو في مبنى صغير . وتوجد في المساجد والمدارس مكتبات ، لكنها غير مزودة بالكتب التي تشبع رغبات القراء ، وتقتصر على كتب خاصة بالمستوى الذي بلغه التلاميذ في مراحل الدراسة . وغالباً ما تُغْلَق مكتبات المساجد بصفة دائمة خَشْية ضياع «العهدة» ـ أي الكتب التي دخلتها ووقع العامل باستلامها !

● ومن الجلي أن الإيمان بدور المكتبة غير موجود لدى معظم المستويات الإدارية . ولذلك لا يطلب أحد فتحها ، ولا يُلام عامل على إغلاقها .

ودخل التصادم بين الإسلام والعلمانية في قضية المكتبات . فالسلطات تحاول تزويد المكتبات بكتب علمانية تؤيد العناصر المادية في «الهجين» الثقافي الشائع ؛ وهي ترفض إدخال أي كتاب إسلامي! وأغلبية القراء المسلمين تريد الإسلاميات . وهذه المناقص تخنق الخطاب الديني أو تشلّه .

● ويشعر المرء بالحسرة حين يتعامل مع المكتبات الأجنبية . وقد حدث يوماً أن استعرت كتاباً من مكتبة «جوته» بالقاهرة ، ثم جددت فترة الاستعارة مرتين ، فإذا بالموظف يهديني الكتاب قائلاً : ما دمت مشغولاً بالموضوع ، فأنت أحق به ، ولا داعي لتكرار الإعارة . وعندهم تسهيلات الإعارة لكتب ثمينة جداً مدهشة ، والقاعدة عندهم ـ كما ذكرها لي أمين إحدى المكتبات : لا يمكن أن نتعب مئات القراء بسبب قارئ لص أو مهمل . . . وقليل من الكتب يُفقد ، ولكننا لا نغير قاعدتنا !

● فكيف نحدث تغييراً جذرياً في نظرتنا للمكتبات؟ هذا هو السؤال!

● يشير القرآن الكريم إلى هذه الوسيلة التربوية في قوله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١) وفي قوله ﷻ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ (الممتحنة: ٤).

● وسند القدوة «أن الناس مجبولون على تشبه بعضهم ببعض»[(١)].

● وقد استفاد الدعاة من هذه الوسيلة الأصيلة في الدعوة إلى الإسلام بأن قدَّموا للمدعوين صورة واضحة لأعمال النبي ﷺ وأقواله وقراراته ، كلٌّ بحسب قدرته . ولذلك يتحتم على الدعاة دراسة السيرة النبوية دراسة جيدة ، ودراسة الحديث وعلومه ، وكيفية الاستفادة من وسيلة الاقتداء برسول الله ﷺ ، وبالأنبياء جميعاً ، عليهم الصلاة والسلام .

- ويتسع مجال القدوة الحسنة ليشمل صحابة رسول الله ﷺ ، مع مراعاة الفارق بين النبي المعصوم الذي لا يُرَدُّ له حديث صحيح ، وبين الصحابي الذي لا عِصْمَة له ، ومن ثم يُؤخذ من كلامه ويُترك . والمقصود بـ« كلامه» هنا هو اجتهاداته ، لا ما يرويه عن النبي ﷺ . وقد حَدَّدت علومُ الحديث معايير التواتر والصحة في الحديث النبوي . وعلى الداعية أن يتأكد من درجة الحديث الشريف قبل أن يستند إليه في عمله الدعوي . ومن المؤسف أن كثيراً من الدعاة لا يلتزمون بذلك ويتورطون في الاستشهاد بأحاديث موضوعة .

● ومن هاتين الآيتين السابقتين نفهم أن الرسول ﷺ كان قدوة لمن شَهِدَه ، كما أنه قدوة لنا اليوم ، وللمسلمين في كل عصر ، دون أن يلتقوه أو يستمعوا إليه مباشرة . والدعة هم الذين يقدِّمون الصورة الدقيقة الصحيحة له

---

(١) ابن تيمية ؛ الحسبة في الإسلام ؛ دار الكاتب العربي ؛ ص ٨٥ .

عليه الصلاة والسلام، ولأصحابه الكرام ﷺ، وللأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام، مع مراعاة القاعدة الأصولية القائلة بأن شرع مَنْ قبلنا ليس من أصول الأدلة[1].

● ويمكن القول إن «القدوة» يُسَاءُ استخدامها في الخطاب الديني المعاصر. فالسلوك العام في البيت والمدرسة والنادي والشارع بعيد عن المثل الأخلاقية الإسلامية.

● أما الأعمال الدرامية في التلفاز والإذاعة فلا تقدم القدوات الحسنة ولاتحترم الحقائق الثابتة في السيرة النبوية وأخبار الصحابة، وتطلق العنان للمؤلفين لكي يضيفوا ويحذفوا كما يشاءون، أو كما تريد التوجهات السائدة في المجتمع. وتصل المخالفات حد الجريمة في بعض المسلسلات، فتقدم القدوات الحسنة مَشُوبة بكثير من الانحرافات، ومعها قدوات سيئة كثيرة، من الراقصات والمغنيات.

● وحاول المؤرخون المحدَثون استخدام القدوة، كل لصالح مذهبه، حتى وجدنا من يصور الخوارج على أنهم أحرار ناضلوا من أجل الحرية، والشعوبيين على أنهم أبطال تصدوا للعنصرية العربية! وغيلان الدمشقي على أنه حكيم زمانه، وأبا ذر الغفاري كزعيم شيوعي![2]

● هذا التزييف كان هدفه كسب الشعوب إلى صف التغريب الذي لقي مقاومة صلبة من الأمة المسلمة، وكان من أعظم تحديات العصر الحديث.

- إن الإسلام، كما يقرر الدكتور مراد هوفمان ـ يضع ثقته: «في الجاذبية الحتمية لنمط الحياة النموذجي الذي يلتزم به الفرد المسلم». «والإسلام يعوِّل على الأثر التلقائي الناجم عن بساطته وطابعه الفطري، ووضوحه واعتداله لكل من يريد ويستطيع أن يسمع وأن يرى». ثم يقول د. هوفمان: «ومع ذلك يجب على المسلم ألا يتردد في أن يكون حلقة في رابطة السببية المؤدية إلى إيمان جاره»[3].

---

(١) أبو حامد الغزالي؛ المستصفى؛ تحقيق محمد مصطفى أبو العلا؛ مكتبة الجندي؛ ص ٢٣٨.

(٢) هذا ما تزعمه إحدى المسرحيات الفائزة بالجوائز الأولى لوزارة الثقافة المصرية.

(٣) انظر كتابه: يوميات ألماني مسلم؛ ترجمة د. عباس رشدي العماري؛ مركز الأهرام للترجمة والنشر؛ ط ١ ١٤١٤هـ-١٩٩٣م؛ ص ١٦٧،١٦٨.

- ولقد أمر النبي ﷺ بإنزال وفد ثقيف - وهم مشركون - في المسجد «حيث يسمعون القرآن» ويرون المسلمين وهم يصلون . وأفلحت هذه الوسيلة في جذب الوفد إلى الإسلام ، فأسلموا[1].

- فالمهم إذن هو وجود المسلم الملتزم ، الأسوة الحسنة ، الذي يعرض نمط الحياة الإسلامية النموذجي ، بما فيها من البساطة والفطرة والاعتدال . والمشكلة هي انتشار الأسوة السيئة متمثلة في أعداد كبيرة من المسلمين ، أولئك الذين ينفرون الآخرين من الإسلام .

● والحياة العامة تعج بأنواع عديدة من القدوات السيئة والمنحرفة والساقطة التي تعرقل عمل الدعاة وتبطل مفعوله ، وتزيِّن السلوك المنحط والأقوال المُسِفَّة للنشء . وتملك أجهزة التلفاز والسينما أساليب فنية مغرية جداً . وتشجع الناس على التحلل من القيم والشرائع ، في حين تطالبهم الدعوة الإسلامية بالتقيد بها والالتزام بالنهوض بتبعاتها . ويقع الفرد بين جاذبيْن قوييْن : بين قوة الشهوات الحيوانية في طبيعته البدنية ، وبين النزوع الفطري إلى السمو الأخلاقي والترفع على الرذائل والجرائم ، وممارسة الإيثار نحو الآخرين .

● وسوف يواجه الدعاة آثار القدوات السيئة طالما انفلت مقود التربية والتلفاز والسينما والإذاعة والصحافة من أيدي الصلحاء من الأدباء والكتاب والمخرجين ، وأسلم عَنَانَه للعلمانيين المتغربين المتحللين من شرائع الإسلام وقيمه ، فصار من أعتَى التحديات أمام تطوير الخطاب الديني .

● ودور الدولة في رعاية الدعوة هو الحاسم في كبح أجهزة إنتاج القدوات السيئة والسلبية . والإعلام الثقيل - وبخاصة التلفاز - يحتاج إلى تشريعات لضبط أدائه بحيث يتبنى القدوات الحسنة ويحجب القدوات السيئة . وعلينا أن نلح على المجالس التشريعية لإصدار التشريعات المطلوبة لتنظم ذلك .

---

(١) ابن القيم ؛ زاد المعاد ؛ جـ ٣ ص ٣١-٣٣ .

● والمجتمع والأسرة والمدرسة والمسجد والصحافة والآداب والفنون تلعب أدواراً مهمة في تبني القدوات الحسنة ونبذ السيئة . وبهذه المثابة تعتبر مؤسسات دعوية . فكل مؤسسة تربوية هي مؤسسة دعوية في حقيقة الأمر . ولكن من الممكن أن تسخَّر ـ كسائر الوسائل ـ للدعوات المضادة للإسلام . وهذا هو واقع المسلمين اليوم . فالمجتمع العام ـ بنواديه وملاهيه ووسائل المواصلات فيه ، وشوارعه وحواريه ـ يقدم القدوات السالبة المباشرة والحية ، وغير المباشرة ، والمصورة .

والاستفادة من ظاهرة القدوة ، على هذا ، تتطلب وجود نظرة شاملة لمجالاتها ، والتنسيق بين منتجيها ، لتبني القدوات الحسنة وحجب القدوات السيئة . وهذا هو دور الدولة المسلمة في تطوير الخطاب الديني . وترك الحبل على الغارب يؤدي إلى ظهور « التهادم المتبادل » ، وشل فعاليات الدعوة .

* * *

الفصل التاسع

الوسائل العلمية

الكتب والرسائل

● الكتب والرسائل وسائل فعالة راقية للدعوة . وهي من أهم معالم تطور الخطاب الديني الإسلامي الحديث .

- وقد أصدر العلماء المسلمون المحدثون الكثير من الكتب والرسائل في المجالات العلمية المختلفة . ولمع بعضهم أكثر من غيره ، واستمر تأثير مؤلفاته بعد وفاته سنين عدداً .

- ومن هؤلاء أذكر (بعض الأسماء ولا أحصيهم) الشيخ محمد بن عبدالوهاب والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا والأستاذ مصطفى صادق الرافعي والدكتور محمد حسين هيكل والشيخ محمد أبوزهرة ، وسيد قطب ومالك بن نبي والدكتور محمد عبد الله دراز والشيخ محمد الغزالي والأستاذ محمد جلال كشك والأستاذ خالد محمد خالد والدكتور عبد الرحمن بدوي (بعد أن تاب وأناب) .

- وهناك أعداد كبيرة من المؤلفين من الطبقة الثانية . كما أن هناك رسائل جامعية عديدة نشرت ، إسلامية ودعوية .

- لكن كل هذه الكتب والرسائل لا تكافىء ما نشره العلمانيون وما ترجموه عن الإنجليزية والفرنسية وغيرهما ، وكثير من مؤلفاتهم تعمل في الاتجاه المعاكس للدعوة الإسلامية . والمكتبات وخزائن الكتب مكتظة بما ينشرونه !

- ولو أننا أجرينا إحصاءات للمؤلفين العرب المحدثين لوجدنا أن أصحاب التوجهات الحداثية والعلمانية أكثر عدداً وأوفر إنتاجاً . وسبب ذلك وجود دور

نشر قادرة وقوية ، رسمية وأهلية ، ترحب بكل ما يكتب عن الحداثة والآداب والفلسفات المادية ، في حين يندر وجود دور نشر إسلامية قادرة ، غنية ، تكافئ المؤلف وتوزع كتابه . وأفضى هذا الوضع إلى حد أن صار المؤلف المسلم ينشر إنتاجه على نفقته . وذلك أمر لا يقدر عليه إلا القليلون . وأحجم كثيرون عن التأليف لأن من غير المعقول أن يقضي الكاتب سنة من عمره في إجراء بحث لكي يضع مخطوطته في خزانة كتبه . وإني لأتمنى أن تُبحث هذه المشكلة وأن تعرف طريقها إلى الحل ، خدمة للدعوة الإسلامية .

● وأصدر الدعاة الكبار من غير العرب العديد من الكتب والرسائل . وربما كان الأستاذ المودودي أغزرهم وأعمقهم جميعاً . فقد أصدر حوالي ٦٨ كتاباً ورسالة ، منها ما جاء في ثلاثة أجزاء ، عالج فيها علوم القرآن والحديث ، والعلوم الإسلامية الأساسية ، وعلم السياسة ، والدستور والقانون ، وعلم الاجتماع ، والتعليم ، وعلم الاقتصاد وشئون المجتمع[١] .

● وتُرجمت مؤلفات المودودي من الأردية إلى ٢٢ لغة ، منها العربية (٤٨ كتاباً) ، والإنجليزية (٣٤ كتاباً) ، والبنغالية (٤٢ كتاباً).[٢] وقد لقيت رواجاً واسعاً لما اتسمت به من الأصالة والدقة ، والحيوية والوضوح .

- وبهذه المؤلفات أدَّى المودودي خدمة هائلة للدعوة الإسلامية في العصور الحديثة ، على مستوى العالم أجمع . وتراجعت أمام كتاباته الدعوات المضادة : المادية الملحدة الوافدة من الغرب ، وحركات الردة الحديثة : القاديانية (أو الأحمدية) ، والبابية والبهائية .

● وأعادت مؤلفات المودودي الثقة لدى الطبقة المثقفة المسلمة في إمكان البعث الإسلامي ، وتطبيق الإسلام كاملاً شاملاً ، دون بتْر أو اجتزاء أو انتقاء ، بعد سيادة الاجتزاء في العالم الإسلامي ، وإحلال الثقافة الأوربية محل الثقافة الإسلامية في الكثير من بلاد المسلمين .

---

(١) فاروق عبد السلام الصاوي ؛ فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودي ؛ ص ١٩٧-٢٠١ .
(٢) نفسه ؛ ص ١٦٧ .

- بل بوسعنا أن نقول إن القادة الكبار في العالم الإسلامي تأثروا بمؤلفات المودودي ؛ ولا يزال هذا التأثير واضحاً في كتابات الكثيرين منهم ، وفي الرسائل الجامعية لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه .

● وألَّف المهتدون إلى الإسلام من الغربيين العديد من الكتب التي جذبت آلاف المهتدين إلى الإسلام ، وأنارت الطريق لملايين المسلمين من جميع الأجناس ، بما فيهم العرب .

- ومن أمثلة أولئك الكُتَّاب الدعاة الكبار محمد أسد ، الألماني الجنسية ، الذي كان قد نشأ على اليهودية ، ثم هداه الله إلى الإسلام عام ١٩٢٦م . وقد كتب روائع أدبية ودينية مبهرة ، منها كتابه : «الطريق إلى مكة» الذي تُرجم إلى العربية وإلى عدد من اللغات الأوربية . وألف كتابه البديع العميق : «الإسلام على مفترق الطرق» ، حيث حذر المسلمين من الأخطار الحديثة ، ووصف السبيل إلى النهضة المرجوة .

- واقْتَفَتْ «مريم جميلة» أثر «محمد أسد» ، وكانت ألمانية يهودية مثله ، ثم هداها الله إلى الإسلام سنة ١٩٦٢ ، وهاجرت إلى باكستان مُخَلِّفة وراءها زخرف الحياة الأمريكية الصاخبة . وكتبت «جميلة» عدداً من المؤلفات باللغة الإنجليزية ، ولم تكف لحظة عن الكتابة للإسلام حتى بعد أن تزوجت من ناشر مؤلفاتها ، وأنجبت أولاداً ، فصارت لها مكتبة ثرية ، تصدت فيها للفلسفات المادية والعلمانية ، وفضحت وكلاءها في العالم الإسلامي . ومن أهم مؤلفاتها : «الإسلام والحداثة» و«الإسلام والمجتمع الغربي» و «الإسلام ضد أهل الكتاب» و «الإسلام في النظرية والتطبيق» و «الحضارة الغربية تدين نفسها بنفسها» .

- ومن ألمانيا أيضاً برز كاتب مرموق ، يدعو إلى الإسلام دون كلل أو ملل ، هو الدكتور مراد هوفمان الذي كان سفيراً لألمانيا في المغرب ، واعتنق الإسلام سنة ١٩٨٠م ، وجَنَّد ثقافته الواسعة للدعوة للإسلام في الغرب ، فسافر من بلد إلى بلد يحاضر لشرح الإسلام ، ويناقش ويحاور للإسلام في ندوات ومؤتمرات عديدة ،

وقد ألف للدعوة : «الإسلام هو البديل» و «يوميات ألماني مسلم» و «نهج فلسفي لتناول الإسلام» و«ديانة في صعود» . وكتب عشرات المقالات بالألمانية .

● ومما يثير الإعجاب بهؤلاء الدعاة العظام صفاء عقيدتهم الإسلامية من كل الأكدار والشوائب التي غالباً ما تظل عالقة بفكر المهتدين الغربيين إلى الإسلام بتأثير التربية الغربية والمناخ الفلسفي المادي المسيطر في الغرب .

- وقد وصف الدكتور مراد هوفمان تجربة مدهشة قام بها البروفيسور «فلاتوري» - مدير أكاديمية العلوم الإسلامية في ميونخ - وزميلته البروفيسورة «توروشكا» - وهي غير مسلمة - إذْ كرس الأستاذان الكبيران عشر سنوات كاملة من سنة١٩٨٥ إلى سنة ١٩٩٥ : «لتحليل ما يمكن أن يجده المرء من معلومات عن الإسلام بالكتب المدرسية باللغات الألمانية والهولندية والإيطالية والدانمركية في مواد الدين والتاريخ والجغرافيا . وكانت النتيجة مذهلة حيث وُجد أن تلك الكتب تصور رجل الدين المسلم على أنه طاغية ، منتقم ، وأن أتباعه من المسلمين يخضعون له تمام الخضوع ، خاصة في حربهم ضد المسيحيين في أية فرصة تتاح لهم».! ولم تكن هذه هي الصورة الزائفة الوحيدة . وكتب الأستاذان الكبيران تصحيحات وافية لتلك الصور الزائفة ، وأرسلا ٤٦٠٠٠ كتيب بالبريد الموصى عليه إلى المدارس والجامعات ودور النشر ، على أمل تصحيح المواد التي تدرسها أو تنشرها عن الإسلام والمسلمين[١] .

- وأحسب أن الأستاذين الكبيرين قد تابعا عملية التصحيح في المدارس والجامعات ، وهل حدثت استجابة أم لا .

- والمفروض أن يحرص المسلمون الذين يشاركون في حوار الحضارات وفي الحوار الإسلامي المسيحي ، وفي الاتصالات الثقافية والدبلوماسية على الاطلاع على تلك الكتيبات القيمة ، وأن يسألوا كل من يتصل بهم من الأوربيين عن مصيرها ، وهل تم التصحيح أم لا . ونحن المسلمين متهمون بعدم قبول «الآخر»

---

(١) جريدة الأهرام اليومية في ١٩٩٥/٣/٢٥ .

في حين أن «الآخر» يعلِّمُ أبناءه كراهية الإسلام والمسلمين بتشويه صورتهم في الكتب الدراسية والإعلام ! وسيكون موقف الطرف المسلم قوياً جداً في أية اتصالات من هذا القبيل .

الترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية

● والترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية يمكن أن تصبح وسيلة دَعَوية فعالة . فالشعوب الغربية عامة لا تزال تحرص على القراءة ؛ ولدى الكثيرين منهم حب استطلاع قوي يدفعهم إلى شراء الكتب الثقافية . وبعد تكثف العلاقات بيننا وبينهم تضاعف اهتمامهم بالإسلام وثقافته . وهم لا يجدون إلا القليل من الكتب الإسلامية الرصينة التي تقدم الإسلام تقديماً علمياً أكاديمياً موضوعياً .

● وللأسف ، يتعرض الأطفال الغربيون منذ الطفولة الباكرة لتأثيرات تربوية كنسية سلبية من خلال الكتب التي يدرسونها في «دروس الأحد» ثم في المراحل المختلفة من التعليم العام .

● وقد وصف السيناتور الأمريكي «بول فندلي» دروس الأحد التي يتلقاها الأطفال الأمريكيون الصغار في كثير من الكنائس الأمريكية والتي تصور المسلمين والعرب على أنهم أمة بدوية صحراوية همجية ، والتي اكتشف الرجل بعد أن عرف الإسلام ، أنها كانت زائفة ومشوهة ، وصوَّر ذلك في كتابه : «لا سكوت بعد اليوم»[1] وهؤلاء الصغار يصعب أن يتخلصوا من تلك الصور الزائفة عن الإسلام ، خصوصاً إذا واصل الإعلام والتعليم تدعيمها في عقولهم . وبعض أولئك الأطفال صاروا مؤلفين ومخرجين سينمائيين ، ونقلوا دروس الأحد الكنسية إلى الأفلام والمسلسلات والكتب والصحف اليومية . وتأثر السياسيون بهذا كله!

● ولابد من وسيلة فعالة لمواجهة ذلك البهتان ضد ديننا الحنيف . والكتاب الإسلامي العلمي الموضوعي هو الوسيلة الفعالة المطلوبة على المستويات الثقافية المختلفة . وعلى الجهات المسئولة في بلاد المسلمين تقديم الكتاب المنشود ،

(١) نشرته جريدة الحياة الدولية مسلسلاً ابتداءً من ٢٠٠١/٩/١ .

تأليفاً وترجمة باللغات الأجنبية . وأنا أكرر اقتراح إنشاء مؤسسة إسلامية للنشر والتوزيع تقوم بهذه المهمة. حقاً هناك دور نشر خاصة تنشر كتباً وكتيبات إسلامية، لكنها ضعيفة وهي شركات تجارية تنشد الربح ، وليس بوسعها نشر مؤلفات علمية كبيرة وعميقة . المؤسسة المقترحة هي التي تستطيع ذلك ، لأنها لا تبغي الربح ، بل توصيل الحقائق الإسلامية إلى شعوب العالم . ومن أجل ذلك ، ربما تهدي عشرات النسخ إلى كل مكتبة جامعية ، وتزود الأقسام العلمية في الجامعات بالمراجع الأساسية عن الإسلام . وربما استطاعت توصيل تلك المراجع إلى مكتبات الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية ، ومراكز البحوث المختلفة ، لتكون في متناول أي باحث يريد أن يكتب عن الإسلام .

● وقد يرى البعض أن الكتب المؤلفة خصيصاً لغير المسلمين أفضل للتعريف بالإسلام . لكن مثل هذه الكتب ربما لا تحوز ثقة القارئ غير المسلم ، فقد يساوره الشك فيقول إنها دعائية لا موضوعية . وأما الكتب المترجمة فلا يمكن أن تكون محل شك من ذلك القبيل . غير أن الترجمة لها مشكلاتها العويصة ، وخاصة ترجمة النصوص الدينية ؛ وتحذر دراسات حديثة عديدة من مخاطر الترجمة الدينية والثقافية عامة : «فالألفاظ والجمل لا تتكافأ في أحسن الأحوال إلا جزئياً فقط». كما يقول إيزوتسو[1]. وقد سبق علماء الإسلام «إيزوتسو» بزمان طويل ، حين قرر الشافعي ثم ابن قتيبة ، والشاطبي والغزالي والرازي أن ترجمة النصوص الدينية إلى الفارسية وغيرها من اللغات الأجنبية ، تقريبية ، ولا يوثق بها . وربما استطاع خبراء المؤسسة المقترحة تفضيل الترجمة أحياناً ، والتأليف أحياناً أخرى ؛ وقد ينشر النص العربي مع الترجمة لإزالة أية شكوك ممكنة .

– ويجب أن نتذكر أن لدينا في العالم العربي أعداداً من العلمانيين الذين يعملون بكل جد ونشاط لترجمة كتب الثقافة الأوربية ونشرها ، وأن هناك

---

(1) Toshihiko Isutsu; Ethico-Religious Concepts in the Qu-ran; p . 315; Mcgill . University Press; Canada; 1966

مؤسسات مخصصة لنشر تلك المترجمات وبيعها بأسعار رخيصة . ووُضِعت مشروعات فردية للترجمة ومشروعات حكومية كما حدث في مصر في النصف الثاني من القرن الماضي ، مثل مشروع «الألف كتاب» . وهذه الجهود تصب في صالح المكونات الأجنبية في «الهجين» الثقافي الذي يصبغ حياتنا عامة .

● ومن الجوانب السلبية في قضية الترجمة انتقاء الأوربيين لبعض الأعمال الأدبية ، من الروايات والمسرحيات العربية التي تصور المسلمين في صورة مزرية ، وخصوصاً الشيوخ والعلماء المسلمين ، وتزعم وقوع الفواحش والموبقات في مساجد المسلمين! وعلاوة على تشويه صورة المسلمين في تلك المترجمات ، ظهر أثر آخر ضار على توجهات الكُتاب . فما دامت تلك المؤسسات تنتقي تلك النوعية من الروايات ، وتُغدق الأموال على مؤلفيها ، كان من الطبيعي أن يميل بعض الكُتَّاب إليها ، ليفوزوا بالأجر السخي ، ويفخروا بأن أعمالهم تُرجمت إلى الفرنسية والإنجليزية !

فإذا انعكس الوضع ، وشرعنا في ترجمة الروايات الراقية التي تصور حياتنا على حقيقتها ، سنجد أن بعض الكُتاب قد تحولوا إلى الكتابة بالمواصفات الإسلامية . وهذا كسب مركب : للكاتب ، وللأمة المسلمة ، وللأجانب الذين سيتمكنون من معرفة أمتنا على حقيقتها .

تحقيق التراث

وتحقيق التراث الإسلامي وسيلة مفيدة للدعاة ، خصوصاً النخبة الأكاديمية التي تؤلف الكتب الإسلامية . وقد أقبلت الجماهير المسلمة التواقة لمعرفة الإسلام على شراء الكتب التراثية إقبالاً كبيراً . واستندت المؤلفات الإسلامية الحديثة في مختلف العلوم إلى المصادر التراثية التي تم تحقيقها ونشرها . وهكذا أثبت تحقيق التراث أنه وسيلة مهمة للدعوة الإسلامية . حقاً إن المحقق للتراث لا يقوم بالدعوة ، ولا يتصل بالجماهير ، ولكنه يزود الدعاة بالمواد العلمية الأساسية والضرورية المطلوبة للدعوة على المستوى العلمي الأساسي .

● واشتهر من المحققين للكتب عدد من العلماء ، منهم :

- محمد محيي الدين عبد الحميد ، والشيخ محمود شاكر والدكتور محمد رشاد سالم ، والدكتورة عائشة عبد الرحمن ، والشيخ محمد بن قاسم (الذي صحح كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية : « بيان تلبيس الجهمية » وأكمله وعلق عليه) والشيخ محمد ناصر الدين الألباني والأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي والشيخ أحمد محمد شاكر .

- وهذه ليست إحصائية ، فهناك أسماء أخرى عديدة أسهمت بجهود مضنية في تحقيق التراث الإسلامي ، جزاهم الله جميعاً خير الجزاء .

● ويحدث في مجال تحقيق التراث مثلما يحدث في مجال التأليف والترجمة ، أعني أن الحداثيين يحققون كتب التراث التي تدعم التوجهات المنحرفة ، مثل كتب غلاة الصوفية ، وكتب الفلسفة ، والأدب الماجن ، والفكر الخارجي . فهذا هو الإفراز الصديدي « للهجين » الثقافي في كل جوانب الحياة الثقافية والعلمية .

- وكان الشيخ محمد عبده قد دعا إلى كسب المعارف الإسلامية من الينابيع الأولى للدين ، أي من الكتاب والسُّنة . وهذا يعني إغفال المصادر التراثية . وكانت غايته من وراء ذلك تجنب الخلافات التي ثارت بين الفرق الإسلامية ، وخرجت بهم عن مقاصده وبعُدت بهم عن حده[1] .

- وشرح الشيخ رشيد رضا الموقف فقال : « لَسْنا نعني ببطلان التقليد أن كل مسلم يمكن أن يكون كمالك والشافعي في استنباط الأحكام الاجتماعية في أبواب الفقه كلها ، فينبغي له ذلك ، وإنما نعني أنه يجب على كل مسلم أن يتدبر القرآن ويهتدي به بحسب طاقته »[2] . فهذا المنهج لا يحرِّم الرجوع إلى التراث والاستفادة منه ، ولكنه يعارض الاكتفاء بكتب الشيوخ المباشرين ، كما كان يصر فقهاء القرن التاسع عشر في الأزهر .

---

(١) رسالة التوحيد ؛ دار الهلال ؛ بالقاهرة ؛ ص ٤١ .

(٢) تفسير المنار ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر ؛ الجزء ٥ - العدد ٢٣ ص ٢٤١ .

● وقد استقر الأمر مؤخراً على المنهج القويم الذي يجمع بين استمداد المعرفة من الكتاب والسنة مباشرة ، مع الرجوع إلى المصادر التراثية التي تشرحهما . ذلك لأن الاكتفاء بكتب التراث يباعد بين الباحث وبين التنزيل ويحرمه من التأثر بإعجازه ؛ والاكتفاء بالاستمداد من الكتاب والسنة يحرم الباحث من جهود العلماء المسلمين على امتداد القرون ، حتى يبدو وكأنه يحاول إعادة اختراع البارود . وهل يجوز عقلاً إغفال جهود الأئمة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل في الفقه وأصوله ، والحديث وعلومه؟! إن هذا الإغفال معناه الحكم بالطفولة الأبدية على علومنا الإسلامية !

- لكن من الواجب التمييز بين الغث والثمين في تراثنا العربي الإسلامي . فهناك مصادر تراثية منحرفة وضارة بالتقدم العلمي والدعوي الإسلامي ، وقد وَجَدَت من يُعنى بتحقيقها ونشرها على أوسع نطاق ، مثل كتاب «الأغاني» للأصفهاني ، وكتاب «الفتوحات المكية» لمحيي الدين بن عربي ، ومؤلفات الغلاة من الصوفية وأتباع الفرق الإسلامية والفلاسفة والمتكلمين والشعراء المُجَّان .

الأقراص ـ أو CD ـ تزاحم المطبعة !

● وفي العصر الحالي دخلت الأقراص أو CD في منافسة شرسة مع الحرف المطبوع على الورق . وتعمل شركات ومؤسسات ضخمة على إفراغ محتويات الكتب بكل التخصصات في أقراص . ونالت العلوم الإسلامية نصيبها من اهتمام تلك المؤسسات ، والحمد لله ، ابتداءً من مستوى رياض الأطفال حتى الجامعة ، والموسوعات والمعاجم ، ولكن . . . . .

- عن طريق الحاسوب يستطيع المسلم أن يطلع على علوم دينية ، ودنيوية ، وعلى آداب وفنون كثيرة ، كما يمكن أن يتعرض للفساد والغواية في مواقع عديدة تحمل الفكر المادي المعادي للإسلام . وقد حَاوَلَتْ جهات إسلامية عديدة تشغيل مواقع إسلامية للدعوة ؛ كما أصدرت بعض الحكومات المسلمة قوانين تنظم عمل الشبكة الدولية ، وتمنع مشاهدة مواقع معينة تعرض الغواية والفساد على المسلمين ؛ فالشبكة الدولية (الإنترنت) نعمة ونقمة في آن !

الإفتاء

● ويلعب الإفتاء دوراً مهماً في نشر الإسلام الصحيح بين المسلمين . فإن الجماهير لا تكف عن السؤال عن الحلال والحرام ، خصوصاً في العصر الحديث ، حيث ظهرت أنماط جديدة من المعاملات المالية والتجارية ، ووردت مع الاستعمار الأجنبي أساليب في التفكير والتنظيم والعلاقات الاجتماعية . ويكفي أن نتذكر المعاملات الربوية التي دمرت الآلاف من التجار والمزارعين ، أو الفكرة الشعوبية التي كرَّست الانفصال السياسي بين البلاد المسلمة ، أو الدساتير التي تجسِّد النظم العلمانية في كافة مجالات الحياة ، أو تعاطي الدخان الذي وَجَدَ الفتوى بحلِّه ونُشرت صور لأحد المفتين الكبار والسيجارة في فمه !

- والحكومات في البلاد العلمانية تختار المفتين من بين العلماء ، وتحرص على أن يكونوا من المتعاونين معها . وعرف الناس هذا التوجه ، ففقدوا الثقة في المفتين ، واتجهوا إلى شيوخ يثقون فيهم ، أو إلى الكتب القديمة يبحثون فيها عن فتوى . وهكذا ظهرت الاضطرابات الفقهية ، نتيجة «للهجين» الثقافي السائد ، ووجدنا في معظم المشكلات فتوى متسقة مع السياسات العلمانية ، وأخرى مخالفة لها تتسق مع أصول الفقه الإسلامي ، واعتبر الناس أن الفتوى المتسقة مع التوجهات العلمانية خاطئة .

● وبحسب قواعد أصول الفقه ، على العوام اتباع قول المفتي ، إذا كان له حجة يستند إليها . والله تعالى يقول ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء:٣٦) ويقول ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾(البقرة:١١١) وليس بوسع العوام القيام بالاجتهاد ، لأن ذلك يصرفهم عن أعمالهم ، ويعطل الحرف والمهن الضرورية للحياة ، الأمر الذي يضطر العلماء إلى ممارستها بأنفسهم ، وترك البحث والدرس.[1] وبذلك تضطرب الحياة المهنية .

- وفي المسائل المعروفة ، والمشهورة ، لا يجد المفتي صعوبة في معرفة الفتوى والحجة التي يستند إليها ، لأنها موجودة في الكتب المعتبرة . لكن العصر

(١) أبو حامد الغزالي ؛ المستصفى ؛ ص ٥١٩ .

الحديث جَلَبَ مشكلات جديدة ، مثل أرباح المصارف الحديثة ، والهجرة إلى بلاد الكفار والإقامة بينهم ، والزواج من الكتابيات ، وبخاصة الإسرائيليات ، ونحن في حالة حرب معهم ، وحكم الفدائيين الذين يفجرون أنفسهم في الصهاينة ، وتأميم المصانع والأراضي الزراعية ، وحكم تدخين السجاير وتعاطي المخدرات ... إلخ .

● في هذه المسائل الخطيرة وغيرها لعبت الفتوى دوراً مهماً جداً ، لكنه كان لصالح الدعوة الإسلامية أحياناً ، ولصالح التيار العلماني السائد أحياناً أخرى .

- وأمامنا اليوم طريق صعب لبلوغ الثقة في الإفتاء لأن ذلك يرتبط بـ« الهجين » الثقافي ، وبهامش الحرية المتاح أمام المفتين . وقد رأينا في مصر كيف أن فتوى معارضة أطاحت بصاحبها من وظيفته ، وكيف أدت سياسة المسايرة إلى تثبيت صاحبها وترقيته إلى أسمى المراتب الدينية !

- ويصل الباحثون الأكاديميون إلى نتائج وتقريرات مستندة إلى براهين شرعية قوية ، وبذلك تعتبر فتوى ، ويجب الأخذ بها ، ويكون الباحث عندئذ مفتياً جزئياً . والاجتهاد في الجزء مشروع عند بعض المالكية وبعض الحنابلة ، والظاهرية[1] . وقد أفتى الإمام مالك ﷺ « في ست وثلاثين مسألة أو تزيد بقولـه » لا أدري « وما قال ذلك إلا لِفَقْده العلم بالدليل ، وما زال بذلك وَصْفُ الإمامة عنه .. »[2]

● وهناك الإفتاء الجماعي الذي يصدر عن المؤتمرات الإسلامية والمجالس الإسلامية . وفي اعتقادي أن هذا الإفتاء أدق من الإفتاء الفردي ، غير أن الدول المضيفة للمؤتمرات كثيراً ما تفرض رأيها على المؤتمر ، كما حدث في أثناء الحرب بين العراق وإيران .

المؤتمرات

● والمؤتمرات العلمية العربية والإسلامية والعالمية تمثل تطوراً كبيراً في الخطاب الديني . وقد يقال إن المؤتمرات العالمية التي تضم مسلمين وغير مسلمين هي فقط التي تتيح فرصة للدعوة ، وإن المؤتمرات التي يحضرها مسلمون

---

(١) أبو زهرة ؛ أصول الفقه ؛ دار الفكر العربي ؛ ص ٣٧٥ –الفقرة رقم ٣٨٦

(٢) نفسه ؛ ص ٣٧٦ –الفقرة رقم ٣٨٧ .

فقط ليست دَعَوية . وهذا غير صحيح ، لأنها تتيح الفرصة لتبادل الأفكار والخبرات في المجال العلمي الذي تنعقد لبحث بعض مشكلاته ، فتُثري حصيلة كل داعية يسهم فيها . وهي تمارس الاجتهاد الجماعي الذي يجمع الاجتهادات الفردية السليمة ، ويستبعد الاجتهادات الخاطئة ، وتلك ضمانة ضد شطحات الأفراد . وأنا أذكر أن الشيخ الشعراوي رحمه الله أفتى في برنامج تلفازي بحُرْمة نقل الأعضاء البشرية ، غير أن مؤتمرات إسلامية تالية أجازته وشرطت له الشروط .

● واليوم تواجه المسلمين ، دعاةً ومدعوين ، معضلات يصعب على العالم الفرد أن يفتي فيها ، مثل الحروب بين البلاد المسلمة ، وحكم الجنود الذين يُقتلون فيها ؛ وفي المجال الاقتصادي ظهرت معاملات وَصَفَها البعض بأنها ربَوِيَّة ، في حين أجازها آخرون . وهناك مشكلات المعاهدات مع أعداء المسلمين . وهناك زواج الكتابيات من اليهوديات ، وحزمة من المشكلات التي تواجه إخواننا من أبناء الجاليات المسلمة في العالم غير الإسلامي . والمسلم يطمئن إلى الاجتهاد الجماعي أكثر من اطمئنانه إلى فتاوى الأفراد من المفتين ، وهذا موقف سليم ومنطقي من جانب الأفراد .

● والمؤتمرات لا تسمح لأحد بحضورها إلا إذا قدم بحثاً في الموضوع المطروح، ونال تقدير لجان الفحص العلمية . وهذه البحوث تنمِّي قدرات الباحث والداعية ، وتفيد إخوانه المشاركين في المؤتمر ، وربما نُشرت بحوث المؤتمر في كتاب مفيد.

● والمؤتمرات مناسبة للتعارف بين الدعاة والعلماء والوقوف على أحوال البلاد المسلمة ، وفتح طرق المراسلة عن طريق «الشبكة» الدولية . لكن علينا أن نتذكر أن المؤتمرات المفيدة لها نُظم وشروط ؛ وبغيرها تصبح سياحة للرسميين ومجاملة لكبار الموظفين ، ولا فائدة علمية تذكر من ورائها .

* * *

الفصل العاشر

الصحافة والإذاعة

تمهيد

كان نشر الكتب الدينية المسيحية هو أول وأهم الأغراض التي استفادت من الطباعة منذ اختراعها على يدي جوتنبرج (١٣٩٨-١٤٦٨م) ؛ وحين عرفت الطباعة بحروف عربية لأول مرة ، طَبَعَ كاهن دومنيكي كتاباً وصف فيه الرحلة إلى الأماكن المقدسة المسيحية . ومنذ بداية الطباعة بالحرف العربي استغلها النصارى في بلاد الأندلس لتنصير المسلمين هناك . وهكذا سخرت الطباعة في خدمة المسيحية في الشرق والغرب .

● أما الصحافة التي عرفها العالم الحديث في القرن الثامن عشر فقد سخرت في خدمة الغزاة الفرنسيين الذين دخلوا مصر سنة ١٧٩٨م ، حيث طبعوا نشرات للجيش . وكانت تلك هي بداية الصحافة في مصر .

- وبعد طرد الفرنسيين من مصر ، وتولي محمد علي الحكم سنة ١٨٠٥م أصدر صحيفة «الوقائع المصرية» التي لا تزال تصدر إلى اليوم .

- واستُغلت الصحف منذ البداية للدعاية للمسيحية في البلاد المسلمة ، ومحاولات تنصير المسلمين . وكان المفروض بحكم الطبيعة أن يكون لذلك رد فعل من الطرف المسلم ، فتصدر صحف إسلامية للدفاع عن الإسلام وأمته وبلاده وشعوبه ، لكن ذلك لم يحدث . وعلينا أن ننتظر حتى سنة ١٨٨٣م لكي تصدر مجلة «العروة الوثقى» في باريس .

- وإذا استعرضنا أسماء المجلات والصحف التي صدرت في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وهي كثيرة جداً ، في كل البلاد المسلمة ، لم نجد من بينها مجلة أو صحيفة إسلامية . وهذا لا ينفي أن تكون تلك الصحف قد خصصت أبواباً للدين ، كما يحدث الآن في المجلات والصحف اليومية . هذا مع العلم بأن حرية إصدار الصحف كانت مَصُونة ، طالما اجتنبت الصحيفة الهجوم على الاستعمار الأجنبي ونقد السلطة الحاكمة .

● أما الآن فنحن نعلم أن ندرة الصحف والمجلات الإسلامية راجعة إلى القيود المفروضة على إصدارها . فالقوى الإسلامية تدرك أهمية الصحافة كوسيلة دعوية ، وتتمنى إصدار الصحف والمجلات ، لكنها تصطدم بغابة من القوانين واللوائح التي يصعب اجتيازها .

العروة الوثقى

● كان تأسيس «مجلة العروة الوثقى» في باريس سنة ١٨٨٣م هو أهم مظهر لنشاط جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩م-١٨٩٧م) السياسي والأدبي في باريس .

● وكان قبل ذلك يكتب مقالات في الجرائد الكبرى ، يدعو فيها إلى جلاء بريطانيا عن البلاد المسلمة . ويقول الشيخ مصطفى عبدالرازق إن «العروة الوثقى»: «أخذت من قلوب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ ، ولا تنبيه منبِّه ، وهي ذات أثر في كل ما جَدَّ بعدُ من حركات الوطنية والحرية في بلاد الشرق»[1] .

- وكان من الطبيعي أن تصادرها السلطات البريطانية الحاكمة في الهند ومصر ، وتغرِّم كل من يشتريها أو يحتفظ بها بغرامة باهظة ، حتى توقفت عن الصدور بعد ١٨٠ عدداً ، آخرها صدر في شهر ذي الحجة سنة ١٣٠١هـ[2] .

---

(١) العروة الوثقى ؛ المقدمة ؛ دار الكتاب العربي ؛ بيروت ؛ ط ٣ سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
(٢) نفسه ؛ ص ٢٥ .

● وكتب الأفغاني أيضاً في مجلة «ضياء الخافقين».

● وتنوعت المقالات والبحوث التي نشرتها «العروة الوثقى»، فعالجت مسائل دينية مثل: القضاء والقدر، والفضائل والرذائل، وامتحان الله للمؤمنين، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (الرعد:٣٣) و ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ (آل عمران:١٠٥)، ومسائل سياسية مثل: الأمة وسلطة الحاكم المستبد، الجنسية والديانة، دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان، أسباب حفظ الملك، زلزال الإنجليز في السودان. إلى جانب الأخبار السياسية الخاصة بالعالم الإسلامي ومشكلاته.

● وكانت «العروة الوثقى» تعلن عن موقفها من الخبر، وتعلق عليه. وهدفها النهائي في كل ذلك إيقاظ الأمة المسلمة وإنهاضها للخلاص من الاستعمار البريطاني بالذات، واستعادة حريتها ووحدتها وإصلاح أحوالها السياسية.

التحريض ضد المستعمرين

● وكتبت «العروة الوثقى» تحرض الشعب المصري ضد الاحتلال البريطاني فقالت: «نزاع بين رجال السياسة الإنجليزية: بعضهم يدفع الحكومة للاستيلاء على السيادة عليها ـ أي على مصر ـ، واستلام أزمَّة أحكامها. وآخرون يقولون: هذا مما يخالف أحكام الزمن، ولا تسوغه شريعة الوفاء، وإنما علينا أن نحل بها عساكرنا زمناً يكفي لقضاء ما نريده فيها، ثم نُخْليها إذا لم يوجد مُوجب يحتم البقاء... فبعض الجرائد... تعتل بالجنرال جوردون وتهون ما حل به من الفشل (في مواجهة ثورة السودان) وتتقدم إلى الحكومة الإنجليزية بطلب إنقاذه من الخطر، ولا وسيلة لخلاصه إلا إعلان الحكومة بالسيادة على البلاد المصرية.. فهذه الجرائد جعلت هذه المصالح الدولية وحقوق الدولة العثمانية، وحقوق ستة ملايين من سكان القطر المصري (هو تعداد سكان مصر في ذلك الوقت) فداء لرأس الجنرال جوردون...»[1]

(١) العروة الوثقى؛ ص ٧٧.

- وكتبت عن أثر الاستعمار البريطاني السيئ في الهند فقالت : « إذا أشرف السائر على أي بقعة من البقاع الهندية الواسعة شخص بصره ودهش لُبُّه بما يراه من آثار رعاية الله بتلك البقاع وما منحها من الخِصْب الطبيعي . . ولكنه إذا تجاوز السهول والأودية إلى المدن والقرى ضاق صدره وتفطر قلبه من مناظر سكانها . . . حُفَاة عُراة بادية سوءاتهم ، كاسفة أحوالهم ، لا يجدون رَمَقَةً من العيش . . »[1]

● وكان لابد من حظر « العروة الوثقى » وتغريم كل من تضبط عنده من المصريين ، بأمر من مجلس الوزراء المصري ، وتكليف إدارة البريد بمنع المجلة من الوصول إلى المشتركين . وعقبت « العروة الوثقى » على ذلك فقالت : « أما نحن فلا نظن أحداً من الوزراء المصريين له رأى اختياري في هذا القرار »![2]

أثر « العروة الوثقى »

● ويصف رشيد رضا أثر « العروة الوثقى » في تغيير مسار تفكيره فيقول : « كنت ـ من قبل اشتغالي بطلب العلم في طرابلس الشام ـ مشتغلاً بالعبادة ، ميالاً إلى التصوف . . . وفي أثناء هذه الحالة الغالبة عليَّ ، ظفرت يدي بنسخ من جريدة « العروة الوثقى » في أوراق والدي . فلما قرأت مقالاتها في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وإعادة مجد الإسلام وسلطانه وعزّته ، واسترداد ما ذهب من ممالكه ، وتحرير ما استعبد الأجانب من شعوبه ، أثرت في قلبي تأثيراً دخَلتُ به في طور جديد من حياتي . »

« وأهم ما انفرد به منهج « العروة الوثقى » في ذلك ثلاثة أمور :

- (أحدها) بيان سنن الله تعالى في الخلق ونظام الاجتماع البشري ، . . وأسباب ترقي الأمم وتدَنّيها ، وقوتها وضعفها ».

- (ثانيها) بيان أن الإسلام دين سيادة وسلطان ، وجمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . . . »

---

(١) العروة الوثقى ؛ ص ٣٢٤ .

(٢) نفسه ؛ ص ٣٢١ .

- (ثالثها) أن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم . . . »

● وفي حُسباني أن رشيد رضا لم يبالغ في وصف أثر «العروة الوثقى» في نفسه . وسبب محاربة بريطانيا لها إدراكها لذلك التأثير العميق ، وذلك المنهج الإعلامي الإسلامي السديد .

● وتقوم الولايات المتحدة اليوم بدور بريطانيا العظمى الاستعمارية في القرن العشرين ، فتضرب مراسلي الفضائيات العربية التي تذيع الحقائق عن أفغانستان والعراق المحتلَيْن ، ومظاهر الفشل للغزاة الأمريكيين .

● وكذلك تكشف القيود القانونية الضيقة التي أصدرتها بعض النظم في العالم الإسلامي عن أهمية الإعلام الإسلامي وخطورته على النظم العلمانية المجافية لدين الأمة المسلمة . هذا مع الاعتراف بأن الإعلام الإسلامي اليوم لا يملك مجلة في مستوى «العروة الوثقى» ؛ وسبب ذلك انحسار نطاق الحرية في كثير من بلاد المسلمين ، في حين كانت «العروة الوثقى» تتمتع بحرية واسعة .

محمد عبده

● وكانت لمحمد عبده (١٨٤٥م-١٩٠٥م) تجربته الصحافية في الدعوة . فقد عينته الحكومة الخديوية محرراً في «الوقائع المصرية» سنة ١٨٨٠م ، وقد كان يمارس الكتابة للصحف منذ عام ١٨٧٣م . وكان الهدف من وراء ذلك مَنْعُه من التدريس . وكان الشيخ يدرس في الأزهر ، واستمر في ذلك سنتين ، ثم عينوه أستاذاً بدار العلوم سنة ١٨٧٩م ، ثم فصلوه بعد أشهر معدودات .

● وفي «الوقائع» أحدث محمد عبده تحولاً كبيراً ، فصارت : «منبراً لنشر الدعوة وإعلان الشكوى ، وإسماع الحكومة ما تريد أن تسمعه ، وما لا تريد أن يُسمع بحال . وقال الشيخ محمد عبده على صفحاتها كل ما كان قائله لو تكلم في حلقات الأزهر أو على منصة التدريس بدار العلوم»[(١)] .

- نشر محمد عبده حوالي أربعين مقالاً في : انتقاد التعليم بوزارة المعارف ، وعن التربية في المدارس والمكاتب الأميرية ، وعن الرشوة ، وعن البدع التي كانت

(١) عباس محمود العقاد ؛ محمد عبده ؛ دار نهضة مصر للطبع والنشر ؛ القاهرة ؛ ص١٢٥ .

تصدر عن وزارة (نظارة) الأوقاف ، وعن تأثير التعليم في العقيدة ، وعن الشورى ، وعن اختلاف القوانين باختلاف الأمم ، وعن الملكات والعادات ، وعن تعدد الزوجات ، وعن الإسراف وضرر الديون[1].

● ومن الجلي أن محمد عبده ما كان لينشر تلك المقالات النقدية لأعمال الوزارات والإدارات الحكومية لولا سعة صدر الخديوي توفيق وحكومته ، وقد كان بوسع تلك الحكومة وقف النشر ، وعزل المحرر بعد أول مقال نقدي ، خصوصاً وأن المجلة كانت مخصصة لنشر الوقائع الرسمية . وهذه حقيقة أو لِنَقُلْ بدهية إعلامية ، فالحرية هي الشرط الضروري لازدهار الصحافة في كل زمان ومكان . والإعلام الإسلامي لن يؤدي دوره إلا في مناخ حر ، ويا حبذا لو وجد العون والرعاية من السلطات التنفيذية .

حراس البوابة الإعلامية

● لكن الحرية الصحافية تضاءلت . وظهر هذا الاصطلاح الحديث (حراس البوابة الإعلامية) الذي يطلق على الرقباء الذين يقومون بالحذف أو المنع من النشر أو الإذاعة . وهم موجودون في كل بلاد العالم العربي[2]. لكن هؤلاء الرقباء لهم معاييرهم الخاصة التي يمليها النظام السياسي ؛ وبالنسبة للدعوة ، في البلاد العلمانية لا بد أن يلتزم الدعاة بالجوانب العقدية والعبادة من الإسلام ، ولا يسمح بالحديث عن النظام السياسي والاقتصادي الإسلامي ، ومقارنته بالنظم الاشتراكية والرأسمالية ، كما لا يسمح لهم بالإشارة إلى ضروب الانحرافات عن مبادئ الشريعة .

- وفي العالم العربي حدث أن أذيعت أكاذيب كبرى ! ولذلك فقد الإعلام العربي ثقة الجماهير ، ودفعهم ذلك إلى الاستماع إلى الـ B.B.C. وصوت أمريكا ومونت كارلو . ولا تزال الثقة مفقودة لدى الجماهير المسلمة في البلاد العربية بدرجات متفاوتة . وتلك مشكلة عويصة ، ولها تأثيرها السلبي على الدعوة الإسلامية .

---

(١) عباس محمود العقاد ؛ محمد عبده ؛ دار نهضة مصر للطبع والنشر ؛ القاهرة ؛ ص١٢٥ .
(٢) الاتصال ونظرياته المعاصرة ؛ ص ١٧٦ .

- لذلك يتحتم على الدعاة أن يفعلوا أقصى ما في وسعهم لكي يفوزوا بثقة الجماهير ، وأن يبتعدوا عن كل ما من شأنه أن يهز تلك الثقة . ويجب أن يقاوموا الغواية والإغراء . وعلى حراس البوابات الإعلامية أن يخففوا القيود على الصحافيين المخلصين ، وإلا فإن التشديد والتضييق والقمع لا نتيجة له إلا إحباط الجهود الإعلامية وفقدان مصداقيتها .

أثر الإعلان

● وإلى جانب «الحراس» تضغط الحكومات على المجلات والصحف عن طريق الإعلانات ، فتعطي وتحرم بحسب مدى مسايرة المجلة أو الصحيفة لتوجهات السلطة . وإزاء هذا الوضع اضطرت الأغلبية إلى اتخاذ طريق المسايرة . وبرعت أجيال من الصحافيين والكتاب في «نظرية المسايرة» وتطبيقاتها ، في أبواب مخصصة للدين ، أو مجلات وصحف أسبوعية تحمل أسماء إسلامية . والمذهب المقبول عند العلمانيين هو : الاجتزاء من الإسلام ؛ أي قبول بعضه ورد بعضه . وهكذا ضمرت الصحف الإسلامية التي أصرت على أخذ الإسلام في كماله وتمامه ، وصُودر بعضها ، وأُغلق بعضها ، وأُصيب بعضها بالهزال الشديد . وليس من اليسير الحصول على ترخيص لإصدار مجلة أو جريدة إسلامية . وكان لهذه الأوضاع أثر سلبي ضار على المجتمعات المسلمة ، حيث اتجه الناس إلى مصادر غير رسمية وغير موثوقة للحصول على الحقائق . وظهرت فجوة واسعة عميقة فَصَلَت الشعوب عن السلطات . وذاعت الشائعات والشكوك وعدم الثقة في الرسميين من الصحافيين والكُتاب الذين لَقَّبهم البعض بـ«أبواق» السلطة ، وبغير ذلك من الألقاب المُهينة .

وفي ضوء هذه الحقائق تظهر معالم التطوير المنشود . وأول تلك المعالم ضمان الحرية للإعلام الإسلامي الملتزم ، فلا قيود على إصدار الصحف ، ولا قيود على تحريرها إلا ما تمليه الضوابط الشرعية ومصالح الوطن العليا . هذه هي الغاية التي يجب تحقيقها . وبذلك تزدهر الدعوة الإسلامية وتهيمن الثقافة الإسلامية ، وتنهزم الدعوات المضادة للإسلام . وفي هذا كله خير كثير للحكام والمحكومين .

● وقد اشتغل الأستاذ المودودي بالصحافة ، واكتسب خبرة جيدة ، ثم أصدر مجلته « ترجمان القرآن» سنة ١٩٣٢م التي كانت حجر الزاوية في دعوته[1].

- وأصدرت الجماعة الإسلامية التي أسسها المودودي سنة ١٩٤١م ، تسع صحف ومجلات ، منها واحدة بالإنجليزية ، وأخرى تختص بالطلبة والطالبات ، ومنها ترجمان القرآن[2].

الصحافة الإسلامية اليوم

● واليوم يصدر عدد محدود من المجلات والصحف الإسلامية ، أذكر منها :

١- مجلة الفكر الإسلامي ، لبنانية (شهرية)

٢- مجلة المجتمع ، كويتية (أسبوعية)

٣- مجلة الدعوة ، سعودية (أسبوعية)

٤- مجلة الأزهر ، مصرية (شهرية)

٥- مجلة المختار ، مصرية (شهرية)

٦- مجلة المنار الجديد ، مصرية (فصلية)

٧- مجلة الوعي الإسلامي ، إماراتية (شهرية)

٨- مجلة الإصلاح ، إماراتية (شهرية)

٩- جريدة عقيدتي ، مصرية (أسبوعية) [3]

● وباستثناء أربع إصدارات منها ، يغلب على تحريرها الطابع الرسمي ، والوعظ التحريري ، والأخبار المتصلة بالشئون الإسلامية الرسمية .

● وهناك صفحات للفكر الديني تصدر أسبوعياً ضمن الصحف اليومية . وهناك أبواب الدين في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية .

---

(١) فاروق عبدالغني الصاوي ؛ فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودي ؛ ص ١٨٣ .

(٢) نفسه ؛ ص ١٨٦ .

(٣) من المؤكد أن هناك صحفاً ومجلات أخرى لم تتيسر لي معرفتها .

● وبهذا يصبح مستقبل الخريجين من أقسام الإعلام في كليات الدعوة صعباً ، فالمجلة الشهرية لا تتسع لأكثر من عشرة أفراد ، وربما أقل . والجريدة الأسبوعية قد تستوعب عشرين فرداً . وأما المجلة الفصلية فقد لا تحتاج لأكثر من خمسة أفراد .

- فأين يذهب الخريجون الذين يبلغون المئات كل عام؟

- أغلب الظن أنهم سيضطرون إلى العمل في الإعلام العلماني ، وإعادة تأهيل أنفسهم لينسجموا مع توجهاته . وبعضهم لن يعمل في الصحافة ، وسيضطر إلى العمل في مهن أخرى ، كل بحسب ظروفه . والحل الوحيد هو تحرير الصحف من ترسانة القوانين التي حالت دون إصدار صحف إسلامية جديدة ، وأدت إلى احتجاب ما كان يصدر منها ، مثل مجلة «الاعتصام» المصرية التي توقفت بعد وفاة صاحب امتيازها بحكم القانون .

● وعلاجاً لندرة الصحف الإسلامية يقترح البعض الاتصال بالصحف برسائل يكتبها القراء المسلمون القادرون على الحوار مع المحررين ، ولفت أنظارهم إلى ما قد يكون فاتهم من حقائق الإسلام ، دون أن يوقعوا على الرسائل . والغرض من وراء ذلك منع الحرج والحساسية من الأسماء التي لابد أن تتكرر ، أو تكون لدعاة مسلمين معروفين[١] .

---

(١) ولا يمكن الحكم على مدى فعالية هذه الرسائل . وأنا شخصياً كتبت بعض الرسائل إلى بعض الكتاب لتصحيح بعض الأخطاء ، ولم أوقع على رسائلي . وكان كاتب مشهور قد أنكر عقيدة القضاء والقدر ، على الرغم من أنه محسوب على التيارات الإسلامية ، فلم أستطع أن أسكت على ذلك . ولم يشر في مقالاته التالية إلى التصحيح الذي أرسلته ولم يناقشه . ودخل أحد الكتاب في جدال مع قس نصراني ، ولم يستطع الرد على ادعاءاته ، فكتبت إليه رسالة تعينه على الرد ، ولم يشر إليها بعد ذلك ولم يواصل الجدال مع القسيس الذي خرج منتصراً أمام القراء . ويرفض العلمانيون نشر النقد الذي يوجه إلى آرائهم ، مما يسبب الإحباط للناقد المسلم . وكثيراً ما حدث لي ذلك .

● ولقد اخترعت الإذاعة في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٢٠ ، ثم انتشرت في العالم أجمع . وفي سنة ١٩٣٤ أنشأت شركة «ماركوني» أول محطة إذاعة في مصر ، ثم استولت عليها الحكومة سنة ١٩٤٧ . وانتشرت محطات الإذاعة في العالم العربي والإسلامي بعد ذلك ، وتعددت المحطات في الدولة الواحدة ، وتخصصت ، فواحدة لإذاعة القرآن الكريم ، وأخرى للرياضة ، وثالثة للموسيقى . . . . إلخ .

– وتمتاز الإذاعة - إذا قُورنت بالصحافة - بأنها تتخطى حواجز الأمية والفقر ، وتعْبر حدود الدول والقارات . ولهذا وجدناها تُتخذ وسيلة لتأليب الشعوب ضد حكامها ، حتى صارت وسيلة دولية للمهاترات السياسية والأيديولوجية في فترة الحرب الباردة بين الشرق والغرب .

– وعانت الإذاعة في العالم العربي من احتكار النظم ، فلم يُسمح للشركات والأحزاب والجمعيات الأهلية باستعمالها ، بعكس الصحافة . وكان ذلك الاحتكار وما أدَّى إليه من دعاية كثيفة فجة للنظم العسكرية، سبباً في صرف الجماهير عنها ، واتجاه نسبة هائلة منهم إلى الإذاعات الأجنبية ، وخصوصاً الإذاعة البريطانية الـ (B.B.C) . وبمرور الزمن ، واستباحة الكذب ، فقدت محطات عربية عديدة ثقة الجماهير ، وصارت الـ (B.B.C) تُسمع في البيوت والنوادي والسيارات والمكاتب . فعند حلول موعد الأخبار تتحول مؤشرات الأجهزة إليها ، ليعرف المواطن العربي أخبار بلاده وأسرار حكوماتها ، والتعقيب على أحداثها وتفسيرها .

● وكانت تلك هي أكبر خسارة للإذاعات العربية .

● وخضعت الإذاعات العربية لإملاء «الهجين» الثقافي السائد ؛ فقدمت العناصر العلمانية والعناصر الإسلامية في برامجها ، مع غلبة العناصر العلمانية ، كماً وكيفاً ، ومحدودية العناصر الإسلامية ضمن نظام «الاجتزاء» من الإسلام ، فوقفت أحاديث الشيوخ عند حدود العقائد والعبادات ، ولم يُسمح لها بأن تتناول السياسة والاقتصاد والاجتماع .

● وعانت الإذاعات العربية والإسلامية من ظاهرة «التهادُم» المتبادل . فالحديث الديني الذي يستغرق عشر دقائق تتبعه أغانٍ ، تستغرق ساعة أو أكثر ، ثم تتبع الأغاني برامج حوارية مختلفة ، تمحو أثر الموعظة التي ربما تكون قد خالطت مشاعر المستمع .

ثم جاء التلفاز في الستينيات من القرن العشرين ليجذب إليه جماهير المشاهدين ، وتتراجع الإذاعات شيئاً فشيئاً ، مع انتشار أجهزة التلفاز ؛ وأخيراً تأتي القنوات الفضائية والشبكة الدولية لكي تسحب البساط من تحت أقدام الإذاعات ، اللهم إلا تلك التي أحرزت ثقة المستمعين ، ولم يجربوا عليها كذباً .

وكان المأمول من إذاعات القرآن الكريم المتخصصة أن تقوم بدور أكثر فعالية في الدعوة ، لكنها خضعت «للهجين» السائد ، والتزمت بالاجتزاء ، والترويج للنظام العلماني السائد ، وإفساح المجال للتيار الصوفي ورجاله وشيوخه وأوليائه وموالده وأذكاره ، مما أدَّى إلى ضعف تأثيرها الدعوي ، والانحراف به نحو التصوف .

ومن الجلي أن إصلاح الإذاعات العربية لكي تقوم بدورها في تطوير الخطاب الديني ، يتطلب التخلص من «الهجين» السائد ، والأخذ بالإسلام في كماله وشموله . وقد أشرتُ من قبل إلى أن هذا يقتضي عملاً سياسياً طويل الأمد من خلال المجالس النيابية الشرعية . وربما استطاعت «الهيئة الإسلامية العالمية للإعلام» الإسهام في تنشيط الدعوة عَبْرَ الصحافة والإذاعة في عالمنا العربي والإسلامي . وقد عقدت الهيئة الملتقى الدولي الأول للمؤسسات الإعلامية في مدينة جدة في الفترة من ١٦ إلى ١٨ محرم سنة ١٤٢٥هـ غير أن البيان الختامي لم يبيِّن كيف يمكن أن يتم ذلك .

* * *

الفصل الحادي عشر

الاتصالات المباشرة

الاتصالات الشخصية

يذكر ابن هشام أن أبا بكر الصديق ﷺ هو الذي دعا عثمان بن عفان والزبير ابن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله ، إلى الإسلام ، وأنهم استجابوا لدعوته : «فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلموا وصلوا»[1].

● ومن الجلي أن الصديق استند إلى الثقة الكبيرة التي كان يتمتع بها بين الناس ، فأثمر الاتصال الشخصي ذلك النجاح الدعوي الباهر . وهذه حقيقة يؤكدها علم الاتصال الحديث ، فيقول «ألكسيس تان» إن «الثقة العظيمة في المصدر ـ وهو هنا الداعية ـ تؤدي إلى : «تغيير فوري لدى المتلقي أسرع من الاستجابة للمصادر ذات الثقة المنخفضة»[2]. وهذه بدهية يلمسها الدعاة والناس العاديون . وهذه الحقيقة ، أو البدهية الدعوية ، يجب أن تكون نصب أعيننا في اتصالاتنا الشخصية بالآخرين . وفي حالة تدني مستوى الثقة ، أو غيابها ، لن يكون من حق الداعية أن يأمل في استجابة إيجابية له .

- فيجب على الدعاة أن يهتموا بالاتصالات الشخصية ، وأن يحافظوا على ثقة المدعوين بهم ، وقد بينت الإحصاءات أن المهتدين إلى الإسلام في الغرب إنما اهتدوا بسبب اتصالهم بأفراد مسلمين صالحين . ففي الاتصال الشخصي يقف

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٢٥٢ .

(٢) دكتور حسن عماد مكاوي ؛ الاتصال ونظرياته المعاصرة ؛ ص ٥٤ .

الداعية والمدعوين وجهاً لوجه ، وفي ذلك الموقف تعمل الحواس الخمس لدى الطرفين ، ومن ثم يقع التفاعل بينهما ، وعلى نحو إيجابي غالباً . وبالاتصال الحكيم المخطط ، يمكن أن تتكون العلاقات والصداقات . ويستطيع الداعية أن يعرف مباشرة تأثير رسالته ، ومن ثم إجراء التعديلات اللازمة لتحقيق الغاية المرجوة[1].

● لكن أبابكر الصديق كان استثناءً فريداً في سرعة استجابته لدعوة النبي ﷺ له للإسلام . ومرد ذلك إلى الثقة المطلقة التي كان يضعها في كل كلمة يقولها النبي . أما الآخرون فكانوا يترددون ويفكرون قبل الاستجابة . ولا بد أن يعرف الدعاة أن ذلك من طبيعة الاتصالات الشخصية . ويقول النبي ﷺ في ذلك : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كَبْوَة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، عَكَم عنه حين ذَكَرْتُه له ، وما تردد فيه »[2].

- إذن الدعوة بالاتصال الشخصي تحتاج إلى تمتع الداعية بثقة من يدعوهم ؛ ويجب أن ينتبه الداعية إلى أن هناك فروقاً فردية في ثقة المدعوين به . ولهذا يحتاج الداعية إلى « فقه الحال » ـ أعني تقدير مدى ثقة الأفراد به ؛ ولا يجب أن يدهش من سرعة استجابة فرد ، أو بطء استجابة آخر .

● ونحن لا نجانب الصواب إن قلنا إن « مصعب بن عمير » ﷺ كان أول الدعاة بالاتصال الشخصي في المدينة المنورة . فعند انصراف النبي ﷺ بُعَيْد العقبة الأولى بعث مصعب بن عمير مع الأنصار العائدين إلى يثرب : « وأمَرَه أن يُقرِئهم القرآن ويعلِّمهم الإسلام ويفقههم في الدين »[3].

ونزل مصعب عند أسعد بن زُرَارَة ﷺ . وقد وَفَّق الله تعالى ذلك الداعية الرائد في إدخال زعيمين كبيرين في الإسلام هما : سعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حُضَيْر .

---

(١) دكتور حسن عماد مكاوي ؛ الاتصال ونظرياته المعاصرة ؛ ص ٥٤ .
(٢) السيرة النبوية ؛ جـ١ ص ٢٥٢ .
(٣) نفسه ؛ جـ١ ص ٤٣٤-٤٣٧ .

وكان مصعب بصحبة أسعد بن زُرَارَة حين التقى بالزعيمين الكبيرين الواحد تلو الآخر. ولا يذكر ابن هشام تفاصيل اللقاء. فقد تكلم مصعب وقرأ شيئاً من القرآن؛ فَأسْلَم سعد بن معاذ. وتكرر الموقف مع أُسَيْد بن حُضَيْر. غير أن لنا أن نتخيل أن الداعية الرائد ذَكَّر الزعيميْن بسُخْف الشرك وعبادة الأصنام التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وبأن من غير المعقول أن يصنع الناس أصنامهم من الحجارة ثم يعبدونها! ولابد أنه شرح لهم الدين الجديد، وعقيدة «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وربما تطرق إلى بعض المبادئ العامة الرائعة للإسلام.

● وكان بعث مصعب بن عمير سُنَّة في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ ولقد أرسل عمرو بن العاص والي مصر البعوث إلى «برقة» من أجل الدعوة إلى الإسلام، والاتصال بالسكان والتعرف على المنطقة[1]. وسار على هذه السنة الصحابة والتابعون، والقادة العسكريون والعلماء، وكانت النتائج: اندماج السكان في العرب، ومشاركتهم في الجندية وممارسة كل الحقوق، كسائر العرب، دون تفرقة أو تمييز[2]. «فعقبة بن نافع ضرب أروع الأمثلة في الدعوة إلى الإسلام والتبشير به بين قبائل: البتر والبرانس، ولواته، وزواغة، ونفوسة، وهوارة، وزناتة. ولقد ظهر حماسه الديني وهدفه التعليمي والتثقيفي في الدعاء الذي دعَا به عندما باشر جنده ومساعدوه عملية تنظيف المكان لإقامة قاعدة الإسلام الأولى في إفريقية، وهي القيروان: «اللهم املأها بالمؤمنين، وعمِّرها بالمطيعين لك والعابدين، واجعلها عزاً لدينك، وذلاً لمن كفر بك، وأعز بها الإسلام»[3].

- وصارت مدينة طنجة مركزاً لتعليم الإسلام لغير المسلمين والعربية لغير العرب. ونحن اليوم نرى النجاحات التي تحرزها الاتصالات الشخصية. لكن هذا لا يجب أن يحجب عنا حالات الإخفاق التي لا مفر منها. فلو أن أي داعية

---

(١) دكتور رشيد بو رديبة (وآخرون)؛ الجزائر في التاريخ نشر المؤسسة الوطنية للكتاب؛ بالجزائر - جـ٣ - ص ١٥، ١٦.
(٢) نفسه؛ ص ٢٧.
(٣) نفسه؛ ص ٢٩.

اصطنع منهج «مصعب بن عمير» فإنه سينجح أحياناً ويخفق أحياناً . وقد حقق الداعية «مصعب» نجاحاً واسعاً في المدينة (يثرب) ولكن بقيت أربع قبائل على شركها ، هم : دار بني أمية بن زيد ، وخَطمة ، ووائل ، وواقف . وذلك بتأثير قائدهم الشاعر أبو قيس بن الأسلت[1] . ووراء النجاح والإخفاق عوامل عديدة ، في منهج الداعية ، وفي أحوال المخاطبين . وعلى الداعية أن يستوثق من سلامة منهجه ، وصحة معارفه ، وأن يحسن اختيار الوقت المناسب للعمل ، واللغة القادرة على الإقناع ، ويتذكر دائماً أن الهُدى بيد الله وحده ﷻ ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (فاطر:٨).

حصانة ضد الإحباط

● إن النجاح والإخفاق يرتبطان بالداعية والمدعوين معاً . وقد علمنا رسول الله ﷺ تفاوت حالاتهم ، فقال : «مثل ما بعثني الله به من الهدَى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نَقِيةٌ قبلت الماء ، فَأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجَادِبُ أمْسَكَتِ الماء فنَفَعَ اللهُ بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قِيعَانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً . فذلك مثل من فَقِهَ في دين الله ، ونَفَعَهُ ما بعثني اللهُ به ، فعَلِمَ وعَلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدَى اللهِ الذي أرسلْتُ به»[2].

– هذا الحديث الشريف يحصِّن الدعاة ضد الإحباط ، فهو يذكرهم بتفاوت مستوى المدعوين ، وتبعاً لذلك تفاوت درجة القبول . فربما ظن الدعاة أن عدم القبول راجع إلى تقصير منهم أو عيب في وسائلهم ، فتهبط هممهم . والحقيقة غير ذلك ، أعني أن التقصير قد يكون من جانب المدعوين .

● وعلوم الاتصال الحديثة تفيدنا في ممارسة الاتصالات من أجل الدعوة . فالاتصال يتم بعناصر أساسية ، وعلى الداعية أن يميز بينها وأن يحسن استغلالها .

---

(١) ابن هشام ؛ السيرة النبوية ؛ جـ١ ص ٤٣٤-٤٣٧ .

(٢) فتح الباري ؛ كتاب العلم ٢ باب – رقم ٧٩ .

فهناك : (١) مُرْسِل (٢) ورسالة (٣) ووسيلة (٤) ومستقبلين ، (٥) وتأثير يراد إحداثه (٦) وغاية قصوى يراد بلوغها[1].

وعلى الداعية أن يكون على وعي بهذه العناصر لكيلا يضطرب أو يتناقض ، أو يخلط . فالمُرْسِل هو الداعية ، والرسالة هي الإسلام ، والوسيلة ـ هنا ـ هي الاتصال المباشر ، والمستقبلين جماعة من المسلمين أو من غيرهم ، والتأثير المراد هو تعبيد العباد لخالقهم أو جذب عصاة المسلمين إلى طاعة الله ، وإقناع غير المسلمين بصحة الإسلام ، وغاية قُصوى هي الفوز بمرضاة الله وثوابه في الدنيا والآخرة .

اتصالات النبي ﷺ بالأنصار

● وقد كانت دعوة النبي ﷺ للأنصار ـ أولاً ـ عن طريق الاتصال الشخصي .

- فيذكر محمد بن سعد في طبقاته أن : «أول من أسلم من الأنصار أسعد ابن زرارة وذكوان بن عبد قيس ، خرجا إلى مكة يتنافران إلى عتبة بن ربيعة ، فقال لهما : قد شغلنا هذا المصلِّي عن كل شيء ، يزعم أنه رسول الله».

«قال : وكان أسعد بن زرارة وأبو الهيثم بن التَّيهان متكلمين بالتوحيد . فقال ذكوان بن عبد قيس لأسعد بن زرارة حين سمع كلام عتبة : دونك هذا دينك . فقاما إلى رسول الله ﷺ ، فعرض عليهما الإسلام ، فأسلما ، ثم رجعا إلى المدينة ، فلقي أسعد أبا الهيثم بن التيهان فأخبره بإسلامه ، وذكر له قول رسول الله ﷺ ، وما دعا إليه ، فقال أبو الهيثم : فأنا أشهد معك أنه رسول الله ، وأسلم»[2].

● ومن المؤكد أن النبي ﷺ قد شرح للرجلين عقيدة التوحيد ، وقرأ عليهما آيات من القرآن الكريم ، أسَرَت قلبيْهما . فهذا ما تشير إليه باقتضاب عبارة «فعرض عليهما الإسلام» التي وردت ضمن الخبر .

---

(١) دكتور حسن عماد مكاوي ؛ ودكتور ليلى حسين السيد ؛ الاتصال ونظرياته المعاصرة ؛ ص٣٨،٣٩ (بتصرف)

(٢) الطبقات الكبرى ؛ لابن سعد ؛ تحقيق د . حمزة النشرتي وآخرين ؛ المكتبة القيمة (دون تاريخ) ؛ جـ ١ ص ٣٠٤ .

- وتكرر الاتصال الشخصي مرة أخرى بين النبي ﷺ وبين جماعة أخرى من يثرب في « مِنَى » ، منهم معاذ بن عفراء وأسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك . وتكرر نجاح الداعية العظيم[1].

● وحاول نفر من مشركي قريش رد النصارى الذين أسلموا إلى النصرانية . فيذكر ابن هشام أن حوالي عشرين رجلاً من النصارى أسلموا على يدي رسول الله ﷺ في المسجد بمكة ، فقابلهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم : « خَيَّبكم الله من رَكْبٍ ! بَعَثَكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لِتَأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مَجَالِسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدَّقتموه بما قال ! ؟ ما نعلم رَكْباً أحمق منكم ! فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه . لم نَأْلُ أنفسَنا خيراً »[2].

● فالاتصال الشخصي منهج أصيل وسُنَّة محمدية . وقد حدثت تطورات كبيرة في وسائل الاتصال بعد اختراع البواخر والسيارات والطائرات ، والهاتف ، وأخيراً الشبكة الدولية ، وما يسمى chat rooms ، وبعد الاختلاط الواسع بين المسلمين وغير المسلمين في العالم أجمع ، وظهور الأقليات المسلمة في معظم دول العالم ، ووجود جاليات غير مسلمة في بلادنا المسلمة .

● فهذه التطورات الهائلة يسرت الاتصال بين الناس ، وأتاحت للدعاة فرصاً ثمينة لتطوير خطابهم الديني لاكتساب مهتدين جُدُداً . والإحصاءات تدل عل انتشار الإسلام في الغرب ، وبين الطبقات المثقفة على وجه الخصوص . وقد أكد الأستاذ خالد عوض رئيس مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية أن أعداد الأمريكيين المهتدين إلى الإسلام قد تضاعفت أربع مرات بعد حادثة ٢٠٠١/٩/١١ وما أطلقته من حملات محمومة ضد الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام . وتشير الأرقام المنشورة إلى أن عدد المهتدين إلى الإسلام قد بلغ ٢٤ ألف شخص ، وهو رقم قياسي إذا قورن بالأرقام الخاصة بالسنوات السابقة على ٢٠٠١/٩/١١ .[3]

---

(١) الطبقات الكبرى ؛ لابن سعد ؛ ص ٣٠٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٣٩٢ .

(٣) راجع كتابي ؛ مرض كراهية الإسلام ؛ ص ٥٠ .

● لكن الاتصالات الشخصية كان لها سلبياتها على المسلمين . فهناك أعداد كبيرة من أبناء المسلمين الذين «تغربوا» بتأثير الدعوات المضادة والاتصال الشخصي بغير المسلمين . وفي إفريقية وآسيا نجح التنصير في إغراء بعض فقراء المسلمين على اعتناق المسيحية . وفي الولايات المتحدة وأوربا أدَّى الاختلاط الكثيف إلى إخراج أعداد من أبناء المهاجرين المسلمين من دينهم . واستحلت بعض النساء المنحدرات من آباء مسلمين الزواج من النصارى واليهود .

- فهذه الظواهر تلقي على عاتق الدعاة أعباء جسيمة . وأعتقد أن المواجهة تحتاج إلى إنشاء مؤسسات إسلامية للدعوة عن طريق الإعلام ، والقنوات الفضائية ، والكتب ، والمراكز الإسلامية . والمسلمون في كل بلد قادرون على اقتراح الوسائل التي تناسب ظروف بلادهم . وأموال الزكاة كفيلة بالوفاء بمتطلبات هذه المشروعات . وهكذا نتقدم في تطوير الخطاب الديني .

● ومن البدهي أن كل وسيلة دعوية يمكن أن تستخدم ضد الدعوة . فهذه هي طبيعة الوسائل . ولقد حاولت شركة أمريكية استخدام الاتصالات عن طريق «الإنترنت» للتشكيك في القرآن الكريم . فنحن نعلم أن القرآن الكريم تحدى مشركي مكة البلغاء ، وقال لهم ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٣،٢٤)

- ولم يأت أحدٌ بسورة من مثله ، رغم محاولات بعضهم . من ذلك مثلاً كلام مسيلمة الكذاب المسجوع ، المثير للسخرية .

● وجددت شركة أمريكية اسمها America on line المحاولات عن طريق الإنترنت لتجنيد كُتَّاب العالم كله ـ بالدولارات الغزيرة ! ـ لتأليف سورة مثل سور القرآن . والغاية من وراء ذلك تشكيك المسلمين في صدق القرآن الكريم . وتلقت الشركة كلاماً كثيراً زعم كاتبوه أنه مثل سور القرآن . وكان مضمونه في الأغلب كلام مسجوع يسب المسلمين .

● ولم تفطن الشركة إلى عواقب الفشل في محاولاتها ، فإنه يؤكد صدق القرآن الكريم ، إذْ لم يستطع أحد أن يؤلف «سورة !» تشبه أقصر سورة في القرآن الكريم . ولم يتشكك المسلمون في صدق كتابهم ، بل ازدادوا إيماناً به واحتقاراً لتلك الشركة وكُتابها المزعومين . وزاد عدد المهتدين الأمريكيين الذين اعتنقوا الإسلام بعد كارثة ٢٠٠١/٩/١١ . لأن كثرة الهجمات على الإسلام دفعت كثيرين منهم إلى شراء كتب إسلامية ، وترجمة معاني القرآن إلى لغتهم ، فجذبهم الإسلام ، دين التوحيد المنزه ، ودين العدل والمساواة ، ودين الإيثار ، إلى الدخول فيه . فهذه تغييرات إيجابية في أحوال المسلمين في خارج عالمنا الإسلامي .

● ومن المؤكد أن الخطاب الديني بالكتابة والتأليف والترجمة كان هو القنطرة التي عَبَرَ عليها الإسلام إلى قلوب الآلاف من الغربيين .

الرسائل الشخصية

● واستعمل رسول الله ﷺ الرسائل الشخصية في الدعوة إلى الله :

- فأرسل كتاباً إلى قيصر ملك الروم ، حمله إليه دِحْيَة بن خليفة الكلبي .

- وأرسل كتاباً إلى كِسْرى ملك فارس ، حمله إليه عبدالله بن حُذافة السَّهمي .

- وأرسل كتاباً إلى النجاشي ملك الحبشة ، حمله إليه عمرو بن أمية الضَّمري .

- وأرسل كتاباً إلى المُقَوْقِس كبير القبط في مصر ، حمله إليه حاطب بن أبي بَلْتَعَة .

- وأرسل كتاباً إلى جَيْفر وعَبَّاد ابْنَيْ الجُلُندي الأزْدِيِّين مَلِكَيْ عُمان .

- وأرسل كتاباً إلى ثُمامة بن أُثال ، وهَوْذَة بن علي الحنفِيَّيْن مَلِكَيْ اليمامة .

- وأرسل كتاباً إلى المنذر بن سَاوَي العَبْدي ملك البحرين ، حمله إليه العلاء ابن الحَضْرَميّ .

- وأرسل كتاباً إلى الحارث بن أبي شُمَر الغَسَّاني ، ملك تخوم الشام ، حمله إليه شجاع بن وهب الأسدي .

- وأرسل كتاباً إلى الحارث بن عبد كُلال الحِمْيَري ، ملك اليمن ، حمله إليه المهاجر بن أبي أمية المخزومي[١] .

● ولا يذكر المؤرخون [٢] أن أياً من أولئك الملوك الكبار قد أسلم . حقاً تسلَّم بعضهم كتاب النبي ﷺ باحترام وتقدير ؛ أما الذين أسلموا فهم : النجاشي ، والمنذر بن ساوَى ، وجيفر وعباد ابني الجلندي[٣] .

● لكن ابن القيم يقول إن النجاشي الذي آمن بالنبي ﷺ ، وأكرم أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة ، والذي صلى عليه النبي ، هو نجاشي آخر غير الذي أرسل إليه رسالته يدعوه فيها إلى الإسلام[٤] . وهذا الكلام معقول ومنطقي ، لأنه إذا كان النجاشي قد آمن ، فكيف يدعوه النبي إلى الإسلام؟

● والنتائج غير الإيجابية لرسائل النبي ﷺ تؤكد ما تعلمناه من كتاب الله تعالى ومن سنة نبينا عليه الصلاة والسلام ، وأعني بذلك أن الهداية بيد الله تعالى ، لا بيد الدعاة . فعلينا أن نبذل أقصى جهدنا ، وندع النتائج لله وحده .

● واليوم تزدهر الرسائل الشخصية عن طريق «الشبكة الدولية» ؛ وتثبت أنها وسيلة فعالة في نشر الدعوة (والدعوة المضادة بطبيعة الحال) . وقد نشرت الصحف قصة الأسرة اليهودية الأمريكية التي هاجرت إلى الكيان الصهيوني ، والتحق الأب يوسف كوهين بحزب «شاس» العنصري . وانخرطت الأسرة في الحياة الاجتماعية ثم تصادف أن التقى عبر «الإنترنت» في ما يسمى chat rooms بعالم مسلم من الدول الخليجية ، وتحاورا في الدين ، وانتهت المحاورة باعتناق «كوهين» للإسلام ، واتخاذ اسم «يوسف خطاب» بدلاً من كوهين . ثم لم تلبث أن تبعته زوجته[٥] .

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ ٦٠٧/٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ؛ زاد المعاد ؛ حياة محمد ؛ لهيكل .

(٣) أبو الحسن الندوي ؛ السيرة النبوية ؛ دار الشروق ؛ ط ٥ ؛ سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ؛ ص ٢٦٥ .

(٤) زاد المعاد في هدى خير العباد ؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ؛ سنة ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م ؛ جـ٣ ص ٧٢ .

(٥) نشرت أولاً في صحيفة «بديعوت أحرونوت» الصهيونية .

●فالرسائل الشخصية لها أصل في السُّنة المطهرة ؛ وعلينا اليوم أن نستغلها بتدريب الدعاة عليها ، وتزويدهم بالأجهزة ، بل يجب أن تكون لدينا مؤسسة إسلامية كبيرة منظمة ترعى هذه الوسيلة الدعوية وتمولها وتزودها بكل ما تحتاج إليه . فبهذا نضمن أن تكون الرسائل علمية ، وعقلانية ، يبلغها دعاة مدرَّبون على مستوى رفيع . وكل مسلم يريد أن يستعمل «الشبكة» للدعوة يجب أن يحصل على تدريب يؤهله لذلك .

- وبهذه المؤسسة نواجه الدعوة المضادة عَبْر الشبكة أيضاً ، بدلاً من الرد في جريدة أو مجلة ، لا توصل الحقائق لمن تلقوا الأباطيل[1].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحديات الحديثة

● هذه وسيلة فعالة في الدعوة إلى طاعة الله . وقد فرضها الله تعالى في عدة آيات قرآنية ، فقال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٤).

- ومن البدهي أن يُوكَل الأمر إلى فئة أو جماعة تتخصص في القيام بهذا الواجب ، وبالدعوة إلى الخير . ولا بد من إعداد هذه الجماعة وتنظيمها للنهوض بهذه الواجبات . فالداعي إلى الخير يجب أن يعرفه ، ويعرف سنده الشرعي ، وطريقة الدعوة إليه ، والمنهج الذي يجب أن يتبعه ، وهو منهج الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن : «فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه ، رفيقاً فيما يأمر به ، رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى عنه»[2].

● وقد وَصَفَ اللهُ تعالى الأمة المسلمة فقال جلَّ ذِكره ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾(آل عمران:١١٠)

---

(١) هذه الطريقة الخاطئة تمارس في شهر رمضان المبارك سنة ١٤٢٤هـ للرد على الدعوة المضادة .
(٢) الحسبة في الإسلام ؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية ؛ ص ٧٢ ، ٧٣ .

وجاء في تفسير هذه الآية أن الأمة الخيرة المقصودة هم أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم الذين هاجروا معه[1]. وهذا لا يمنع أن يُوصف أتباع رسول الله في كل العصور بهذه الخيرية إذا هم أمَرُوا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر . وهم يفقدون هذه الخيرية إذا هم تقاعسوا عن النهوض بهذا الواجب الدعوي العظيم .

● وقد فسر الطبري رحمه الله « المعروف » و« المنكر » فقال :« وأصل المعروف كل ما كان معروفاً فعله ، جميلاً مستحسناً ، غير مستقبح في أهل الإيمان بالله . وإنما سُمِّيت طاعة الله « معروفاً » لأنها مما يعرفه أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله . وأصل المنكر ما أنكره الله ، ورأوه قبيحاً فعلَه . ولذلك سُمِّيت معصية الله « منكراً » لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها ويستعظمون ركوبها »[2].

– وفي الآيات التالية من سورة آل عمران يَسْبُغ القرآن الكريم وَصْفَ الإيمان والصلاح على الفئات التي آمنت بالإسلام من أهل الكتاب وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر فيقول ﷻ ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾(آل عمران:١١٣-١١٥)
وهذا يؤكد أن الخيرية هي جائزة كل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويؤمن بالله .

● ويذكرنا القرآن الكريم بالدعوة المضادة التي كان يقوم بها المنافقون والمنافقات ، فيقول ﷻ ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (التوبة:٦٧) .

---

(١) انظر تفسير الطبري للآية .

(٢) تفسير الطبري للآية رقم ١١٠ من سورة آل عمران .

- فالدعوة المضادة كانت تُمارَس في عهد النبوة ، وفي العهود التالية ، ولكن مضامينها اختلفت ، كما أن قوّتها تباينت ، وقد بلغت الذروة في العصر الحديث الذي سخر العلوم الحديثة لمساندة الإلحاد والعلمانية والنسبية ، وإباحة الاستباحة ، والذي جعل بعض المنكرات الشرعية معروفاً قانونياً !

- وعن خطورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله إنه : « القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين . ولو طُوِيَ بساطه وأهمل علمه لتعطلت النبـوة ، واضمحلت الديانة . . »(١)

- ولا يشترط للمحتسب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ـ أن يكون معصوماً عن المعاصي كلها ، لأن مثل هذا الشرط يمنع الخَلْق جميعاً من أداء هذا الواجب ؛ واختلفوا في شرط إذْن الحاكم ، فقال الإمام الغزالي إنه شرط فاسد ، لأنه يتعارض مع الآيات والأحاديث التي أوجبت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لكنه اشترط إذْن الإمام في حالة المرتبة الخامسة التي تأتي بعد التعريف والوعظ والسب والمنع بالقوة ـ وهي مرتبة التخويف والتهديد بالضرب ، ومباشرة الضرب له ، حتى يمنع عما هو عليه ، كالمواظب على الغيبة والقذف . . »(٢)

● وقد تضاعفت التحديات التي تواجه المحتسب في العصر الحديث ، بسبب « الهجين » الثقافي السائد في كثير من بلاد المسلمين ؛ فالدساتير والقوانين تبيح بعض الكبائر كالزنا وشرب الخمر ولعب الميسر ، والتبذير السفيه في إنفاق المال ، ورقص النساء شبه العاريات ، والدعوة إلى تطبيق النظم المضادة للإسلام ، كالاشتراكية ، والفنون التي تروج للفواحش . فالتعرض لهذه المباحات بالحسبة معناه انتهاك الدستور والقوانين ، وبذلك يعرِّض الداعي نفسه للملاحقة القانونية الجنائية .

---

(١) إحياء علوم الدين ؛ طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه ؛ جـ٢ ص ٣٠٢ .
(٢) إحياء علوم الدين ؛ جـ ٢ ص ٣١١ .

- لقد صارت بعض المنكرات معروفاً بحكم القانون ؛ وصار بعض المعروف منكراً بحكم القانون . ولعل مشكلة الحجاب الواجب على المسلمات من أبرز الأمثلة على ذلك ، إذْ طُردت امرأة منتخبة عضواً في المجلس النيابي التركي من المجلس وحُرمت من دخوله لأنها محجبة . وبعض الإدارات الحكومية تفرض حلْق اللحية على منتسبيها قسراً ، وتمنع الملتحين من دخول نواديها وفنادقها ، وكذلك الذين يرتدون الزي الإسلامي (الثياب والقفاطين والعمائم) ، وتحرم المسلمات المحجبات من الالتحاق بالوظائف في أقسامها وإداراتها المختلفة . وليس بوسع الدعاة أن يأمروا بالمعروف الشرعي (المنكر قانوناً !) أو ينهوا عن المنكر شرعاً (المعروف قانوناً !) بسبب سطوة تلك الجهات .

● وعلى المحتسب أن يلتزم بالمعروف الذي يأمر به ، وأن ينتهي عن المنكر الذي ينهى عنه .

- فعن أسامة بن زيد قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « يُؤْتَى بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى في النار فتندلق أقتاب (أمعاء) بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرَّحَى فيجتمع إليه أهلُ النار فيقولون : مَالَك ؟ أَلَمْ تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول : بَلى ، قد كنتُ آمرُ بالمعروف ولا آتِيهِ وأَنْهَى عن المنكرِ وآتيه »[1].

● ويقول الشاطبي رحمه الله إن : « العالِم - إذا أخبر عن إيجاب العبادة الفلانية أو الفعل الفلاني - ثم فَعَله هو ، ولم يُخِلَّ به في مقتضى ما قال فيه ، قَوِيَ اعتقادُ إيجابه (لدى السامعين والمشاهدين) ، وانتهض للعمل به عند كل من سمعه يخبر عنه ، ورآه يفعله . وإذا أَخْبَرَ (العالِم مستمعيه) عن تحريمه (لعمل ما) مثلاً ، ثم تركَه ، فلم يُرَ فاعلاً له ، ولا دائراً حواليه ، قَوِيَ عند مُتَّبعه ما أَخْبَرَ به عنه »[2].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ؛ جـ ١٨ ص ١١٨ .
(٢) الموافقات في أصول الأحكام ؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ؛ نشر مكتبة محمد علي صبيح ؛ بالقاهرة ؛ جـ ٣ ص ٢٠٠ .

- وهذا شيء طبيعي ملموس . فإذا قال الداعية إن الصدق واجب ، ثم عُرف عنه الكذب ، ضعف إيمان المدعوين بوجوب الصدق ، وتراخي التزامهم بالعمل به تبعاً لذلك . فلكي تكون الدعوة مؤثرة ، يجب أن تُؤَدَّى بالقول والفعل معاً .

- فَلْيحذَرِ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر غضب الله تعالى وعذابه الأليم ، ولْيحرصوا على إتيان المعروف الذي يأمرون به والبُعدِ عن المنكرِ الذي ينهون عنه ، بقدر استطاعتهم .

- وَلْيَعْلَم الجميع أن هذا هو الطريق السديد إلى النجاح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فالناس تنظر للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر على أنهم قدوة ، ومُثلاً تحتذى . فإذا دَخَّنَ أحدهم السجاير أو الشيشة ، ورآه الناس وهو يدخن ، كيف تكون استجابتهم له إذا نهاهم عن التدخين ؟ إنهم سوف يسخرون منه ، ويهزأون بعمله الجليل . وسوف يتشككون في حرمة التدخين ، ثم يُقبلون عليه دون حرج .

● وعلى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن يستعدوا لاحتمال المشاق من أذى العصاة واعتداءاتهم (وقد قُتل بعضهم بأيدي الفُسَّاق) . فيذكر شمس الدين محمد بن طولون أن غلاماً مصرياً أمر رجلَيْن بمعروف سنة ٩٢٢هـ فضرباه بخنجر وسط السوق ، ثم هربا . لكن بعض الناس أدركوا أحدهما وقتلوه[(١)]. وظاهر للعيان أن ظروف عصرنا تعقدت جداً وعسَّرت واجب الدعاة ، واضطرت الظروف كثيرين من الشيوخ والعلماء إلى مسايرة السلطات العلمانية التي جعلت بعض المنكرات مباحة أو واجبة (كحلق اللحى ونبذ الحجاب كشرط لبعض الوظائف) .

---

(١) راجع كتابه : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ؛ تحقيق محمد مصطفى ؛ نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ؛ القاهرة ؛ سنة ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م ؛ ص ٢٦ .

● وفي يوم ٢٠٠٤/١/١ توالت الأخبار عن شروع فرنسا وألمانيا في تحريم الحجاب بقوانين ، فيبادر شيخ كبير من شيوخ الأزهر بالإفتاء بحق فرنسا في ذلك ، ويقول إننا لا نستطيع أن نفرض على فرنسا ما نريد من قوانين . والشيخ لا يدري أن حرية العبادة تكفلها المواثيق الدولية بوصفها من حقوق الإنسان الأساسية . وفرنسا وألمانيا وقعتا على تلك المواثيق، وعليهما احترامها . والحجاب ليس رمزاً، كما يزعم بعض الفرنسيين ، ولكنه طاعة لله تعالى القائل في كتابه العزيز ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور:٣١) والطاعة عبادة ، وحرية العبادة مكفولة لكل البشر حتى عَبَدة الأوثان . ولكن نزعة المسايرة ، والحرص الزائد على الظهور بمظهر الاعتدال يورط البعض في الأخطاء .

● وصدق قول القائل : قتلتْ أرضٌ جاهلُهَا ! فالمسائل الدولية تحكمها قوانين دولية ومواثيق الأمم المتحدة ، فكان أحرى بالشيخ أن يستشير الخبراء قبل أن يفتي ويحرج الدعاة في الداخل والخارج ، ويقوي عزيمة فرنسا وألمانيا على قهر المسلمات على السفور!

العمل السياسي

● وفي ضوء الواقع الراهن السائد في معظم بلاد المسلمين يتضح أن الأنشطة السياسية المنظمة أفعل وآمن في تطوير الخطاب الديني . فتغيير الدساتير والقوانين لا يتأتى إلا عن طريق تشكيل رأي عام يطالب به . والرأي العام يتشكل بتأثير الإعلام والفنون والآداب ، وتلعب الأحزاب السياسية دوراً رئيساً في ذلك . والانتخابات التشريعية هي التي تتيح الفرصة لاختيار النواب المطالبين بالتغيير . لكن تزوير الانتخابات ، فضلاً عن تقييدها ، والتحكم في الإعلام الثقيل من جانب السلطات العلمانية ، يجهض احتمالات التغيير ، فيبقى الحال على ما هو عليه أجيالاً متوالية . وهذا الجمود ظاهر في البلاد الخاضعة للعسكر الانقلابيين الذين يتوارثون الحكم الجمهوري ، كما هو الحال في مصر وسوريا والجزائر .

● وهناك فروق عديدة بين دول العالم الإسلامي يعرفها الدعاة من أهلها ، أهمها مدى احترام النظم للحريات العامة ، وحرية الدعوة والدعاة . ولذلك يصعب اقتراح الوسائل الأكثر أمناً وجدوى ، وكما يقال ـ أهل مكة أدرى بشعابها ـ فقد يكون العمل من داخل الأحزاب السياسية هو الطريق المتاح لداعية ، ويكون نشر مقال في جريدة أيسر لآخر ، وحضور مؤتمر أوْفَق لثالث ، وكل داعية في هذا «فقيه نفسه» ؛ ففقه الحال مطلوب ، لأن الأحوال تتباين وتتيح لداعية ما لا تتيحه لآخر . والمهم ألا يعرف الداعية اليأس أو القنوط أمام أية تحديات .

وفي ظروف الواقع المعاصر نصح المودودي رحمه الله الدعاة باجتناب العمل السِّري ، وأوصاهم بالدعوة في العلن ، مهما كان التضييق عليها وعليهم ، كما أوصاهم باجتناب العنف ، والله تعالى يقول ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥)[١] .

* * *

(١) المودودي ؛ تذكرة دعاة الإسلام ؛ ص ٦٢ .

الفصل الثاني عشر

الوسائل المالية

الجوائز والمنح

● ومن الوسائل الحديثة لتطوير الخطاب الديني ، رَصْد الجوائز والمكافآت والمنح للمبرزين في المجالات الدعَوية . ولا شك أن لهذه الجوائز والمنح أثرها في تنشيط الدعاة . وقد كان رسول الله ﷺ يرصد الجوائز للمقاتلين ، وهو ما كان يسمَّى « التنفيل » . وقد قال ﷺ : « من قتل قتيلاً ـ من الأعداء ـ فله سَلَبُه »[1] . ومن هنا كانت مشروعية الجوائز . وهي لا تنفي الإخلاص لله تعالى ، طالما كان الباعث الأساسي على العمل هو نيل مرضاة الله تعالى .

● وفي العصر الحديث رَصَدَت الدول جوائز عديدة لتنشيط العمل في الميادين المختلفة : عسكرية وعلمية وثقافية ودينية . ومن المؤسف أن معظم الجوائز ـ وعلى رأسها جائزة نوبل الشهيرة ـ مُنحت لمن لا يستحقونها! وفي السنوات الأخيرة من القرن الماضي وبداية القرن الحالي كان اختيار أمناء الجائزة هو أسوأ اختيار ، إذْ منحوها لكاتب بريطاني من أصل هندي يُدعى « نيبول » لا لشيء سوى هجومه المتواصل على الإسلام !

ـ وفي العالم العربي تعرضت الجوائز لعواصف السياسة فانحرفت بها إلى غير غايتها النبيلة . وقد كتب سلامة أحمد سلامة في جريدة الأهرام يوم ١٤/١/٢٠٠٤ يقول : « إن موجة النفاق الكاسح الذي اجتاح الجامعات المصرية في ترشيحاتها لجوائز الدولة أصبحت مصدر فساد وإفساد ، ليس فقط للحياة العلمية والثقافية في

---

(١) موطأ مالك ـ ٢١ كتاب الجهاد ـ حديث رقم ١٩ .

مصر ، ولكن أيضاً للحياة الجامعية . . . » وقد ضاق مجال الرؤية أمامهم : «فلم يجدوا من يستحقها غير كبار المسئولين في مواقع المسئولية التنفيذية أو التشريعية من أمثال . . . » وذكر أسماء بعض رؤساء الوزارة والمجلس التشريعي ، وأظن أن مثل هذا الانحراف موجود في غير مصر أيضاً . وقد تعرضت جوائز الدولة عام ٢٠٠٥ ، لنقد مماثل ، لأنها ذهبت لمن لا يستحقها !

● ونحن نتمنى أن تَسْلم الجوائز المرصودة لخدمة الدعوة والعلوم الإسلامية من تلك الآفات ، وأن تصل إلى من يستحقها ، وأن يصل ثوابها لأهلها الذين ابتغوا وجه الله تعالى برصدها ، لكن أملنا لم يتحقق ، وقد ذهبت معظم الجوائز للنساء ، لأننا نعيش عصر المرأة الأمريكي حتى في مجال الدعوة !

تأليف القلوب

● هل يمكن استخدام تأليف القلوب للدعوة في أيامنا هذه؟

◘ أعتقد أن هذا ممكن ، لكن بطرق متطورة . يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾

(التوبة: ٦٠)

- وعرَّف القرطبي «المؤلفة قلوبهم» فقال : «هم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يُظهر الإسلام ، يُتَألَّفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم». «وقيل هم قوم من عظماء المشركين ، لهم أتباع ، يُعْطَوْن ليتألَّفوا أتباعهم على الإسلام» . وقال رسول الله ﷺ للأنصار : «فإنِّي أُعطي رجالاً حديثي عهدٍ بكفر أتألَّفُهم»[1] .

● وبعد انتشار الإسلام ورسوخ بنيانه كدولة ومجتمع ، لم تعد هناك حاجة لتأليف قلوب المشركين : «وأجمعت الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين في

(١) القرطبي ؛ الجامع ؛ تفسير الآية ؛ والحديث أخرجه مسلم من حديث أنس .

خلافة أبي بكر ـ على سقوط سهمهم . وقال جماعة من العلماء : هم باقون ، لأن الإمام ربما احتاج أن يستألِفَ على الإسلام»[1].

● وأحسب أن الأمة المسلمة تواجه اليوم ظروفاً شبيهة بظروفها في عهد النبي ﷺ ، من حيث حاجتها إلى تأليف قلوب بعض الأعداء ، من المسئولين الرسميين ومن الصحافيين ، وغيرهم . وهناك المتعاطفون مع المسلمين في أمريكا وأوربا ، وربما احتاجوا إلى الدعم المالي لنشر وجهة نظرهم السلمية المنصفة لنا ولقضايانا . وهناك طرق عديدة لدعمهم دون المساس بكرامة أحد ، والأسماء والعناوين كثيرة ، فليس من الضروري الإشارة إليهم بـ«المؤلفة قلوبهم»، أو تقديم الأموال لهم نقداً .

● والأمثلة عديدة . فالدكتور مراد هوفمان السفير الألماني بالرباط سابقاً ، والذي هداه الله إلى الإسلام منذ سنوات ، يصف لنا الأجواء المعادية للإسلام في ألمانيا ، والتي تسيطر على وسائل الإعلام والقنوات الفضائية . ومن وراء هذا المناخ سبب مهم جداً هو : الكتب المدرسية التي تصب العداء للإسلام في عقول التلاميذ ، استناداً إلى الصور المزورة الموروثة عن الإسلام منذ الحروب الصليبية .

- وقد وصف الدكتور مراد هوفمان تجربة مدهشة قام بها البروفيسور « فلاتوري» ـ مدير أكاديمية العلوم الإسلامية في ميونخ ـ وزميلته البروفيسورة « توروشكا» ـ وهي غير مسلمة ـ إذ كرس الأستاذان الكبيران عشر سنوات كاملة من سنة١٩٨٥ إلى سنة ١٩٩٥ : « لتحليل ما يمكن أن يجده المرء من معلومات عن الإسلام بالكتب المدرسية باللغات الألمانية والهولندية والإيطالية والدانمركية في مواد الدين والتاريخ والجغرافيا[2].

---

(١) القرطبي ؛ الجامع ؛ (وانظر : كتاب الأموال ؛ لابن سلام ؛ تحقيق محمد خليل هراس ، نشر دار الفكر ؛ ١٤٠١هـ-١٩٨١م ؛ ص ٥٣٧ .

(٢) جريدة الأهرام اليومية في ١٩٩٥/٣/٢٥

- ألا يستحق هذا الأستاذ «فلاتوري» وزميلته جائزة تقديرية ؟ ألا يجب أن يُكرَّم هذيْن العالميْن الكبيريْن في العالم الإسلامي؟ ألا يجب دعمهما لمواصلة جهودهما ، ومتابعة تلك الكتيِّبات والسؤال عن مدى الاستجابة لها؟

● إن ذلك العمل العلمي الكبير تطوير مهم جداً للخطاب الديني بكل ما في الكلمة من معنى . والسلبية تجاهه تقصير في حق ديننا . وأوربا الآن تبحث عن «دين» يقيها شرور الإلحاد والمادية المهلكة . فلماذا لا نقدم الإسلام في صورته الحقيقية؟

الخدمات الاجتماعية

● والتعاون والتآزر والبذل والعطاء والإيثار مبادئ ثابتة وطيدة أكدها كتاب الله تعالى وبيَّنها رسول الله ﷺ بقوله وفعله . ففي الآية الثالثة من السورة الثانية يعلن القرآن الكريم عن ثلاثة أركان للتقوى ، فيقول ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة:١-٣) وتتكرر هذه العبارة القرآنية ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ حوالي عشر مرات في القرآن الكريم[(١)]. ويرد الأمرُ بالإنفاق وإيتاء الزكاة في العشرات من الآيات القرآنية .

● وفي السُّنة النبوية وردت أحاديث عديدة تبين فضل كافل اليتيم ، منها قوله ﷺ :«أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا». وقال بأصبعيه السبابة والوسطى[(٢)]. واستقصاء كل ما ورد في الإنفاق من أحاديث يبعدنا عن موضوعنا ؛ والإنفاق منه الواجب الذي لا ريب في وجوبه ، ومنه المندوب .

● هذه الواجبات الإسلامية هي التي كفلت للمجتمع المسلم التكافل ، والتضامن والتماسك ، في السَّراء والضَّراء . وفي الوقت الحالي ، في بعض البلاد

---

(١) النحل : ٧٥ والبقرة : ٣ والأنفال : ٣ والرعد : ٢٢ وإبراهيم : ٣١ والحج : ٣٥ والقصص : ٥٤ والسجدة : ١٦ وفاطر : ٢٩ والشورى : ٣٨ .

(٢) الإمام البخاري ؛ الأدب المفرد ، دار الكتب العلمية ؛ بيروت ؛ ص ٢٣ .

المسلمة تجري محاولات لتنظيم الإنفاق ، واستغلاله في مواجهة الظروف الصعبة التي يواجهها كثير من المسلمين .

● والخدمات الاجتماعية صورة من صور ذلك التنظيم . ففي القرية الواحدة - مثلاً - يتم إحصاء أعداد الأيتام والأرامل والعجزة ، وتقدم لهم الخدمات المناسبة من الطعام والدواء والمساعدات المالية ، ورعاية التلاميذ والطلاب وإغاثة المنكوبين في حوادث السير والحريق وغير ذلك من الاحتياجات .

● وتنظيم هذه الخدمات يسمح بنقل الأموال من المناطق الغنية ، إلى المناطق الفقيرة ، وتوزيع المعونات توزيعاً متوازناً ، يمكّن من الاعتماد عليها كدخل شهري ثابت للأرملة وأولادها ، وتكاليف الدراسة للأيتام من ملابس وأدوات ومصروفات ؛ وبدون هذا التنظيم كانت التبرعات توزع عشوائياً ، وتصل إلى من لا يستحقها أحياناً .

● والسؤال الآن هو : أين الدعوة في هذه الخدمات؟

- إن هذه الخدمات المستمرة المنظمة تشعر الفقراء بأنهم أعضاء في أسرة كبيرة متضامنة ، هي الأمة المسلمة ، التي تتبرع لهم دون أن تعرف أسماءهم . ومن هنا ينشأ الولاء لهذه الأمة التي لا تنسى أبناءها . وتقل الجريمة تبعاً لذلك ، لأن الفقير يشعر بالامتنان بدلاً من الحقد ، ويجد من يمد له يد العون ، بدلاً من السرقة . وهذا هو سر انخفاض نسبة الجرائم في العالم الإسلامي مقارنة بالعالم الأول!

● وكانت البعثات التنصيرية قد اتخذت الخدمات وسيلة لجذب الفقراء وتنصيرهم ، لكن الصحوة الإسلامية وضعت حداً لتلك الجريمة في معظم بلادنا العربية .

- يقول المنصِّر «و . رايد» : «إن الوصول إلى المسلمين صعب . . ذلك لأن المسلمين يشكُون في مَن يتبرع لهم (من المنصرين) وَيَعْزُون عمله إلى مَأْرب ما .. إنني أنا (والكلام للمنصِّر رايد) أحاول أن أنقل المسلم من محمد إلى المسيح ،

ومع ذلك يظن المسلم أن لي في ذلك غاية خاصة . أنا لا أحب المسلم لذاته ، ولا لأنه أخ لي في الإنسانية . . ولولا أنني أريد ربحه إلى صفوف النصارى لما كنت تعرضت له لأساعده»[1]. بهذه الصراحة أو الوقاحة يكشف الرجل عن غرضه الخبيث .

● فكانت الخدمات الاجتماعية الإسلامية جهداً حميداً في مواجهة التنصير ، وَصَوْناً لدين الفقراء أن يُفْتَنوا عن دينهم . وهي بهذه المثابة تطويراً عملياً فعالاً للخطاب الديني ، فضلاً عن قيمتها الدينية والأخلاقية والاجتماعية .

* * *

---

(١) دكتور. مصطفى خالدي ودكتور عمر فروخ ؛ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ؛ المكتبة العصرية ؛ بيروت ؛ سنة ١٩٨٣م ؛ ص ١٩٣ .

الفصل الثالث عشر

المسرح

فـي عهد النبوة : الفن فـي خدمة الدعوة

● في مواجهة الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة في عهد النبي ﷺ ، استخدم عبد الله بن خطل ، أحد عتاة الكفر ، جاريتين مغنيتين ، الأولى « فَرْتَنَى » والأخرى « فتنة » ، كانتا تغنيان شعراً بهجاء رسول الله ﷺ[1].

- فالغناء والشعر كَانَا من وسائل الدعوة المضادة منذ وقت مبكر جداً . والمسلمون أيضاً دعوا إلى الله بالشعر ، وقد كان أعظم الفنون عند العرب في ذلك الوقت ، ولمعت أسماء الشعراء المسلمين : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . وقد ملأت قصائدهم مساحات واسعة من سيرة ابن هشام .

- ولما نزل قول الله تعالى ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ (الشعراء:٢٢٤-٢٢٦) هُرِعَ الشعراء المسلمون إلى رسول الله ﷺ، يستفسرون ، فقال لهم : « اقرءوا ما بعدها : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الآية « أنتم! ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾(الشعراء:٢٢٧) أنتم !» وقال ﷺ :« انتصروا ولا تقولوا إلا حقاً ، ولا تذكروا الآباء والأمهات » ـ يعني بسُوء . وقال أيضاً : « إن المؤمن يجاهدُ بنفسه وسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لَكأنَّ ما ترمُونَهم به نَضْحُ النَّبْل »[2].

---

(١) إمتاع الأسماع ؛ ص ٣٩٤ .

(٢) سورة الشعراء ؛ الآيات من رقم ٢٢٤ إلى ٢٢٧- وتفسير القرطبي لها ؛ ط الشعب المجلد السادس ؛ ص ٤٨٦٨ ، ٤٨٦٩ .

● وعلى هذا يمكن القول إن الفنون يجب أن تتخذ وسائل للخطاب الديني ، شريطة أن تخلو من المحرمات . لكن المسلمين لا يزالون يترددون في اتخاذ فن المسرح والسينما كوسائل للدعوة ، على الرغم من أنها صارت هي المسيطرة على عقول الناس ، وعلى الرغم من إجراء بعض المحاولات الإسلامية في مجال المسرح منذ الثلاثينيات .

اقتراحات

● ولهذا أقترح تشكيل لجنة فنية رفيعة المستوى لإحياء المسرح الإسلامي . ومن الممكن أن ينهض بهذا الإحياء رجل أعمال مسلم . وفي اعتقادي أن دراسة الجدوى من هذا المشروع ستكون لصالحه ، ونحن نرى المسارح التجارية تحقق أرباحاً كبيرة . وسيكون للمسرح الإسلامي رُوَّاده . لأن ملايين المسلمين يحبون مشاهدة المسرحيات الإسلامية ، وينفرون من المسرحيات المنحلة (الفَارْس) المسيطرة الآن .

- وربما يمكننا بعد إحياء المسرح الإسلامي التطلع إلى إنتاج تمثيليات ومسلسلات إسلامية للتلفاز ، غير «تشخيص التاريخ» الشائع الآن . وهذا مشروع تجاري ناجح ، وتطوير جذري مهم جداً في الخطاب الديني .

● والأفلام السينمائية الإسلامية تكمِّل هذا النشاط الفني الدعوي المفقود . وإنها لقفزة رائعة أن يجد المسلم لنفسه ولأهله فرصة المتعة والتعلم عبر هذه الفنون الراقية ، بدلاً من طوفان الانحلال والفساد الذي يواجهه الآن ، ويجاهد للهروب منه وحماية أهله وأولاده من شروره !

السينما

● ولم توجد بعد مؤسسة متخصصة في إنتاج الأفلام السينمائية التي تخدم الدعوة الإسلامية في العالم العربي ، وإن وُجِدَت أفلام تاريخية واجتماعية يمكن اعتبارها خادمة على نحو ما للدعوة الإسلامية. من ذلك مثلاً فيلم: خالد بن الوليد،

وفيلم صلاح الدين الأيوبي ، وفيلم عمر المختار . هذا على الرغم من ظهور عشرات الأفلام الأمريكية التي تهاجم الإسلام ، ومئات الأفلام المصرية التي تروج للفكر العلماني والانحلال الأخلاقي .

● والظاهر أن إيران سبقت العالم العربي في هذا المضمار . فقد أنشأت «جمعية التبليغ الإسلامي» مركزاً للإنتاج السينمائي ، الذي أنتج وعرض أفلاماً سينمائية جيدة[1].

● فلماذا لا تكون لدينا مؤسسة للسينما الإسلامية ؟ إنها وسيلة يسيرة ، ممكنة ، ومربحة ، وضرورية . وهذه المؤسسة سوف تسد الفجوة الفنية الملحوظة في إنتاج أفلام الكرتون . إننا الآن نعرِّض أولادنا لتأثيرات أجنبية ضارة حين نتركهم فريسة لأفلام الكرتون غير الإسلامية .

- وهذه الأفلام تنتج الآن في مصر ولبنان وإيران . وهي تحمل القيم المرغوبة في بلد الإنتاج . ففي مصر هناك مسلسل «بكّار» الذي يبشر بقيم الوطنية والتسامح . وفي إيران يصنعون الأفلام للدعوة للثورة ، كما أنهم صنعوا «دمية» تحمل القيم الشيعية إلى أطفالهم . وفي لبنان وتركيا فضائيات تعرض أفلاماً ومسلسلات هادفة جيدة .

● فطالما أن الإسلام يُهَاجَم عن طريق السينما ، كان من الواجب علينا المواجهة بالسلاح نفسه . وهذا أمر ميسور للأفراد ، ناهيك عن المؤسسات التجارية والحكومية .

● ولكن على الرغم من كل هذه الحقائق والوقائع ، لا يزال المسلمون عازفين عن اتخاذ المسرح وسيلة للدعوة ! والعزوف نفسه يواجه السينما ، التي لعبت دوراً خطيراً ضد الإسلام والمسلمين . وقد أنتجت هوليود منذ العشرينيات من القرن الماضي عدداً من الأفلام الأمريكية صورت الإنسان العربي المسلم في صورة إنسان

---

(١) انظر : عادل حسين ؛ إيران . . الدولة الإسلامية . . ماذا تعني ؛ ص ١٩ .

همجي متخلف قاسي القلب ، تاجر عبيد ، وزير نساء . وبعد زوال المعسكر الشيوعي صورت السينما الأمريكية الإنسان المسلم على أنه العدو الجديد للغرب . وفي عام ١٩٩٨ عرضت إحدى محطات التلفاز الفرنسية فيلماً بعنوان : « أبداً بدون ابنتي » صور حياة أسرة الوالد فيها إيراني مسلم والزوجة أمريكية . وسافر الوالد إلى إيران وقرر الاستقرار فيها ، لكن الزوجة رفضت الحياة مع الزوج وأصرت على العودة إلى أمريكا مع ابنتها . ويشنِّع الفيلم على الإسلام والمسلمين ، وعلى قيم الإسلام ونظامه ، ويصفه بالتخلف والرجعية .

- وتعددت الأفلام التي تهاجم الإسلام ، وتُعلي من قدر المسيحية والنظم الغربية العلمانية ، مصطنعة الطرق الفنية غير المباشرة .

● وظهرت أصداء تلك الهجمات في عدد من الأفلام المصرية ، فيها إغراء على التحلل من القيم الإسلامية ، وتتسم بقدر من الإسفاف والتعارض مع قيم المجتمع الأمر الذي حمل لجنة الثقافة والإعلام والسياحة بمجلس الشعب على التحرك لصد تلك الموجة[١].

- وفي الولايات المتحدة الأمريكية احتجت الجمعية العربية الأمريكية لمكافحة التمييز العنصري على الأفلام التي تشوِّه الإسلام وتحط من أقدار المسلمين . واتصلت الجمعية بـ« وارنر براذرز » واتفقت معها على أن تستشير الشركة خبراء عرب ومسلمين عند إنتاج أفلام عن العرب والمسلمين . فكان ذلك مثالاً ناجحاً للدعوة الإسلامية في مجال السينما في الغرب . وحقق المسلمون الأمريكيون نجاحات أخرى مهمة في مجال التلفزة الأمريكية .

المسرح في خدمة أعداء الدين

● حقاً إن المسرح فن يوناني قديم . وكان الدين لدى اليونان يشغل مساحة واسعة من النشاط المسرحي . وفي أوربا كان المسرح يستخدم للتبشير بالمسيحية .

---

(١) الأهرام اليومية ؛ في ٢٩/ ١٠/ ٢٠٠٣ .

ولما نبذت أوربا المسيحية واعتنقت الفلسفات المادية ، عبَّر المسرح عن ذلك . فالمسرح أداة فنية لنشر دين المؤلف أو مذهبه الفلسفي أو الاجتماعي .

- لكن المسرح في العالم الإسلامي ولد في حضن أشخاص متغربين ، وغير مسلمين وبعضهم كان متعصباً لدينه ، مثل يعقوب صنوع ومارون النقاش وسليم النقاش . وبصفة عامة لم تراع المسرحيات شعور النظارة المسلمين ، بل استفزتهم أحياناً .

- وفي بلاد الشام اضطر الشيخ سعيد الغبراء إلى الاستنجاد بالسلطان عبد الحميد الثاني لوضع حد للعروض المسرحية التي لا تراعي القيم الأخلاقية ، فتم إغلاق مسرح أبي خليل .

● وظلت هناك جفوة بين المسلمين وبين هذا الفن وأهله . من ذلك أن النظارة المسلمين اعترضوا على مسرحية «عرابي» التي مثلتها فرقة خليل القباني يوم ١١/٤/١٩٠٠م ، الأمر الذي أدَّى إلى نشوب معركة بالكراسي[1] .

- وبعد خمسة وتسعين عاماً تكرر ما حدث سنة ١٩٠٠ ، حين كانت فرقة مسرحية نرويجية تمثل على مسرح القلعة بالقاهرة ؛ وقد ظهر الممثلون على المسرح عُراة تمام العُرْي ، ففزع النظارة فَزَعاً شديداً ، وقاموا بثورة ، فضربوا الممثلين بالأيدي والأرجل والأحذية !

● وحتى الآن ، لا يزال المسرح العربي يؤدي دوره التغريبي والإفسادي المنحل في معظم المسرحيات . ولا تزال الجماهير المسلمة تنظر إلى المسرح على أنه متمرد على القيم الدينية التي يؤمنون بها ، ولذلك يهجرونه إلا في حالات قليلة جداً .

---

(١) راجع : دكتور محمد يوسف نجم ؛ المسرحية في الأدب العربي الحديث ؛ دار الثقافة ؛ بيروت ؛ ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م ؛ ص ٥١ .

محاولات إسلامية

● ولقد حاول بعض شيوخ الأزهر استغلال المسرح في الخطاب الديني ؛ وقد عرفوا أثره البعيد في قلوب الناس وعقولهم . فألف الشيخ علي الطنطاوي في الثلاثينيات من القرن الماضي مسرحية . والظاهر أن تلك المحاولة أخفقت منذ البداية .

- لكن الأمل ظل يراود الكثيرين ، فجَرَت محاولات في جمعية الشبان المسلمين . وأذكر أنني شاهدت مسرحية إسلامية على مسرح دار الأوبرا القديمة موضوعها صلاح الدين الأيوبي (ولا أذكر التاريخ) .

● وتألفت « فرقة المسرح الإسلامي » في الخمسينيات من القرن الماضي ، برئاسة المخرج محمد عثمان ، بهدف : « تنمية الروح القومية الإسلامية وبث الشعور بالعزة والكرامة في شباب الأمة ، بعرض الأمجاد التاريخية وتعريف المواطنين بتاريخهم الإسلامي المجيد »[١] .

● وأخرج محمد عثمان مسرحية « حليمة السعدية » في أول عمل لفرقته . ونالت المسرحية إعجاب رجالات الأزهر ، فقال مدير مكتب شيخ الأزهر ومراقب عام البحوث والثقافة بالأزهر الشيخ محمد فهمي إسماعيل : « أشجع المسرح الإسلامي بقلبي ودمي وكل شعوري ، وأرجو أن يتناول هذا التقدير المؤلف الأستاذ حزين سلامة والمخرج الأستاذ محمد عثمان وجميع المشتركين في تقديم مسرحية « حليمة السعدية » ، وأتمنى للمسرح الإسلامي في جميع مراحله كل تقدم »[٢] . وشارك شيوخ آخرون الشيخ محمد فهمى إسماعيل هذا التقدير .

- وتوقفت فرقة محمد عثمان . والمهم أن هذه المحاولات لم تجد اعتراضاً من رجال الأزهر ، بل لقيت التشجيع والإعجاب الكبير .

---

(١) الفقرة الأولى من الكتيب الخاص بمسرحية حليمة السَّعْدية .

(٢) آخر صفحة من الكتيب نفسه .

● وذكر الأستاذ عبد الرحمن البنا في مقال له في جريدة الشعب أنه شكل فرقة مسرحية إسلامية في الخمسينيات ، وأنها أخرجت مسرحية « غزوة بدر » على مسرح الأزبكية يوم الجمعة ١٩ رمضان المعظم سنة ١٣٦٥هـ الموافق ١٩٤٦/٨/١٦م ، وكان من بين أعضائها عبد المنعم مدبولي وإبراهيم الشامي ومحمد السبع وعبد البديع العربي[١]. وقد صاروا اليوم من رواد المسرح في التمثيل والإخراج .

● وفي العقود الأخيرة من القرن العشرين ، ومع ظهور التلفاز ظهرت المسلسلات الإسلامية التاريخية ، التي « تشخص التاريخ » ولا تتخذه مادة لتبنِّي الأفكار والقيم الإسلامية ، ومع ذلك استمرت ولقيت قبولاً حسناً .

● ثم دخلت الجامعات السعودية مجال المسرح في بداية القرن الهجري ١٥ وأعلنت جامعة الرياض عن مسابقة للتأليف المسرحي، على مستوى العالم العربي، فتقدم لها ٧٤ مؤلفاً بأربعة وسبعين مسرحية[٢]. وكانت خطة الجامعة تشتمل على إخراج بعض تلك المسرحيات الفائزة بالجوائز ، لكن تلك الخطة لم تنفذ لأسباب فنية .

- وكانت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية قد أعلنت عن مسابقة أخرى للتأليف المسرحي سنة ١٤٠٠هـ . وفازت مسرحية « الصداق » بالجائزة الأولى لمسرحيات الفصل الواحد . وأُخرجت « الصداق » على مسرح كلية الشريعة بالرياض ، ولقيت قبولاً حسناً[٣].

---

(١) جريدة الشعب ؛ يوم ١٤٠٨/١١/٢٩هـ .

(٢) كان لي شرف الفوز بالجائزة الأولى عن مسرحية «قطار خرج عن القضبان»، وهي في ثلاثة فصول .

(٣) وكانت من تأليف كاتب هذه الدراسة . وكانت الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون تعرض بعض المسرحيات في الرياض العاصمة وفي بعض مراكزها في المدن الكبرى . ودفعني ذلك إلى الاتصال بها والتعاون معها ، فعَرَضَتْ لي مسرحية «سقوط الحساب» على مسرح المربَّع في رمضان المبارك سنة ١٤٠٠هـ ، ثم مسرحية «الكرَمَانيَة» على المسرح نفسه سنة ١٤٠٢هـ .

● وأهم من ذلك أن عرض مسرحية على مسرح كلية الشريعة يزيل كل ريبة في حُرمة التمثيل المسرحي . فهو وسيلة فعالة للدعوة ، ولا يجوز أن تُترك لأعداء الإسلام من المتغربين دون أن يُزاحمهم أحد .

- ولكن للأسف كانت تلك هي المسرحية الوحيدة التي رأت النور .

● والآن بعد انتشار القنوات الفضائية ، يبدو المسرح الإسلامي ضرورة دعوية . فالناس لا تدع مسرحية لتصغي لحديث ديني ، ولا تدع الأفلام والمسلسلات إلا لتشاهد ما هو أقوى جاذبية . فالتحديات الراهنة أقوى كثيراً من تلك التي واجهت المسلمين في الثلاثينيات من القرن الماضي وتلك التي واجهتهم في نهايته .

● والمسرح ، وما ينبثق عنه ، من أفلام سينمائية ومسلسلات تلفازية ، سيكون له آثار إيجابية بعيدة المدى . وهو يمثل تنويعاً بارزاً وتطويراً هائلاً في قائمة الوسائل الدعوية . وسوف يثبت أنه من أهمها .

● ولعل الدرس البالغ في دعوة نبي الله نوح عليه السلام هو التنويع في الوسائل . والقرآن الكريم يسجل له هذا التنويع بقوله ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ (نوح:٥-٩)

مشروعية العمل المسرحي

● ومن أجل إزالة أية شكوك حول جواز الدعوة عن طريق المسرح ، سأحاول في إيجاز بيان مكوناته وأهم عناصره فيما يلي :

- فأقول وبالله التوفيق إن المكونات الجوهرية للعمل المسرحي هي : القصة ، والصراع ، والحركة . ويليها في الأهمية الموسيقى التصويرية (أو الجوقة) . وبعض أنماط المسرح تشتمل على غناء ورقص . وتثور عادة مسألة اشتغال النساء بالتمثيل المسرحي تبعاً لذلك . فلا بد أن يمتد البحث إلى هذه المسائل .

(١) القصة

ونبدأ بالقصة التي هي مكون جوهري لأي عمل مسرحي . والقصة قد تكون مجرد خيال . وقد تكون واقعية ، بمعنى أنها يمكن أن تقع لأي إنسان . وقد تكون تاريخية تحكي وقائع حدثت فعلاً في تاريخ أمة من الأمم . وفي كل الحالات تُوظف القصة في خدمة الغاية المنشودة للمؤلف المسرحي .

- والقصة ، بكل أنواعها ، ليست غريبة عن تراثنا الإسلامي . ففي القرآن الكريم نفسه ضروب من القصص . وفي ذلك يقول الأستاذ محمد قطب : « وقد استخدم القرآن ـ في أغراضه الدينية البحتة ـ كل أنواع القصة : التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها ، والقصة الواقعية التي تعرض نموذجاً لحالة بشرية ، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك النموذج ، والقصة المضروبة للتمثيل والتي لا تمثل واقعة بذاتها ، ولكنها يمكن أن تقع في أي لحظة وأي عصر من العصور »[1]. ومثال النوع الأول قصص الأنبياء ، ومثال الثاني قصة ابني آدم ، ومثال الثالث قصة صاحب الجنَّتَيْن التي وردت في سورة الكهف .

وفي ضوء هذه الحقائق لا بد أن تتبدد الشكوك التي قد تساور بعض الأتقياء حول حرمة القصة المسرحية . فالقصة أصيلة في ثقافتنا ، ويجب أن نستثمرها ونثريها بأعمال جديدة ، من قصة قصيرة ورواية طويلة ومسرحية .

(٢) الصراع

ولابد أن تنطوي القصة المسرحية على صراع من نوع ما . والصراع عبارة عن أنواع من التدافع والتصادم والنزاع بين الأفراد أو الأفكار أو المصالح والأهواء

---

(١) منهج الفن الإسلامي ؛ دار الشروق ؛ ط ٤ ص ٢٢٦ .

والشهوات والواجبات أيضاً[1] . والأطراف المتصارعة تختلف في ثقافة أمة عنها في ثقافة أمة أخرى . بل إن شكل المسرح ووظيفته يحددهما المناخ الحضاري وأحوال المجتمع[2] . وعلى هذا يجب أن يكون الصراع في المسرحية الإسلامية بين الشهوات والأهواء من جهة ، وبين الواجبات الشرعية من جهة أخرى ؛ أو بين الالتزام والتحلل ، والحق والباطل . وقد يكون الصراع في المسرحية الإسلامية بسبب عجز البطل عن الوفاء بواجبين شرعيين متقابلَيْن في موقف واحد بعينه . مثال ذلك : واجب شهادة الحق ، حين يكون المجرم والد الشاهد أو ابنه ! فهو يريد أن يكون بارًّا بوالده ، كما يريد أن يشهد شهادة الحق أيضاً . ولهذا تتصارع في عقله وقلبه مشاعر متعارضة .

(٣) الحركة

يقول «آلمر رايس» ـ الكاتب والمخرج المسرحي الأمريكي ـ إن جوهر المسرح هو الحركة ، يعني حركة الممثلين على خشبة المسرح : «وإن المسرحيات تُكتب لكي تمثَّل». ومعنى هذا أن أداة التوصيل ليست كلاماً يُقرأ ، وإنما هي كلام يُقال بأساليب مختلفة ، مع حركة محسوبة يرسمها المخرج ويؤديها الممثلون . وهذه الحركة لا تعدو أن تكون من الوسائل المشروعة لتوصيل المشاعر والأفكار إلى المشاهدين . والحركة يمكن أن تُؤثَّم شرعاً إذا كانت ضارة أو مخالفة لقاعدة شرعية ، كما أنها يمكن أن تكون مندوبة أو واجبة إذا كانت مؤدية إلى طاعة الله تعالى . أما الحركة بدون نية أو غاية ، فلا حكم لها في الشرع . ولم يرد نص من كتاب أو سُنة يمكن أن يحرم الحركة التي تجسد مغزى القصص الإسلامي وتوصله إلى المشاهدين[3] .

---

(١) د . محمد زكي العشماوي ؛ دراسات في النقد المسرحي ؛ ص ٣٠-٣٧ .

(٢) آلمر رايس ؛ المسرح الحي ؛ ترجمة د . داود حلمي السيد ؛ دار نهضة مصر ؛ بالقاهرة ؛ سنة ١٩٦٥م ؛ ص ٣٨ .

(٣) أبو حامد الغزالي ؛ المستصفى ؛ تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا ؛ نشر مكتبة الجندي بالقاهرة ؛ (دون تاريخ) ؛ ص ٢٣٠ .

- والحق أن مسألة الحركة يسيرة جداً . فنحن عادة نتكلم ونتحرك ونشير بأيدينا ورؤوسنا لإيضاح معنى كلامنا . والحركة في المسرح محاكاة لما نصنعه في واقع الحياة .

- هذه هي العناصر الثلاثة الجوهرية للعمل المسرحي ، وما عداها ثانوي ويمكن الاستغناء عنه . بل إن أحد كبار المسرحيين الأمريكيين - وهو « جيرزي جروتوفسكي » دعا إلى إقامة مسرح على العناصر الجوهرية الثلاثة ، وسماه « المسرح الفقير » - بدون « ماكياج » أو ملابس أو مناظر مسرحية أو إضاءة أو مؤثرات صوتية[1]. وقد أُخرجت مسرحية « الصداق » على خشبة قاعة المحاضرات العامة بكلية الشريعة بالرياض ، بالعناصر الجوهرية وحدها ، ولقيت القبول والإعجاب . وهكذا يجد المؤلف المسلم أن بوسعه الاستغناء عن أي عنصر ثانوي إذا رأى فيه مخالفة شرعية .

ولقد ألَّف شيخ أزهري مسرحية سنة ١٨٧٣م وقام طلاب أزهريون بتمثيلها[2]. لكن المسرح الإسلامي لم يوجد بحق إلا في بداية القرن العشرين ، حين كتب إبراهيم رمزي وأحمد شوقي وغيرهما مسرحيات عديدة ، أُخرج منها عدد قليل ونشر الباقي في كتب . وهذا يدل على أن هناك إحساساً بخطورة هذا الفن ، وواجب تسخيره للخطاب الديني المتطور .

نماذج من المسرح العلماني

● وهو المسرح الذي يسخَّر ضد الدعوة ، وتجد المسرحيات المضادة للدعوة التقدير والرعاية فيه .

مسرحية عبد الرحمن الشرقاوي

● فعندما لاحت بشائر انتصار الثورة الجزائرية بوصفها ثورة إسلامية ضد الاستعمار الفرنسي الاستيطاني ، سارع عبد الرحمن الشرقاوي بتأليف مسرحية

(١) دكتور سمير سرحان ؛ تجارب جديدة في الفن المسرحي ؛ نشر مكتبة غريب بالقاهرة ؛ (دون تاريخ) ؛ ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١

(٢) دكتور محمد يوسف نجم ؛ المسرحية في الأدب العربي الحديث ؛ ص ٩٠ .

«جميلة» التي حاول فيها إنكار خاصية الثورة الإسلامية . وحفلت المسرحية بامتداح فرنسا وحضارتها ، حتى بلغ التحريف لدى المؤلف حد الزعم بأن عاهراً فرنسية كانت «تجاهد !» مع المجاهدين ، وهي التي سماها «سيمون» وجعلها تقوم بأهم عمل ثوري !

- وأظهر المؤلف عبد الرحمن الشرقاوي ، وهو يساري شيوعي عطفه على الجنود الفرنسيين الفقراء الذين يجبرون على قتل الجزائريين على غير إرادة منهم ! وتساءل الناقد محمد جلال كشك إن كان ذلك استعداداً لترجمة المسرحية إلى الفرنسية ؟[١]

● ومن المسرحيات الفائزة بجوائز وزارة الثقافة المصرية مسرحية بعنوان : «مَرْحَى غيلان» . وبطل المسرحية هو غيلان هذا . ويصفه المؤلف فيقول إنه : «شيخ في الستين ، متحدث وحكيم ، شخصية غير واقعية ، لم يأت به التاريخ ، لأنه ما زال يحمل فوق كهولته أعباء التاريخ وأعباء الزمان والمكان». ويقول غيلان عن نفسه : «أنا الضمير الآدمي»[٢]. وهو متهم بالخروج على الحكم في عهد عمر بن عبد العزيز (ﷺ) . ويحكم عليه بالإعدام ، لكنه يتلاشى أو يتبخر! وتصوره المسرحية على أنه مصلح كبير ، وثائر ضد المظالم ، وزعيم للشعب ، مثل المهيِّجين الشيوعيين في العصر الحديث .

- وحين يواجه الخليفة الراشد الخامس يقول له : «أنت امتداد بني أمية والطغاة السابقين»[٣]. وبعد ذلك يقول عمر : «غيلان حق»[٤] ويعينه والياً على العراق لكنه يرفض[٥]. ويأمر عمر بإصدار بيان باسم الخلافة يشتمل على آراء غيلان[٦].

---

(١) محمد جلال كشك ؛ الغزو الفكري ؛ نشر المختار الإسلامي ؛ ط٤-١٣٩٥هـ-١٩٧٥م ؛ ص٧٢.

(٢) وزارة الثقافة ـ المركز القومي للمسرح ؛ مجموعة المسرحيات الفائزة ؛ سنة ٢٠٠١ ص ٣٠٦ ؛ والمسرحية من تأليف عبد المنعم محمد عد المنعم .

(٣) نفسه ؛ ص ٤٦٤ .

(٤) نفسه ؛ ص ٣٦٩ .

(٥) نفسه ؛ ص ٣٧٧ .

(٦) نفسه ؛ ص ٣٧٩ .

● وقد نوافق المؤلف في رأيه برفض المظالم والانحرافات ، لكننا لا يمكن أن نوافقه على الصورة غير اللائقة لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ولا على اختيار اسم غيلان ليكون معبِّراً عن الضمير البشري ، لأن « غيلان » التاريخي ذهب في نفي القدر مذهب معبد الجهني ، واستتابه عمر بن عبد العزيز ، ولكنه عاد إلى دعوته ، فقتله هشام بن عبد الملك . فكان الخلاف بينه وبين السلطات عقيدياً ، ولم يكن زعيماً للفقراء والعبيد والمظلومين . ومهما قال المؤلف إنه شخصية غير واقعية ، فإن المسرحية تنفي قوله وتؤكد أنه هو غيلان التاريخي الذي لا يستحق شيئاً من تقدير المؤلف الزائف .

● وفي « مسرحية الانتظار » ، تأليف سيد محمد أبوذكري ، قصة زوج ضَبَطَ زوجته في الفراش مع رجل غريب ، فقتلهما . ثم قتل نفسه ومات منتحراً .

- ويشهد النظارة الزوجين وهما في العالم الآخر يتحادثان . وهما يتناولان مسألة الجبر والاختيار ، وتبدو السطحية المفرطة في آرائهما ، في محاولة لتسويغ جريمة الزنا . وتزعم المرأة أن زواجها كان صفقة بالنسبة لزوجها : « أما بالنسبة لي فكان عملية اغتصاب . . عملية اغتصاب حقيرة »[(١)] .

● وتنتهي المسرحية بدخول الزانييْن الجنة ، ودخول الزوج المخدوع النار!

- وهكذا يحاول المؤلف تسويغ الزنا ، لا لشيء سوى أن الزانييْن كانا على علاقة حب ، لكن والد المرأة زوَّجها لرجل آخر . ومعاشرة الزوج لزوجته اغتصاب جزاؤه جهنم ![(٢)]

● ومن ضمن المسرحيات التي فازت بجوائز وزارة الثقافة المصرية مسرحية « السادة لا يكذبون » من تأليف الدكتور كمال الدين حسين ، سنة ١٩٩٩ وهي

---

(١) مجموعة المسرحيات الفائزة ؛ سنة ٢٠٠١ ؛ ص ٤٩٦ .

(٢) نفسه ؛ ص ٥٠٨ ، ص ٥١٠ .

قصة أسطورية يطرح المؤلف من خلالها آراء عديدة حول الحكم والحكام ، وبطانتهم ، ويشكك في الجميع ، الحاكم والوزير والكاهن والبهلول ، والثائر والشعب المحكوم نفسه ، والأفكار المتداولة بينهم جميعاً[1].

●● ترى هل سنظل على موقفنا الرافض للمسرح إلى يوم الدين ؟ هل سندع الإعلام المسرحي الثقيل ليستأثر به أعداء الإسلام ؟ ومن ذا الذي يتحمل مسئولية ذلك أمام الله تعالى؟

* * *

---

(١) مجموعة المسرحيات الفائزة ؛ سنة ٢٠٠١ ؛ ص ١٢٣-٢٠٨ .

ملحق الباب الثاني

قوائم الوسائل

بعد هذا الباب الطويل في حوالي مائة وخمس وعشرين صفحة ، من المفيد أن نحدد الوسائل المقترحة للخطاب الديني المتطور ، والوسائل التي يمكن أن نطورها من تلك التي نستخدمها الآن أو كان المسلمون يستخدمونها في الماضي ، وكذلك الوسائل التي اصطنعها كبار الدعاة في العصور الحديثة .

الوسائل المقترحة

- أهمها : تكوين فرقة مسرحية إسلامية ، وإنشاء دار عرض خاصة لها ، في إحدى العواصم الإسلامية ، ثم تكرار التجربة في سائر العواصم الإسلامية .
- ويأتي بعد المسرح ويرتبط به مشروع إنشاء مؤسسة خاصة للإنتاج السينمائي والتلفازي ، والإعلامي .
- وأقترح مشروع «مكتبة الحي» الإسلامية ، و «مكتبة القرية» ، وإذا أمكن ، تلحق بها صالة محاضرات ، وقاعة لعرض الأشرطة الدعوية .
- وإصدار الكتيبات التصحيحية وتوزيعها . وهذا يحتاج إلى إنشاء مؤسسة تراقب ما ينشر ، وتصحح ما قد يكون به من أخطاء .
- وتكوين لجان مشورة تسمى «أصدقاء خطيب الجمعة» في كل مسجد جامع .
- وأقترح إحياء وسيلة «تأليف القلوب القرآنية» المهجورة .
- وتوظيف الوسائل المالية في مواجهة التنصير (إلى جانب الوسائل الأخرى بطبيعة الحال) .

تطوير الوسائل المستخدمة حالياً

● وتطوير الوسائل المستخدمة حالياً مهم جداً . ومهمة التطوير تقع على عاتق أهل الاختصاص الكبار . وأما التفاصيل فكل فيها فقيه نفسه .

- وأول ذلك التزام العلم واجتناب الخرافات والإسرائيليات والقصص الزائف في كل الوسائل الدعوية .

▫ والثاني استيعاب كل المستجدات وأخذها في الاعتبار ، سواء في أحوال المخاطبين والوسائل والمنهج الدعوي .

▫ والثالث أن يكون اتجاه التطوير إلى توسيع دائرة كل ما هو إسلامي في «الهجين» الثقافي ، وتنحية كل ما هو مادي معارض للإسلامي .

● وهذا التطوير يجب أن يشمل الوسائل التالية :

▫ كليات الدعوة ومعاهدها وأقسامها بحيث تستطيع تخريج دعاة قادرين على استعمال الوسائل الحديثة ، بما في ذلك «الإنترنت» والفنون والمسرح .

▫ مراجعة المواد «القيمية» في مناهج التعليم وتنقيتها من «المادية» وإبراز طابعها الإسلامي (وهي مواد التربية الإسلامية والدين والتاريخ ، والفلسفة والأخلاق والاجتماع والاقتصاد والسياسة) . وإدخال بعضها في الجامعات .

▫ العمل بخطة تجعل الصحافة كلها إسلامية ، لا مجرد باب في كل جريدة أو صفحة في مجلة . وأعني بهذا أن تُلاحظ تعاليم الإسلام ومقاصده العليا في كل ما يكتب من مقالات وتحقيقات ودراسات .

▫ تطوير الإذاعات الإسلامية بحيث تلتزم بالمقاصد العليا للشريعة ، وتتخلص من «الهجين» السائد فيها الآن .

▫ التدقيق في اختيار المخطوطات التي تطرح للتحقيق ، ودعمها ، علمياً ومالياً ، وإدخالها في مناهج الدراسة الجامعية .

▫ الإعداد الجيد للمؤتمرات لكي تخدم أهداف التطوير ، والبعد عن «الاحتفالية والشكلية والدعائية» السائدة الآن .

▫ التوسع في عقد المسابقات البحثية في إطار التطوير المنشود ، ورصد الجوائز والمنح لها ، ونشر إنتاج المتسابقين المميزين ، على أن تدخل الآداب والفنون في خدمة الدعوة ، وتوضع ضمن موضوعات البحوث .

- تكليف جهات متخصصة بطبع ونشر الإنتاج الإسلامي وتوزيعه (الكتاب العلمي ، والمسرحية ، والرواية ، وديوان الشعر) .
- إلزام الوعاظ والخطباء بإجراء دراسات إسلامية ، وفتح باب الحصول على مؤهلات أعلى لهم ، وتكليفهم بتدريس بعض المواد القيمية في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية ، إلى جانب التدريب الجاد المتواصل .
- إنشاء مركز بحوث لمتابعة ما ينشر عن الإسلام في داخل العالم الإسلامي وخارجه ، ونقده ، وتقويمه ، في دورية ربع سنوية محترمة ورصينة .

الوسائل التقليدية

- الاتصالات الشخصية (والحوار ، والجدل) .
- الرسائل إلى الزعماء والقادة عن طريق الوسائل المتاحة .
- إرسال البعوث للدعوة (في خارج البلاد العربية) .
- الخطابة (وخطبة الجمعة) .
- الوعظ .
- التعليم في المدارس الرسمية (والأهلية ، والكليات والمعاهد الجامعية) .
- الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم .
- الكتاب الإسلامي .
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الحسبة) .
- الإفتاء .
- الخدمات الاجتماعية .

الوسائل العصرية

- التربية والتعليم (التربية الإسلامية ـ المواد القيمية ـ معاهد لتخريج الدعاة) .
- الإعلام (صحافة وإذاعة وتلفزة) .

- دور النشر الإسلامية .
- الآداب والفنون (الرواية والقصة والشعر) .
- الحوار الإسلامي المسيحي وحوار الحضارات ومؤتمراته ، ورد الشبهات .
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكتابة .
- الاتصالات الفردية وال Chat rooms : تدريب الأفراد عليها والحث على ممارستها .
- ترجمة الكتاب الإسلامي إلى اللغات الأجنبية .
- تحقيق التراث الإسلامي ونشره وإعماله .

● ما الوسائل التي اصطنعها كبار الدعاة في العصر الحديث ؟

- الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (١١١٥-١٢٠٦هـ) ، اصطنع : الدروس الدينية ، والوعظ ، والخطابة ، والإفتاء ، والرسائل ، والمناظرات ، وتأليف الكتب ، والعمل السياسي ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1] .
- واصطنع الشيخ جمال الدين الأفغاني رحمه الله (١٨٣٩-١٨٩٧م) : الدروس الدينية ، وحلقات النقاش والمناظرات ، وكتابة المقالات للصحف ، وتأليف الكتب ، والعمل السياسي .
- وأما الشيخ محمد عبده رحمه الله (١٨٤٥-١٩٠٥م) فكان التعليم محور حياته . وإلى جانب التعليم مارس محمد عبده التأليف والصحافة والإفتاء والعمل الخيري (كرئيس للجمعية الخيرية الإسلامية) ؛ فهذه خمس وسائل دَعَوية . والتعليم يشمل التدريس في دار العلوم بالقاهرة ، وفي أثناء نفيه في بيروت . والتأليف يشمل حاشية على شرح الدواني،وشرح مقدمات البديع ونهج البلاغة، ورسالة التوحيد ، والرد على «هانوتو» ، ويمكن إضافة تفسير القرآن إلى

---

(١) د . عبدالرحمن عبدالهادي ؛ دراسات في تاريخ المملكة العربية السعودية ؛ نشر دار الخريجي بالرياض ؛ سنة ١٤٢٣هـ ؛ ص ٢٤ ، ص ٢٩ .

مؤلفاته أو إلى دروسه . وعمله في الصحافة يشمل تحرير « الوقائع المصرية » والإسهام في تحرير مجلة « العروة الوثقى »[1].

- واستخدم الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله : كتابة المقالات ، والإفتاء من خلال البرامج الإذاعية والتلفزيونية ، وإعطاء الدروس والمحاضرات العامة ، وحاول تأليف مسرحية إسلامية .
- واستخدم الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله : التدريس والخطابة ، وتحقيق التراث ، والإفتاء ، وكتابة المقالات الصحافية ، والوعظ والإرشاد ، والإسهام في المؤتمرات .
- واستخدم الأستاذ المودودي رحمه الله : تكوين الجمعيات ، والخطابة ، والمحاضرة ، والصحافة ، وتأليف الكتب ، وتفسير القرآن ، والبرامج الإذاعية ، والمؤتمرات ، والندوات ، والإفتاء ، والوسائل المالية ، والسياسية .
- واستخدم الأستاذ الندوي رحمه الله : التدريس ، وإلقاء المحاضرات ، وتأليف الكتب ، والخطابة ، والمؤتمرات والندوات ، والاتصالات الشخصية ، والترجمة ، وإدارة المؤسسات الإسلامية .
- واستخدم الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله : التدريس ، والخطابة ، وتأليف الكتب ، والإفتاء ، والكتابة للصحف ، وتكوين الجمعيات في خدمة الدعوة الإسلامية .
- واستخدم الشيخ محمد الغزالي رحمه الله : الخطابة ، وتأليف الكتب ، وإلقاء المحاضرات العامة ، والتدريس ، وكتابة المقالات ، وحضور المؤتمرات ، والإفتاء ، والاشتراك في قيادة الجمعيات ، والوسائل الإذاعية والتلفازية (أحاديث وندوات) .

---

(١) راجع : عباس محمود العقاد ؛ محمد عبده ؛ ص ٦٥ .

● ويلاحظ أن كل واحد من هؤلاء الدعاة قد اصطنع الوسائل التي أتيحت له في عصره وفي بيئته الاجتماعية ، وبما يتناسب مع حالة المخاطبين ، وما يمكنه من التصدِّي للقوى المضادة للإسلام . وهذا درس لنا اليوم ، فلا يجوز أن نهمل وسيلة دعوية لأن شيوخنا لم يستعملوها ، أو لأن أعداء الإسلام استأثروا بها ، فبدت للبعض كأنها لا تصلح إلا للهدم والتشكيك والفساد ، فإن الوسائل محايدة ، كما سبق أن ذكرت ، بها يمكن الإصلاح والإفساد جميعاً .

أقول هذا في ختام هذا الباب لإحساسي بأن كثيرين سوف يترددون في استعمال المسرح والسينما ، ويتأثمون منهما ، واقتناعي بأنهما أصبحا أخطر وسيلتين للخطاب الديني المتطور في العصر الحديث . فهل نملك العزيمة والشجاعة والاقتناع بواجب اقتحام عالم المسرح والسينما ، أم نتردد ، ونتقاعس ، لتظل المواجهة مع أعداء الإسلام بين : الصواريخ العابرة للقارات وسيوف من خشب ؟ !

* * *

الباب الثالث

تطوير منهج الخطاب الديني

● نتخذ المعنى المشروع للمنهج من لغة القرآن الكريم. وقد ورد لفظ «منهاج» مرة واحدة في قوله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة:٤٨) وقال القرطبي رحمه الله في تفسيره للآية: «والشِّرْعة والشريعة الطريقة الظاهرة التي يُتوصل بها إلى النجاة. والشريعة في اللغة: الطريق الذي يُتوصل منه إلى الماء... والمنهاج الطريق المستمر، وهو النهج والمنهج، أي البيِّن». وقد روي عن ابن عباس والحسن وغيرهما: «شرعةً ومنهاجاً سُنَّةً وسبيلاً»[1].

فالمنهج ـ على هذا ـ هو الطريق الواضح البين المستمر، الذي يجب أن يسير فيه الداعية إلى الله لكي يستطيع استمالة العصاة من المسلمين إلى التوبة والعودة إلى طاعة الله، أو إقناع غير المسلمين باعتناق الإسلام، أو على الأقل الكف عن مهاجمته وعن إيذاء المسلمين.

ويجب على الداعية المسلم الذي يدعو إلى الله ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف:١٠٨) أن يتبيَّن معالم هذا الطريق، ليسدد خطواته بحسب قواعد السير فيه وآداب التعامل مع من يلقونه من السائرين. وبغير التزام هذه الواجبات لا بد أن يلتبس عليه المسار، وقد يلج في طرق أخرى متقاطعة معه، تبعده عن غايته، أو تؤخره عنها.

هذا الطريق البيِّن هو موضوع دراستنا في هذا الباب الثالث، وهو جزء من «علم الدعوة» الذي نتمنى أن نسهم في بنائه، لمواجهة تحديات «تطوير الخطاب الديني». ولسوف نجد أن عنوانات الفصول الرئيسة لهذا المبحث موجودة في الكتاب والسنة، وهي من السعة بحيث يمكن أن تستوعب التطورات الحديثة دون تعسف في التفسير أو التأويل.

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن؛ تفسير الآية؛ جـ ٣ ص ٢٢٠٨.

الفصل الرابع عشر

الدعوة بالحكمة

وجوب الدعوة بالحكمة

● الحكمة خاصية أساسية واجبة الاتباع في الخطاب الديني ، لأنها تستند إلى قول الله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥). وبعد الحكمة تأتي الموعظة الحسنة ، ثم الجدال بالتي هي أحسن ، كما تنص الآية الكريمة .

ولا يُفهم من هذا أن الحكمة لا تقبل التطوير ، ومن ثم يكون المنهج الدعوي مثلها . فالآية الكريمة قطعية الثبوت ، مثل جميع آيات القرآن الكريم ، لكنها ظنية الدلالة ، أي تقبل التفسير على أكثر من نحو . وهذه «الظنية» هي التي تتيح لنا تطوير المنهج الدعوي وتطوير خاصية الحكمة الأساسية فيه ، كما سنبين فيما يلي.

وفي تفسير القرطبي أن هذه الآية : «نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين ، دون مخاشنة وتعنيف . وهكذا ينبغي أن يُوعظ المسلمون إلى يوم القيامة . فهي محكمة في جهة العصاة من الموحِّدين ، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين . وقد قيل إن من أمكَنَتْ معه هذه الأحوال من الكفار ، ورُجِيَ إيمانه بها دون قتال ، فهي فيه محكمة ، والله أعلم»[(١)].

وعبارة «وقد قيل» التي أوردها القرطبي تشير إلى مجاهيل ، ومن ثم يجب أن نتوقف في قبولها . والقرطبي يصنف المخاطبين إلى موحِّدين وكفار ، ثم يصنف

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ؛ تفسير الآية .

الكفار إلى فئتين : الأولى تستجيب للدعوة بلين ، والأخرى لا تستجيب فتُقاتَل . ولا يسع الأمة المسلمة اليوم أن تقاتل الكفار الرافضين للإسلام ؛ فلا يبقى أمامنا إلا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . وبصَرْف النظر عن عجزنا ، يقول بعض الأصوليين « إن كل دليل شرعي يمكن أخْذه كلياً »[1] وعلى هذا يكون منهج الدعوة بالحكمة واجب الاتباع في أوساط الموحِّدين وغيرهم . والأمر بالقتال الذي تكرر وروده في القرآن الكريم يمكن أن يُخصص بالكفار المحاربين ، لا المعاهدين والمسالمين ، والله تعالى يقول ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠) فالقتال واجب ضد المقاتلين .

والسؤال الآن هو : ما معنى الحكمة ؟

● ولن يفيدنا أن نرجع إلى المعاجم اللغوية لمعرفة معنى الحكمة . ولا يفيدنا الاستعانة بالمفاهيم الفلسفية للحكمة عند اليونان القدماء الذين اعتبروا الفلسفة هي محبة الحكمة ، وأن الحكمة فضيلة أخلاقية ، وليست مجرد حب للفلسفة . المصدر الأول لمفهوم الحكمة هو القرآن الكريم . وقد ورد لفظ « الحكمة » فيه عشرين مرة . ووردت الصفة « حكيم » سبعة وتسعين مرة ؛ وصيغة التفضيل « أحْكَم » مرة واحدة . فَلْنَنْظُرْ في معنى الحكمة في بعضها . قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ (لقمان:١٢) فالحكمة هنا هبة من الله لرجل صالح ، وهي نعمة تستوجب الشكر للواهب المنعم ﷻ . وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (الجمعة:٢) و الحكمة هنا هي السُّنة ، لأن كل تعليم علّمه النبي محمد ﷺ هو : إمَّا قرآن وإمَّا سُنَّة . والحق أن سنن النبي كلها حكمة ، بإجماع الأمة .

وقال تعالى ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة:٢٦٩) فالحكمة هنا هبة أو نعمة ، وهي خير كثير ، وتثمر خيراً كثيراً .

---

(١) الشاطبي ؛ الموافقات ؛ جـ٣ ص ٣٠ .

- وقد تكرر هذا المفهوم للحكمة في الآيات الأخرى ، فنكتفي بهذه الآيات الثلاث .

● ومن هذه الآيات فهمنا أن الحكمة موهبة فطرية يؤتيها الله تعالى لمن يشاء من عباده .

● وكل مواهب الإنسان الفطرية يمكن إضعافها بالتربية السيئة ، ويمكن صقلها وتنميتها بالتربية الجيدة ، والممارسة الدائمة .

● وفي آية سورة الجمعة جاءت الحكمة بمعنى السُّنة النبوية المطهرة . واقتران الحكمة بالكتاب في آيات عديدة يشير إلى مكانة السُّنة التي تبين ما جاء في القرآن الكريم وتشرح عقائده وشرائعه وأخلاقياته .

● وقد تولَّى النبي ﷺ الدعوة للإسلام ، وأحاديثه الشريفة دعوة وبيان وشرح ، وتشريع . وفي السُّنة يتجسد المنهج الدعوي : بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن .

● والمواهب البشرية لا يكاد يُحرم منها إنسان . لكنها تتفاوت لدى الأفراد تفاوتاً شديداً . فالذي يجب أن نفهمه من الحكمة ـ كموهبة ونعمة ـ هو أنها موجودة لدى البشر ، ولكن مع فروق فردية عظيمة ، فاختص أصحاب الحكمة الموهوبين بقدر بارز منها ، بلقب «الحكماء» . وهؤلاء هم الذين يستطيعون فهم السُّنة ، وفيها منهج الدعوة ، وتنمية موهبة الحكمة بالتحصيل والدرس والممارسة ، ومن ثم يبرزون في تطوير منهج الدعوة ، لإتقانهم المنهج الدعوي الذي أمر الله تعالى به ، وجسَّده عمل الداعية الأول للإسلام محمد ﷺ .

- والحكمة خير كثير ، حسب وصْف القرآن الكريم . ولفظ « خير » يمكن أن يتسع لكل فكر سديد ، وكل عمل مفيد للدعوة . ومن هذا ندرك أن الحكمة تتسع للتطوير بما يناسب حال المدعوين اليوم وغداً وبعد غد ، وبما يفتح المجال أمام الدعاة لاستخدام كل وسيلة ممكنة لنشر الدعوة . وهذا يتفق مع كون لفظ « حكمة » ظني الدلالة ، وكذلك لفظ « خير » .

● ومن البدهي أن الحكمة تتنافى مع الخطأ . وهذا يوجب على الداعية مراجعة المواد الدعوية ، وتصويب كل ما يمكن أن يكون فيها من أخطاء . ولو دفعها إلى ناقد متخصص لكان أفضل وأقرب إلى الحكمة . وفي هذا يقول الشافعي رحمه الله : « إذا رأيتم الكتاب فيه إلحاق وإصلاح فَاشْهدوا له بالصحة »[1]. لأن وجود إضافات وتصويبات يدل على المراجعة الفاحصة ، وينفي العجلة . ووجود نص مكتوب ـ ولو بدون تصويبات أو إضافات ـ خير من الارتجال ، ويلاحظ أن هذه القاعدة المنهجية لا تطبق هذه الأيام إلا فيما ندر .

● وفي الخطابة المنبرية هذه الأيام يسود الارتجال بغير تحضير مما يتنافى مع الحكمة ، ومرد ذلك إلى أن معظم الخطب معادة . فالخطيب لا يبحث ، ولا يكتب ولا يجدد . وفي المقالات الصحفية تسود السطحية ، ومقالات المناسبات السنوية . وفي الدراسات العليا يسود النقل عن كتب التراث ، دون إبداع ، إلا في النادر القليل . وهناك مجالات لا تزال خارج نطاق البحث العلمي ، منها مجال « الدعوة » الذي نعالجه هنا ، والمجالات السياسية والفنية .

احترام العقلية العلمية للمخاطبين

● بعد انتشار التعليم العلمي التجريبي في العالم الإسلامي حديثاً يتَوَجَّب على الدعاة أن يراعوا هذا الواقع فيما يقولون ويكتبون . فهذا هو مقتضى الحكمة . فالقصص التراثية عن المقامات والأحلام والرؤى ، والتهويل ، والإدهاش بقصص الأولياء وأهل الكرامات لم تعد تلقى التصديق الذي كانت تلقاه في الماضي ، ولم يعد الاستشهاد بها حكمة .

● وإليك مثالَيْن ، أولهما ما أورده ابن سعد في الطبقات الكبرى عن عمر ابن عبدالعزيز ﷺ ، فقال : « حدثنا مالك بن دينار قال : لما استُعمل عمر ابن عبدالعزيز على الناس قالت رِعَاءُ الشَّاءِ في رؤوس الجبال» مَنْ هذا العبد

(١) آداب الشافعي ومناقبه ؛ ص ١٣٤ .

الصالح الذي قام على الناس؟ قيل لهم : وما علمكم بذاك؟ قالوا : إنه إذا قام على الناس خليفة عدل ، كَفَّت الذئاب عن شائنا »[1]. وقال أيضاً : « حدثني موسى ابن أعين ـ راع كان لمحمد ابن عيينة ـ قال : كنا نرعى الشَّاءَ بكرمان في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فكانت الشاءُ والذئابُ والوحشُ ترعى في موضع واحد . فبينا نحن ذات ليلة إذْ عرض الذئب لشاة ، فقلنا : ما أرى الرجل الصالح إلا قد هلك . قال حماد : فحدثني هو أو غيره أنهم نظروا فوجدوه هلك في تلك الليلة »[2].

– هذه الأخبار كانت تجد القبول والإعجاب لدى الناس ، وربما ذرفوا الدمع حُزناً على الخليفة العادل العظيم الذي اختطفه الموت في ريعان شبابه ، والأمة أشد ما تكون سعادة به وبحكمه الذي أعاد أيام الخلافة الراشدة من جديد[3].

– لكن العقلية العلمية الحالية سوف تتساءل : إن مثل هذه المعجزة لم يقع في عهود أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ـ الخلفاء الراشدين ، فكيف يقع في عهد عمر ابن عبد العزيز ؟ وكفُّ الذئاب عن افتراس الأغنام معناه أن فطرتها التي فطرها الله عليها قد زالت كلية . وهذا مستحيل علمياً وعقلياً . ثم إن عودة فطرتها إليها لمجرد وفاة الخليفة العادل لا تقل استحالة عن ذهابها . إنها معجزة أخرى . ويتساءل الناس : كيف أمكن أن تعيش الذئاب دون افتراس؟ هل كانت تفترس الغزلان ـ مثلاً ـ ولا تفترس الغنم؟ هل كانت تتغذى على العُشب ؟ !

● فإذا استخدم الداعية المعاصر هذه الأخبار للتدليل على عدل عمر ابن عبدالعزيز ، لا أظن أن ذوي العقلية العلمية يتقبلونها ، والأرجح أن يفقد الداعية الكثير من مصداقيته لديهم . وعدل عمر بن عبدالعزيز لا يحتاج في الحقيقة لمثل هذه القصة . والأخبار الصحيحة العديدة في مصادر سيرته المشرقة تؤكد عدله كما تؤكد سائر الصفات النبيلة في شخصه العظيم رحمه الله .

---

(١) جـ ٥ ص ٤٦٤ (وشائنا يعني أغنامنا) .

(٢) نفسه ؛ ص ٤٦٥ .

(٣) مات عمر بن عبدالعزيز رحمه الله سنة ١٠١هـ وعمره ٣٩ سنة . (انظر الطبقات الكبرى ؛ جـ ٥ ص ٤٩١) .

● والعطف على اليتيم واجب أخلاقي راسخ يؤكده القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهرة . ولا يحتاج الداعية إلى رؤى أو معجزات لإقناع المدعوين به . لكن بعض الدعاة يحرص على إدهاش الناس وإثارة إعجابهم بقصص وأخبار إعْجازية . من ذلك ما ذكره ابن كثير رحمه الله عن : «بقرة كانت تجيء من ناحية باب الجابية (في دمشق) ، تقصد جراءً قد ماتت أمهم ، وهي في ناحية كنيسة مريم في خرابة ، فتجيء إليهم فتنسطح على شقها ، فتُرضع أولئك الجراء منها . وتكرر هذا (السلوك) مراراً . وأخبرني المحدِّث المفيد التقي نورالدين أحمد بن المقصوص بمشاهدته ذلك»[1] .

● في القرن الثامن الهجري كان بوسع الداعية أن يقص هذه القصة العجيبة ، فيصدِّقه الناس ، ويتأثرون بها . فإذا كانت البقرة ـ البهيمة ـ قد أحسَّت بمأساة الجراء الأيتام ، وتحركت لإرضاعهم وإنقاذهم من الموت ، فكيف يجب أن يكون إحساس المسلم الصالح إذا صادف أيتاماً ؟

- أما المسلم اليوم فسوف يبتسم حين يسمع القصة ، لكنه لن يصدقها .

- لا جدوى إذن من تلك الخزعبلات . والأرجح أن يفقد الداعية ثقة المخاطبين إذا قصَّها على أنها حقيقة واقعة ثابتة ، مستنداً إلى شهادة المحدِّث التقي نورالدين أحمد بن المقصوص ، وإثبات ابن كثير لها في كتابه الكبير! ولا تحتاج العقلية العلمية الحديثة إلى براهين لرفض هذه القصة وأمثالها .

● وأثبت ابن كثير قصصاً إعجازية أخرى من هذا القبيل ، منها قصة نَبَّاش القبور ، والزنبور والعصفور الأعمى ، وتجسُّد العمل السيئ في هيئة شبح أسود يدفن نفسه مع صاحبه[2] ! ولسنا بحاجة إلى مناقشتها ، لأن ما قلناه عن الذئاب التي تغيرت فطرتها ، والبقرة التي كانت تسافر يومياً لإرضاع الجراء الأيتام ، يصدق عليها .

---

(١) البداية والنهاية ؛ أخبار سنة ٧٩٢ ؛ جـ ١٤ ص ٢٩٩ .
(٢) نفسه ؛ جـ ١٣ ص ٣٤٦ .

- فالعقلية المسلمة الحديثة لا تصدِّق من المعجزات والخوارق إلا ما كان له سند من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ . لكن كثيراً من الدعاة يُظهرون غراماً شديداً بالأخبار والقصص الإعجازية التي لا سند لها من القرآن الكريم أو السنة الصحيحة . وبذلك يحفرون بينهم وبين المدعوين هُوة سحيقة لا يمكن عُبورها . ووراء هذه الأخطاء توجُّه عام بين الدعاة للاقتباس والنقل دون تمحيص . فما دام الخبر مذكوراً في كتاب تراثي ، فهو عندهم صحيح . وتعليمنا من الحضانة إلى الجامعة لا ينمِّي القدرة على النقد والتمييز ، في ضوء أصول الإسلام . وهذه القدرة مطلوبة اليوم لنجاح الدعاة في الأوساط العلمية . ولا بد لنا من تنميتها ، وممارستها ، لكي ننجو من طوفان الخرافات والخزعبلات المنتشرة لدى الدعاة ، ولدى الجماهير المسلمة ، والتي بلغت من الشناعة حداً لا يطاق .

● ويصادم بعض الدعاة الروح العلمية بأحاديث كثيرة عن السحر والسحرة . وهم يستندون في ذلك إلى أن القرآن ذَكَرَ السحر ووصف أعمال السحرة . وهم يأخذون السحر بمفهومه الخاطئ ، وينبذون المفهوم السديد له . يقول ابن حزم رحمه الله إن : «السحر حيلٌ وتخييل ، لا يُحِيلُ طبيعةً أصلاً . قال ﷻ ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ (طه:٦٦) [١] .

● ويقول الشاطبي رحمه الله إن أمور الفراسة والوحي النَّوْمي : «لا يصح أن تُراعَى وتعتبر إلا بشرط : ألاّ تخرم حكماً شرعياً ، ولا قاعدة دينية ، فإن ما يخرم قاعدة شرعية ، أو حكماً شرعياً ، ليس بحق في نفسه ، بل هو : إما خيال أو وَهْم ، وإما من إلقاء الشيطان» [٢] .

● وكثرة الكلام عن الأولياء وكراماتهم ، تشكك المخاطبين في نظام الكون وسنن الوجود المطردة التي خلقها الله تعالى وحفظها . وشعوبنا المسلمة بحاجة

---

(١) المحلى ؛ جـ١ ص٣٦ ، ٣٧ .

(٢) الموافقات ؛ جـ٢ ص ١٩٤ ـ المسألة الحادية عشرة .

إلى تنقية فكرها من الخرافات والخزعبلات التي تفسد عقائدها ، وتضر حياتها ، وتدفعها إلى السير وراء الدجالين والمحتالين ، وتصدق أن بأيديهم الشفاء من الأمراض ، والبراء من المشكلات ، فتقدم إليهم القرابين وتبذل إليهم الأموال ، وتحيطهم بهالات من الإكبار والتبجيل!

● وقد ميز شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين : السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية ، كسنته تعالى في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات ، فإن هذه السنن ينقضها إذا شاء بما شاءه من الحكم : كما حَبَسَ الشمس على يوشع ، وكما شق القمر لمحمد ﷺ»[1]. «وهذا بخلاف عادته التي وعد بها وأخبر أنها لا تتغير : لِنُصْرَةَ أوليائه ، وإهانة أعدائه ؛ فإن هذا عُلم بِخَبَرِهِ وحكمته»[2]. فوعود الله سُنن لا تُنقض .

- إذن ، القوانين أو السنن الطبيعية يمكن أن تُنقض بمشيئة الله تعالى ، وتلك هي المعجزات ؛ وأما سُنَن الله تعالى التي وعد بها عباده ، فهي قوانين مطردة لا تنقض ، ولا تتخلف ، لأن الله تعالى ﴿ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران:٩)

- لكن الحاصل الآن أن كثيراً من الدعاة ينسب القدرة على نقض قوانين الطبيعة لشيوخهم . حتى إحياء الموتى نُسب إلى أحد أقطاب الصوفية ! وتفشت هذه العادة بين الوعاظ والخطباء والمؤلفين الكبار ، للأسف الشديد![3] فَصَحَّ أنها تخييلات لا حقيقة لها . ولو أحَالَ الساحرُ طبيعةً لكان لا فرق بينه وبين النبي ﷺ . وهذا كُفْر ممن أجازه»[4]. وهذا ما يصنعه السحرة اليوم ، وتشاهده الجماهير على شاشة التلفاز ؛ فالساحر يقطع بدن إنسان شطرين أمام النظارة ، ثم يظهر أنه لم يمسه

---

(١) جامع الرسائل ؛ المجموعة الأولى ؛ تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ؛ ط ١ سنة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م ؛ ص ٥٢ .

(٢) نفسه ؛ ص ٥٣

(٣) راجع ـ مثلاً ـ كتاب : «السيد البدوي» لشيخ الأزهر الأسبق د . عبدالحليم محمود .

(٤) المحلى ؛ جـ١ ص ٣٦ ، ٣٧ .

بسوء . وهذا عمل مختلف عن معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ففي معجزة نبي الله إبراهيم عليه السلام تغيرت طبيعة النار ، فلم تحرقه . وفي معجزة نبي الله موسى عليه السلام ، أكَلَتِ العَصَا حَيَّاتِ السحرة ، فتغيرت طبيعتها من قطعة خشب إلى كائن إعجازي يبتلعُ الحبال التي بدت للناظرين على أنها حيات وثعابين !

● ومن المؤسف أن نجد في التراث العربي والإسلامي علماء أفذاذاً يصدقون أن في بلاد السودان والترك سحرة يستطيعون أن يتحكموا في السحاب لكي يمطر حيث يريدون ؛ وإن في السحرة :« مَنْ يشير إلى بطون الغنم . . في مراعيها بالبَعْجِ فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض . وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فَيَتَحَتَّتْ قلبُه ويقع ميتاً ، ويُنَقَّب عن قلبه فلا يوجد في حشاه»[1]. هذا كلام ابن خلدون ، مؤسس علم الاجتماع الحديث !

- وهنــاك علمــاء آخــرون يذهبــون إلــى مـثل ما ذهب إليه ابن خلدون أو قريباً منه[2]. واستناداً إلى هذه الآراء يتحدث كثير من الدعاة عن السحر والسحرة بالمفهوم الخاطئ . وكانت تلك الأقوال سنداً للدجالين الذين يستغلون مشكلات الجماهير الصحية والإنجابية ، والعاطفية ، في سلبهم أموالهم ، بزعم أنهم قادرون على حلِّها بالسحر .

● وبهذا تظهر صعوبة البراء من الاعتقاد الخاطئ في السحر ، وسَدِّ ثغرته في منهج الخطاب الديني المتطور . فنسأل الله العون والتوفيق لمعاهدنا وجامعاتنا في تطوير الخطاب الديني بالحكمة ، ووضع المناهج الدراسية لتخريج أجيال جديدة من الدعاة القادرين على جذب الجماهير المتعلمة إلى الإسلام كما هو على حقيقته الكاملة الشاملة المصونة في الكتاب والسُّنة .

---

(١) ابن خلدون ؛ المقدمة ؛ ص ٤٧٠ .

(٢) الطبري ؛ جامع البيان ؛ ص ٤٣٩ .

● ومن تقاليدنا المنهجية الحكيمة أن على العالم إذا سئل عن مسألة لا يعرف جوابها أن يقول : «لا أدري» . وفي هذا يقول كبار الأئمة ، أحمد والشافعي ومالك وابن عجلان :« إذا أغفل العالم (لا أدري) أصيبت مَقَاتِلُه»[1]. وقد قال الإمام مالك « لا أدري» في ٣٦ مسألة من أربعين![2]

● والدعاة مُعَرَّضون لكثير من الأسئلة التي لا يعرفون لها جواباً . وقد يتوهم الداعية أن قول « لا أدري» ينال من مكانته العلمية ، فيحاول أن يجيب دون معرفة حقيقية وثيقة . والحق أن قول « لا أدري» حكمة ترفع من قدر الداعية ولا تخفضه . ولقد تصادف أن سمعت منذ سنوات شيخاً كبيراً سئل عن حكم نقل الأعضاء البشرية ، فأجاب دون روية بأنه حرام . وقد أثار بفتواه هذه معارضة بعض الباحثين . ثم عقد مؤتمر إسلامي بعد فترة وجيزة ، وتناول الموضوع بالبحث ، وانتهى إلى أن نقل الأعضاء البشرية حلال بشروط معينة تمنع الاتجار فيها . وهكذا واجه الشيخ حرجاً شديداً ولاذ بالصمت . وأخطر من الحرج للشيخ الاضطراب الذي أحدثته فتواه لدى كثير من المرضى ومن الأطباء أيضاً .

- فَلْيحذر الدعاة الذين يشاركون في برامج الفتوى ، وجلسات الحوار ، وحلقات العلم ، ومؤتمرات البحث ، من الغفلة عن هذه المقولة الحكيمة (لا أدري) ، ومن البواعث الزائفة ، ونزغات الكبر ، التي قد تزج بهم في «المقاتل!» حسب تعبير أئمة العلم الإسلامي الكبار - أولئك الذين مارسوا الحكمة المنهجية عشرات المرات ، وكان أحدهم يكرر (لا أدري) في الجلسة الواحدة غير مرة ، دون أن يشعر بالخجل أو الحرج . فكيف يجب أن يكون موقفنا نحن والفرق بيننا وبينهم كبير؟! والمدعوين اليوم غير المدعوين في الماضي والوسائل غير الوسائل . إننا بحاجة إلى تطوير منهج الحكمة في الدعوة لتحاشي تلك الأخطاء المهلكة .

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه ؛ ص ١٠٧ .

(٢) أبو زهرة ؛ أصول الفقه ؛ ص ٣٧٦ - فقرة ٣٨٦ .

الارتباط بمشاغل الأمة

● ومن الحكمة أن يرتبط الخطاب الديني بمشاغل الأمة ارتباطاً وثيقاً . وتلك قاعدة دعوية مهمة ، ودقيقة . فالداعية المسلم : في كتاب يؤلفه ، أو مقال يكتبه ، أو محاضرة يلقيها ، يجب أن يرتبط بمشاغل أمته المسلمة لا ينفصل عنها ، وفي الوقت نفسه يجب ألاَّ يسمح للتوجهات السائدة أن تجرفه بعيداً عن مبادئ الإسلام ومقاصد شريعته العليا[١] .

- ولقد خاضت أمتنا المسلمة حروباً عديدة ضد الصهاينة والمستعمرين ، وفي أثناء تلك الحروب وجدنا من يثير قضايا الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة ، وبين الأمويين والعباسيين ، وبين الشيعة والسنة ؛ والأمة في حاجة إلى الوحدة وتناسي خلافات الماضي ، في مواجهة عدو شرس تسانده قوى دولية متحدة ، عسكرياً ومالياً وثقافياً ودبلوماسياً . وسقطت رقاع واسعة من الأرض المسلمة في أيدي الأعداء في فلسطين وتركمانستان وكشمير والبوسنة . ويكتب أحد طلاب جامعاتنا رسالة عن الجزية ومقاديرها وقواعدها . وتنشغل إذاعاتنا وتلفازنا بقصص عالم المال ورجال الأعمال ومؤامراتهم وألاعيبهم ، ومسلسلات الحب والغرام وأفلام الجريمة والجنس والممثلات ولاعبي الكرة . ويمضي كثير من الخطباء في تزيين الزهد للجماهير الفقيرة المعدمة ، بقَصَصٍ ممل عن كبار الزهاد ، فيها من الزيف أضعاف ما فيها من الحقائق[٢] . وليس في هذا شيء من الحكمة التي أمرنا الله تعالى بها .

● ومن جهة أخرى ، جَرَى كثير من الدعاة في مجالات الإعلام والآداب والفنون ، إثر التوجهات السائدة في المجتمع . وظهرت هذه الآفة بوضوح في أعقاب توقيع السادات معاهدة الصلح مع إسرائيل . فإذا فَتَحَت المذياع ، أو قرأت

---

(١) راجع الموضوع في الفصل الثامن من هذه الدراسة .

(٢) د . محمود محمد رسلان ؛ الخطابة ؛ ص ٧٤ ، ص ١٢٨ .

صحيفة (في بابها الديني) ، أو استمعْت إلى خطيب في مسجد ، وَجَدْتَ حديث «السلام» يتردد في كل الأبواق ، وعلى كل قلم ، ولسان! حتى أسماء المدن وشركات التجارة ، والمدارس الحكومية والأهلية ، أخذت اسم «السلام»! وأثبت بعض الدعاة أن السلام هو جوهر الإسلام ، وليس التوحيد ! وأثبتوا أن «التسامح» و«قبول الآخر اليهودي» هما قوام الأخلاق والقيم الإسلامية !! حدث هذا في مصر، في حين بقي الوضع على ما هو عليه في غيرها من دول المواجهة التي لم تعقد معاهدات سلام مع إسرائيل .

● قلة قليلة من الدعاة استطاعوا أن يصمدوا في وجه «عاصفة السلام» العاتية !

* * *

الفصل الخامس عشر

الدعوة بالموعظة الحسنة

القرآن موعظة

● إن الدراسة الاستقرائية لآيات القرآن الكريم تبين أن لفظ «موعظة» ورد فيها تسع مرات بصيغة الاسم، وست عشرة مرة بصيغ مختلفة. وفي عدد من الآيات يُوصف كتاب الله تعالى بأنه موعظة. فيقول ﷻ: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٨) ويقول ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (النور:٣٤) ويقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (يونس:٥٧).

● ويُنسب الوعظ لله تعالى في بعض الآيات، كما في قوله تعالى ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (هود:٤٦) وقوله جل شأنه ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣١).

- فالقرآن الكريم عامر بالمواعظ المؤثرة القوية التي تحرك القلوب وتستجيش عواطف المؤمنين، وتزلزل قلوب البلداء والخامدين. إنها مواعظ إلهية أنزلها الله تعالى خالق الخلق، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. والنبي ﷺ والمسلمون من ورائه مأمورون بالوعظ الحسن، والله تعالى يقول لهم ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥) وفي هذه الآية الكريمة منهج كامل للدعوة الإسلامية، وتطوير الخطاب الديني، وهو المنهج الذي نحاول تقديمه في هذه الدراسة.

● وعلى الداعية المسلم أن يدرس كتاب الله تعالى ويفهمه ، وبذلك يعرف الغاية القصوى للدعوة ، والمناهج الكفيلة بإبلاغه إياها . والقرآن الكريم يزوده بالزاد المنشود للنهوض بواجبات الموعظة الحسنة على أكمل وجه ممكن . وليس بوِسْع داعية مسلم أن ينجح في عمله دون الاستناد إلى القرآن الكريم ، سواء في الموعظة الحسنة أو الجدال بالتي هي أحسن ، أو بالحكمة في صيغها العديدة . والمهم أن يكون قادراً على معرفة الآية أو الآيات التي يستند إليها في المسألة المعينة التي يعالجها . ومن المؤلم أن هذه القدرة الأساسية المهمة محدودة لدى الدعاة عامة ، ومعدومة عند بعضهم . ولذلك يُستَشْهَد بآيات من القرآن الكريم في غير موضعها ، وبطريقة عشوائية وفوضوية ، وأحياناً يحاول البعض الانتصار لأفكارهم بآيات قرآنية لا تتصل بتلك الأفكار من قريب أو بعيد . وبعض الوعاظ والدعاة يتلو آيات القرآن ، ويجوِّدها ، ويتغَنَّى بها ، لكي يملأ الوقت المقدَّر للموعظة أو الخطبة ، ولا شيء سوى ذلك . فالرجل حافظ للقرآن عن ظهر قلب ، ولكنه لا يفقه مما يحفظه إلا القليل ، لأنه لم يحاول أن يتفقَّه ، وقَنَعَ بالتلاوة ، مجرد التلاوة ، دون بصيرة أو فقه .

المواعظ الإلهية

● ولهذا أعيد التوكيد أن منهج الدعوة الإسلامية بالموعظة الحسنة ، وبالجدال بالتي هي أحسن ، وبالحكمة ، وبكل الوسائل الدعوية لابد أن يستند إلى القرآن الكريم . والمهم أن يوجد لدى الداعية الفقه والوعي الكافي للاستشهاد بالآيات في موضعها الصحيح ، لا أن يحفظ القرآن ، ويتلوه ، اعتباطاً ، وفي غير مواضعه .

● ويذكُرُ القرآنُ الكريمُ نماذجَ للموعظة الإلهية فيقول ﷻ في حق اليهود الذين عصوا أوامره واعتدوا في السبت ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٦٥،٦٦) فالمسلم التقي يتعظ بما حاق بالعصاة لأوامر الله . ويستفيد الداعية المسلم من هذا الأنموذج الإلهي فيذكِّر المدعوِّين بما حاق بالعصاة

من النكال . وقد ذكرَ القرآن الكريم ما حاق بقوم نوح من الغرق ، وكذلك آل فرعون ، وثمود وعاد ، وغيرهم . قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ﴾ (الحاقة:٤-٧) فلْيَغْتَرِف الداعية الواعي من كتاب الله مادة مؤثرة قوية لا مثيل لها .

● ويعظ الله تعالى المؤمنين بتعليمهم الواجبات الأساسية الكفيلة بتأسيس المجتمع المسلم الراقي فيقول ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (النساء:٥٨) حقاً إنها نعم الموعظة ، فأداء الأمانات واجب أخلاقي بالغ الأهمية للمجتمع ، والإخلال به خطر عظيم يزلزل ثقة الناس بعضهم في بعض ، فتضطرب الحياة الاقتصادية وتنكمش ، ويفضي ذلك إلى فقر المجتمع وتدني نشاطه العام . والحكم بالعدل هو أساس الملك ، وضمان الرضا والسكينة بين الناس ، وتبعاً لذلك كان هو الدواء الناجح للقضاء على الجريمة ، وتوطيد دعائم الأمن والاستقرار ، لينشط المجتمع في كل المجالات دون تهديد أو عدوان على المال أو النفس .

● فهذا كنز ثمين للدعاة المسلمين ، يوظفون جواهره في إبراز عظمة الإسلام كدين شامل كامل ، ينظم الحياة الدنيا لكي تفضي إلى جنة الآخرة ، بل ينشئ جنة في الدنيا تكون طريقاً إلى جنة الآخرة .

- وهناك مخاطبون لا يصلح لهم في الوعظ إلا التخويف والزجر الشديد . يذكر القرآن الكريم منهم المنافقين ، فيقول ﷻ ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ۝٦٢ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾(النساء:٦٢،٦٣) إن الله تعالى يعلم سرَّهم ونجواهم ، الذي هو سر الأشرار ، ونجوى الفجار ، الذين يحاولون أن يخدعوا النبي والمسلمين . فإذا علموا أن اللهَ

يعلم نفاقهم ، وأنه أخبر رسوله بذلك ، أدركوا خيبتهم وإخفاقهم ؛ فإذا جاءوا يعتذرون لك فلا تقبل أعذارهم ، وازجرهم زجراً قوياً في السر والعلانية[1].
والداعية المسلم يتعلم درساً من هاتين الآيتين الكريمتين . فإذا شعر بذيوع النفاق بين المخاطبين ، يكفيه أن يفسر هاتين الآيتين ، وربما أضاف آيات وأحاديث أخرى تدين المنافقين وتتوعدهم أشد العذاب .

مواعظ النبي

● وقد كان رسول الله ﷺ يعظ كل من يدعوه إلى الإسلام بأن يتلو عليه شيئاً من القرآن الكريم . يقول الطفيل بن عمرو الدوسي إن رسول الله ﷺ : عرض عليّ الإسلام : «وتَلا عليّ القرآن ، فَلا واللهِ ما سمعت قولاً قط أحسنَ منه ، ولا أمراً أعدلَ منه . قال : فَأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحق»[2].

– والتقى رسول الله ﷺ في مكة بجماعة من يثرب منهم «أنس بن رافع» ومعه فِتْيَةٌ من بني عبد الأشهل ، فقال : «هل لكم في خير مما جئتم له ؟» فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : «أنا رسولُ الله ، بعثني إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل عليّ الكتاب». قال : ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن»[3].

– وبعث رسول الله ﷺ مُصعب بن عمير مع وفد «العقبة الأولى» ، وأمَرَه أن يُقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويفقّهم في الدين»[4]. ونفّذ مُصعب أمر رسول الله ، فكان يتلو القرآن على كل من يجلس إليه ليعرفَ أمره . وأسلم بدعوته خَلْقٌ كثيرون منهم سيِّدان من بني عبد الأشهل هما سعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حُضَيْر رضي الله عنهم جميعاً[5].

(١) راجع تفسير الآيتين في «الجامع» للقرطبي .
(٢) سيرة ابن هشام ؛ جـ١ ص ٣٨٣ .
(٣) نفسه ؛ ١/٤٢٧ .
(٤) نفسه ؛ ١/٤٣٤ .
(٥) نفسه ؛ ١/٤٣٦ .

- وأسلم عمر بن الخطاب ﷺ بعد أن قرأ صدر سورة طه ، بعد أن كان يقال عنه إنه لا يُسلم حتى يُسلم حمار الخطاب !! يأساً منه لما كان يُرى من قسوته على من أسلم من المكيين[1].

● ولقد اختلفت أفكار المخاطبين الآن ، ولم يعودوا يملكون البصيرة التي تمكنهم من إدراك العظة والعبرة بيسر كما كان حال من سبقهم . فعلى الداعية أن يساعدهم على إدراكها .

● والسُّنة النبوية المطهرة هي التي تأخذ بيد الداعية المسلم إلى فهم القرآن ، وبيان مبانيه ومعانيه ، ومناهجه ومقاصده . فليس في الإسلام علم إسلامي يقوم على فصل القرآن عن السُّنة ؛ وعلم الدعوة كسائر العلوم الإسلامية يقوم على مبادئ الكتاب العزيز وهدايته في ضوء بيانات السُّنة النبوية وإرشاداتها ، ومن البدهي أن هذه الحقيقة لا تمنع الداعية المسلم من الاستفادة من أي مصدر كان ، لأن «الحكمة ضالةُ المؤمن حيثما وجدها فهو أحَقُّ الناس بها». كما قال رسول الله ﷺ[2].

- وكان رسول الله ﷺ وهو يقضي بين الناس في الخصومات ، يعظهم أن يعتمدوا على الحجج الزائفة للفوز بقضاء الرسول لصالحهم ، ويذكرهم بنار جهنم التي أعدت للظالمين . فعن أم سلمة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليَّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألْحَنَ بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع! فمن قضيتُ له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطعُ له قطعةً من النار »[3]. فهو يحذرهم من الحرام ومن أكل المسلم مال أخيه بالباطل ، وإنَّ حُكْمَ النبي مبني على ما يسمع من طَرَفي النزاع ، وقد يكون أحدهما أبْرع في عرض حجته ، فيحكم له النبي ، في حين أنه ليس صاحب حق .

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ ١/٤٤٢ ، ٤٤٣ .
(٢) أخرجه ابن ماجه ؛ رقم ٤١٦٩ .
(٣) أخرجه البخاري في الصحيح ؛ فتح الباري ؛ ٩٣- كتاب الأحكام ؛ باب ٢٠ رقم ٧١٦٩

- وفي هذه الأحاديث قواعد مهمة للدعوة بالموعظة الحسنة :

◘ الأولى : أنها للزجْر عن الحرام ، والتحذير من التزوير والخداع والتضليل ،

◘ والثانية أنها لتقرير مبدأ «أن حكم القاضي لا يغير الحقائق» ،

◘ والثالثة أنها تزجر عن ذلك بالتذكير بنار جهنم ، لهزّ عواطف المتخاصمين .

● وفي حديث آخر عن ابن مسعود قال : «كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلُنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا»[1]. فهاهنا قاعدة دَعَوية وتربوية مهمة تقضي بتنظيم أوقات الموعظة الحسنة ، اجتناباً للسآمة التي قد تصيب الموعوظين . هذا على الرغم من أن الواعظ هو النبي محمد ﷺ ، وأن الموعوظين هم الصحابة ﷺ . وما جدوى المواعظ إذا كان المدعوون خاملين أو شاردي الذهن ، فاقدي النشاط؟ وهل يتعلم الدعاة اليوم هذا الدرس العظيم؟ إن هذه القاعدة الدعوية منتهكة لدى الكثير من الدعاة اليوم ؛ فبعضهم يطيل الموعظة إطالة مُملّة ؛ وهو لا يملك من العلم واللغة والجاذبية ما يشد اهتمام المخاطبين بضع دقائق . وهذا يحبط الأثر الدعوي المحتمل لعظة الواعظ .

● وهذا خبر آخر عن «الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره . فعن ابن مسعود الأنصاري قال : قال رجلٌ يا رسولَ الله ! لا أكادُ أُدْرِكُ الصلاة مما يطوِّل بنا فلان ، فما رأيتُ النبي ﷺ في موعظةٍ أشَدَّ غضباً من يومئذٍ ، فقال : أيها الناس! إنكم مُنَفِّرون! فمن صلى بالناس فَلْيُخَفِّف ، فإن فيهم المريضَ والضعيفَ وذَا الحاجة»[2].

- والموعظة النبوية الحسنة هنا ، والغضب فيها غضباً شديداً ، غايتها تعليم المسلمين تخفيف صلاة الجماعة ، والنهي الشديد عن تطويلها بما ينفر الناس منها ، ويؤدي إلى شرود الأذهان ، والعجز عن متابعة ما يُتلى من القرآن الكريم .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ؛ فتح الباري ؛ ٣- كتاب العلم ؛ باب ١١ رقم ٦٨ .
(٢) نفسه ؛ ٣ كتاب العلم- باب ٢٨ -رقم ٩٠ .

● ولا بد أن نتذكر ونحن نستعرض مثل هذه القاعدة الدعوية مبدأ «فقه الحال» الذي يقتضي من الداعية التمييز بين أحوال المخاطبين ، وتبعاً لذلك يختصر ويوجز ، أو يطيل قليلاً . فهو في جميع الأحوال مطالب بمراعاة أحوال المدعوين ، بحيث لا يصيبهم سأم ولا نفور . وليتذكر أنه داعية للإسلام وليس منفِّراً من الإسلام . ومن المؤسف أن بعض الأئمة يتبارون في إطالة دعاء القنوت الذي صار ميداناً لإظهار ملكات الحفظ والاستظهار ، والبكاء والتباكي ، دون مراعاة للقواعد الدعوية .

● ومن ممارسات النبي ﷺ للموعظة الحسنة اختيار الوقت المناسب لها ، واختيار المضمون المناسب لذلك الوقت أو تلك اللحظة . فعن عليّ قال : «كنا في جَنَازَة في بقيع الغَرْقَد ، فَأَتَانا النبي ﷺ فقعد ، وقعدنا حوله ، ومعه مِخْصَرَةٌ . فَنَكَّسَ فجعلَ ينكتُ بمخصرته ، ثم قال : ما منكم من أحد ، ما من نفس مَنْفُوسةٍ إلا كُتِبَ مكانُها من الجنة والنار ، وإلا قد كُتبت شقيَّةً أو سعيدة . فقال رجل يا رسول الله! أفَلا نتكل على كتابنا ونَدَعُ العملَ ، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ قال : أما أهل السعادة فَيُيَسَّرون لعمل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فَيُيَسَّرون لعمل أهل الشقاوة». ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ (الليل:٥) الآية [1].

- فهذا وقت تخيم على الناس فيه رهبة الموت ، فتستعد قلوبهم لاستيعاب الدرس على خير وجه ، وهو درس مُهول ، درس الكتاب المكتوب على كل فرد من البشر ، يحدد مكانه من الجنة أو النار وهذه هي القاعدة الأولى . والدرس الثاني هو واجب العمل ، وخطأ الاتكال على المكتوب . وهذا الجواب النبوي الكريم هو الذي حار الفكر البشري الفلسفي في العثور عليه ، فذهب بعض الفلاسفة إلى تبني الجبرية وذهب آخرون إلى تبني الحرية ، وتردد غيرهم بين الطرفين في لجاج طويل كثيف لا جدوى منه !

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح : فتح الباري ٣ : ٢٣ كتاب الجنائز - باب ٨٢ - رقم ١٣٦٢

- ومع امتداد الزمن وكثرة المذاهب الفلسفية والدينية التي عالجت مسألة القضاء والقدر ، كانت هذه الموعظة النبوية الكريمة هي الفائزة في أية مقارنة علمية موضوعية بينها وبين تلك المذاهب . والمقارنات قاعدة مهمة في منهج الدعوة ، ويجب على الداعية إجادتها والتمرس بها .

● فالقاعدة الدعوية الأولى هي واجب تحيُّن الوقت للموعظة .

● والقاعدة الثانية اختيار الدرس المناسب للوقت المناسب .

● وعن أم المؤمنين أم سلمة قالت : استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة فقال : « سبحان الله! ماذا أُنزل الليلة من الفتن ، وماذا فُتح من الخزائن؟ أيقظوا صَوَاحِبَات الحُجَر ، فَرُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة »[1] .

- وقد شرح ابن حجر رحمه الله هذه العظة النبوية فقال إن عبارة « سبحان الله » تفيد التعجب والتعظيم : « وعَبَّر عن الرحمة بالخزائن ، كقوله تعالى ﴿ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ (ص:٩) وعن العذاب بالفتن ، لأنها أسبابه». و صَوَاحِبَات الحُجَر هن أمهات المؤمنين ، وقد أمَرَ بإيقاظهن للعبادة في جوف الليل : «أي ينبغي لهن أن لا يتغافلن عن العبادة ويعتمدن على كونهن أزواج النبي »[2] .

● ومن هذه العظة ندرك أحد واجبات الداعية المسلم ألا وهو التحذير من خداع الدنيا والغفلة عن الآخرة ، وأن « الكساء» في الدنيا ـ أو طيب العيش ـ قد يفضي بأهله إلى «العراء» في الآخرة . وهنا لُبُّ الموعظة ، أعني المقابلة بين حالَيْن متناقضين : حال العيش الطيب الرغيد ، وحال الإفلاس يوم الحساب ! فهذه المقابلة كفيلة بإثارة العاطفة الدينية ، وتحريك الهمم البدنية والنفسية ، لدفع أثقال النوم اللذيذ ، والدخول في عبادة الله العزيز الحكيم .

● إن هذه المقابلة البليغة المؤثرة هي إحدى قواعد الموعظة الحسنة التي يجب أن يتعلمها الداعية وأن يمارسها .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ؛ فتح الباري ؛ ٣ كتاب العلم- باب ٤٠- رقم ١١٥ .
(٢) نفسه ؛ الشرح .

مواعظ لقمان

● وذَكَرَ القرآن الكريم عظة لقمان عليه السلام لابنه ، فقال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان:١٣) والشرك أكبر الكبائر ، لذلك بدأ به ذلك الواعظ الحكيم . وكان لقمان صانعاً ، ولم يكن نبياً . وهو يعظ ابنه ـ الذي قيل إنه كان كافراً ـ فيناديه في رقة ، وينهاه عن الشرك ، الذي هو ظلم عظيم للمشرك نفسه . ثم ذَكَّرَهُ بقدرة الله الشاملة التي لا يخرج عن سلطانها شيء ، ولو كان ضئيلاً جداً ، ولو وُجِد في أي مكان في الأرض أو في السماء . فكل المخلوقات صغيرة وكبيرة هي من خلق الله ، وتخضع لإرادته ونظامه الكوني العظيم ثم يأمره بالصلاة والطاعات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على البلاء ، كما نهاه عن الكبر . وقد عرض القرآن الكريم موعظة لقمان في أسلوب بليغ أخّاذ مؤثر .

– ونستخلص من هذه الموعظة واجب «فقه الحال» الذي يميز بين أحوال المخاطبين . فنظراً لأن الابن كان كافراً ، وجب أن يبدأ الواعظ بالنهي عن الكفر ، وبيان فحشه بوصفه أكبر الكبائر . وبعد هذا النهي يذكِّره بقدرة الله التي يخضع لها الوجود كله ، ولا يستطيع أحد أن يهرب منها أو يفلت من عقابها ، لكي يخوِّفه من غضب الله في الدنيا ، وعذابه الأليم في الآخرة . وهناك خلاف حول إيمان الولد ، ولكني أرجِّح أنه آمن وإلاَّ لَمَا أَمَرَهُ أبوه بإقامة الصلاة ، والدخول في طاعة الله ، والقيام بواجبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على البلاء ، والبراءة من الكبر . فالواعظ الحكيم لا يأمر كافراً بالصلاة والطاعات !

استغلال طبيعة البيئة

● والموعظة الحسنة تستغل طبيعة البيئة للتأثير في المخاطبين . فالداعية إذا ألقى محاضرة في بيئة صناعية يجب أن يشير إلى الظواهر التي تحيط بالناس فيها ، مثل المناجم والمواد الخام من التربة والزراعة ومن الأقطان والأصواف المحلية والمستوردة ، والقوى الكهربية المتولدة من الشلالات وتيارات الهواء . فهذه الظواهر

تعين الجمهور على فهم الرسالة الدينية ، وتثبيت إيمانهم بالله الخالق المدبر ﷻ ، وتيسر استمالتهم إلى الطاعة .

- وفي البيئة الزراعية آيات بينات تنطق بها حياة الزروع والنباتات والأشجار . فالأرض الجرداء تستقبل الأمطار ، فإذا هي مخضرة ، ثم لا تلبث أن تنمو ، ثم تثمر ، لكي يَطْعَمُهَا الحيوان والطير والإنسان .

- والبيئة الساحلية تعيش على خيرات البحار من الأسماك ، وعلى الملاحة والموانئ التي تعج بالسفن الغادية والعائدة ، وعليها من أرزاق العباد خير كثير .

● وآيات القرآن الكريم تسعف الكاتب والمتحدث والمؤلف والمعلم على خير وجه . فكتابنا العزيز عامر بالإشارات والأوصاف البليغة الرائعة لكل المخلوقات في كل البيئات : من البحار والأنهار ، والأمطار ، والسحاب والغمام والرياح والعواصف ، والشمس والقمر والنجوم ، والكواكب ، والزروع والورود والحبوب والفواكه والجنات .

شروط عمل الموعظة الحسنة

● ويقول الأستاذ محمد قطب إن : « الموعظة المؤثرة تفتح طريقها إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان ، وتهزه هزاً ، وتثير كوامنه ، لحظة من الوقت ، كالسائل الذي تُقَلَّب رواسبه فتملأ كيانه ، ولكنها إذا تُركت تترسَّب من جديد » .

« لذلك لا تكفي الموعظة الحسنة وحدها في التربية إذا لم يكن بجانبها القدوة ، والوسط الذي يسمح بتقليد القدوة ويشجع على الأسوة بها . . »

« وحين توجد القدوة الصحيحة فإن الموعظة تكون ذات أثر بالغ في النفس ، وتصبح دافعاً من أعظم الدوافع في تربية النفوس »(1) .

● وهذا الكلام يطرح أسئلة مهمة : فكيف تكون موعظة الدعاة مؤثرة ؟ وشرط وجود القدوة الحسنة ، أو الوسط الاجتماعي الذي يشجع على اتباع القدوات

---

(1) انظر كتابه : « منهج التربية الإسلامية » دار الشروق ؛ ط ٦ سنة ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م ؛ ص ١٨٧ .

الحسنة ، يثير الأسئلة التالية : كيف نُوجِد القدوات الحسنة ، وكيف ننشئ المجتمع المسلم الذي يشجع على وجودها وعلى اتباعها ؟

● وهذه أسئلة كبيرة جداً أمام التطوير المنشود للخطاب الديني .

القصص في الموعظة

● وفي اعتقادي أن الموعظة تكون مؤثرة في المخاطبين إذا اشتملت على عناصر عديدة ، مثل : قصص الأنبياء والسلف الصالح ، تلك التي تبين تضحياتهم من أجل دينهم ، وتجسد إيثارهم الرائع على أنفسهم من أجل أهليهم ، وأرحامهم ، وجيرانهم ، وأمتهم . وقصص البطولة الرائعة التي تحلّى بها رجال عظماء من الصحابة والتابعين ، وعلى امتداد التاريخ الإسلامي ، رجال من أمثال علي ابن أبي طالب ، وأبي دُجانة ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، والقعقاع ابن عمرو ، وزهرة بن حُوَيَّة ، وصلاح الدين الأيوبي ، والأمير عبدالقادر الجزائري ، وعمر المختار ، وعبدالكريم الخطابي ، رحمهم الله جميعاً . وهذه عينة وليست إحصائية حصرية .

- وفي مجال العلم ، الموعظة الحسنة لا بد أن تستند إلى عظمة رجال أفذاذ أمثال : أبي حنيفة ، ومالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل والشافعي ، والحسن البصري ، والبخاري ومسلم ، والغزالي وابن تيمية والعز بن عبدالسلام ، رحمهم الله جميعاً . وهذه أمثلة من قائمة ذهبية طويلة ، كل اسم فيها نجم بازغ في سماء العلم والمعرفة ، وسيرته كلها عظات تثير الإعجاب والتقدير .

- وفي كل مجال هناك مثل هؤلاء النجوم . وعلى الداعية المسلم أن يدرس تاريخ الإسلام ، ويتحقق من قصص الزعماء والأبطال والعلماء والعُبَّاد الكبار ، ويصفّيها من الإضافات التي تكدِّر صَفوَها وتخرجها عن حقيقتها الواقعية إلى عالم الأساطير والخرافات ، كما حدث لقصة الصحابي البدري الجليل ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، وقصة الصحابي الزاهد سعيد بن عامر ، وغيرهما ﷺ جميعاً .

● ويجب على الداعية المسلم ـ كاتباً كان أو متحدثاً ـ أن يدرس آثار الوعاظ والعلماء الكبار ، ويقتدي بهم .

الوعظ بالفيديو

● ولقد رأيت في الفترة الأخيرة ، منذ بداية القرن الحادي والعشرين الميلادي ، محاولات لتطوير منهج «الموعظة الحسنة» في أحاديث عبر شرائط الفيديو . وقد شاعت وانتشرت هذه الشرائط ، واشتهر بعض الوعاظ الذين مارسوا تلك المواعظ . غير أن بعض الأخطاء وقعت في بعض تلك الأشرطة . ففي أحدها تحدث الواعظ عن أضرار المخدرات ، ثم جاء بشاب تاب وأناب . وقص الشاب قصته ؛ وفي أثناء ذلك أخذ الولد يوجه اللوم لوالديه ويحملهما مسئولية سقوطه فريسة للمخدرات . وأحسب أن بر الوالدين لا يسمح بذلك ، لأنه لا يسمح بأن يقال لهما «أُف !» والواعظ يعرف ذلك ، لكنه لم ينتبه . وكان من اليسير تحقيق الغاية من الموعظة دون رؤية الصورة ، ودون ذِكر أسماء الوالدين أو الولد ، والاكتفاء بسماع الصوت فقط .

● هذه الواقعة تشير إلى ضرورة ضبط الأداء في «الموعظة الحسنة» بمنهج «الحكمة» ؛ فهما في الحقيقة متكاملان ومتداخلان ، والداعية ينتقل من «الموعظة الحسنة» إلى «الحكمة» ، ثم يعود إلى الموعظة ، وهكذا ، في المقال الواحد أو القصة أو المسرحية أو الخطبة الواحدة . وإن «الموعظة» مجردة من «الحكمة» هي «موعظة سيئة» ، كما حدث في موعظة الشاب المدمن الذي تاب الله عليه . وليس عبثاً أن أَمَرَ اللهُ تعالى بالدعوة بالحكمة مطلقاً دون شرط أو قيد ، ثم قيَّد الدعوة بالموعظة بـ«الحسنة» .

● والآن نستكمل الحديث في مسألة القدوة والوسط الاجتماعي اللذين اشترطهما الأستاذ محمد قطب لاستمرار عمل «الموعظة الحسنة» . إن هذا الشرط يضعنا أمام حقيقة تآزر المؤثرات الدعوية والتربوية ، وأهميته البالغة ، ليؤدي كل مؤثر دوره بنجاح ، ولا توجد ـ عندئذ ـ ظاهرة «التهادُم المتبادل» بين المؤثرات المختلفة . لكن هذا التآزر عسير المنال !

- إن الواعظ قد ينجح في جذْب انتباه المشاهدين له في التلفاز وقد يحرك كوامن قلوبهم ، لكنَّ مسرحيةً هابطةً تُعرض بُعَيْدَ « موعظته الحسنة » كفيلة بإخماد العاطفة الدينية التي حركتها موعظته ، وإحلال تشكيلة من المشاعر الهابطة محلها .

- والحل في يد السلطات الثقافية والدينية في أي مجتمع . إن عليها أن تجعل المسرحية كالموعظة الحسنة ، والرواية كالحكمة ، تياراً واحداً ، يتجه إلى قيم عليا إسلامية ، لتنشئة الإنسان المسلم الصالح ، مع الاختلاف بين الوسائل والمناهج الدعوية والتربوية والفنية . وهذا ليس مستحيلاً إذا كانت « الدعوة » على وفاقٍ مع « الدولة » ، لأن هذا الوفاق يكفل وحدة القيم العليا ووحدة الغايات القصوى ووحدة المرجعية . أما إذا اختلفت « الدعوة » مع « الدولة » ، فكانت الدعوة كما يجب أن تكون دائماً « إسلامية » ، وكانت « الدولة » اشتراكية علمانية ، أو رأسمالية براجماتية ، فإن القيم سوف تختلف ، ووسائل التربية والدعوة سوف تتصادم ، وتتهادم ، كما هو حاصل الآن في كثير من بلاد المسلمين . فالإسلام يقول إن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله أعلى القيم ؛ والعلمانية تقول : إن الحرية أعلى قيمة من الإيمان . ولذلك تعتبر حرية الردة من حقوق الإنسان . والإسلام يعتبر الردة نَسْفاً لأعلى قيمة في الدين . وهكذا تتصادم « الدعوة » ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ مع الدولة العلمانية ووسائلها التربوية والفنية .

● إن المجتمع المسلم ينشأ بجعل الدولة مع الدعوة . عندئذ تثمر الموعظة الحسنة ، متكاملة مع « الحكمة » ، وتتكاثر القدوات الحسنة التي تجسِّدها في الواقع والحياة .

كيف يستطيع الداعية أن يؤثر في غير المسلمين؟

● إن هذا هو السؤال المهم يطرح نفسه الآن :

- وأبادر إلى القول إن « الموعظة الحسنة » ـ غالباً ـ ليست المنهج السديد لدعوة غير المسلمين ، وخصوصاً في عصرنا اليوم ، حيث برع المخاطبون في الجدال

والمناظرة بالحق وبالباطل ، وفي الاستناد إلى الحقائق الكونية والعلمية ، التجريبية والنظرية . فإذا لم يكن الداعية على درجة عالية من المعارف العلمية التجريبية ، وأحوال الدول والأمم في هذا العصر ، فإنه لا يصلح لدعوة غير المسلمين ، كاتباً أو متحدثاً .

● «الموعظة الحسنة» هي منهج دعوة المسلمين العصاة إلى الطاعة . ولكن هذا لا يسوِّغ للدعاة استعمال الخرافات والخزعبلات للتأثير في مشاعر المخاطبين ، لأن هؤلاء المخاطبين فيهم الكثيرون من المتعلمين والمثقفين وأنصاف المتعلمين وأشباه المثقفين ، وهم يسخرون من الداعية الذي يستجيز لنفسه رواية أخبار خرافية عن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أو عن الصحابة ﷺ . فلم يبق للداعية غير التأثير في القلوب والمشاعر عن طريق الحقائق . والإسلام غني بهذه الحقائق ، في القرآن الكريم وحقائق السيرة المطهرة . والتاريخ الإسلامي منجم من الذهب للداعية الباحث عن الحقائق المدهشة المؤثرة .

ـ بهذا تقترب «الموعظة الحسنة» من «الحكمة» ومن الجدال بالتي هي أحسن ، مع تميزها بالتوجه إلى المشاعر والوجدان . ويشعر المرء أمام هذه الحقائق بالبون الشاسع بين «الموعظة الحسنة» كما يجب أن تكون ، وبين أحوال الدعاة في واقعنا الآن ، كما يشعر بثقل المسئولية على عاتق كل من يحاول تطوير الواقع الراهن المتدهور إلى المستوى المنشود ، أو الاقتراب منه . فلا بد من تفكير عميق وتخطيط دقيق ، وعمل شاق ، ونفقات باهظة للنهوض بتلك المهمة ، في مجال التعليم الجامعي الإسلامي عامة ، وفي كليات الدعوة ومعاهدها على وجه الخصوص . وهذا ما نريده من تطوير الخطاب الديني .

● وإضافة إلى ما سبق نستخلص هذه القواعد الدعوية :

◘ أن الرقة واللطف في بداية الموعظة مطلوبان ،

◘ وأن من البدهي أن نبدأ بالدعوة إلى العقيدة الصحيحة طالما كان المدعوون كفاراً أو كانوا مسلمين مختلي العقيدة ، ويكون المنهج هو الحكمة والجدال بالتي هي أحسن .

◘ فإذا استجاب المدعوون وآمنوا ، دعوناهم إلى العبادات .

◘ وأن التذكير بقدرة الله تعالى وعظمته عُدَّة الداعية لإقناع المخاطبين وتخويفهم من عواقب الشرك أو المعاصي والآثام .

◘ وأن التعبير الواضح الحاسم المعبر مطلوب للداعية ، والقرآن الكريم يزوده بذلك . والمهم أن يعرف ماذا يريد ، لكي يصح اختياره للآيات التي يستند إليها ويستشهد بها .

* * *

الفصل السادس عشر

الجدال بالتي هي أحسن

تمهيد

● الاختلاف بين أفراد البشر وجماعاتهم فطرة . ولهذا كان الجدال ظاهرة بشرية عامة ، فقال خالق البشر ﷻ ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف: ٥٤) وعلى هذا يجب أن يكون هدفنا تهذيب الخلاف ، وتقنين الجدل ، لا القضاء على الخلاف والجدل ، فطلب ذلك هو طلب للمستحيل ، لأنه طلب تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والفطرة لا تتغير بأية وسيلة من وسائل التغيير ، ولا فائدة من تغييرها ألبتة .

● والداعية يواجه المخالفين من المسلمين ومن غير المسلمين ، ويواجه اليوم صُنوفاً من الذين يحملون أسماء إسلامية ، من أبناء جلدتنا ، من العلمانيين «الاجتزائيين» الذين يؤمنون ببعض القرآن ويكفرون ببعض ، ومن الماديين والمنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام ويعملون على إزاحته من حياة المسلمين ، كما يواجه الداعية أرتالاً من المستشرقين والمنصِّرين الأجانب ، وأعداداً من الكُتاب والصحافيين والأكاديميين الأمريكيين والأوربيين ، والفنانين المفسدين ، وفئات معادية أخرى ، وهم يجادلون المسلمين متسلحين بالعلوم التجريبية والفلسفات الحديثة والمعاصرة .

● فطوفان من الجدل يغمر الساحات الفكرية ويُغرق الشعوب المسلمة ، عبر الصحافة والإذاعة والتلفاز والسينما والمسرح ، والقنوات الفضائية . وقد رأينا كيف كانت التغيرات العميقة الواسعة الشاملة في حياة المسلمين ، أفراداً وجماعات ، في

الاعتقاد والسلوك والقوانين والدساتير والعادات والتقاليد ، والأزياء والعمارة والفنون ، والآداب ، وكل ناحية من نواحي الحياة ظاهرها وباطنها[1].

● ولم يقع للأمة المسلمة على امتداد تاريخها أن واجهت مثل هذا الطوفان ، فكان على الدعاة قبول تلك التحديات ، وبالأسلحة نفسها التي استخدمها أعداؤها ، وكان الجدال أحد تلك الأسلحة .

- ونظراً لحدة الخلافات بين الإسلام وأعدائه ، ونظراً لامتداداتها إلى العقيدة والشريعة ، وجدنا الخاصية الجدلية تطبع معظم وسائل الدعوة ، فجرت المقارنات بين الإسلام والفلسفات المادية على أعواد المنابر ، وفي الكتب المدرسية والثقافية ، وفي الدروس الوعظية ، وفي المقالات الصحفية ، وفي الفنون والآداب . ولا تزال الأوضاع الجدلية سائدة ، لأن الصدام بين الإسلام والمادية والعلمانية والرأسمالية والاشتراكية والشعوبية ، والقاديانية والبهائية ، لا يزال محتدماً .

● هذه الحقائق تجعل دراسة الجدل ضرورية للداعية ، لكي يتمكن من نصرة الإسلام دون أن يتورط في الآثام التي قد يجره إليها المجادلون العلمانيون[2] .

---

(١) راجع الباب الأول من هذه الدراسة .

(٢) وكان أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق . م) الفيلسوف اليوناني الكبير قد اختار لمؤلفاته صيغة «المحاورات» . وفيها جرت المجادلات بين «سقراط» ـ أستاذه ـ وبين السوفسطائيين . ويقال إن أسلوب الحوار هو الذي ضمن لها القبول والانتشار ، على الرغم من السلبية التي لا تفضي بالحوار إلى مفاهيم واضحة محددة . والحق أن منهج الحوار والجدل والمناظرات يكفل للعمل الحيوية ويبث فيه الحرارة ، وبذلك يجذب المستمع أو القارئ إليه ، ويمهد السبيل لإقناعه بما يحمله إليه من توجهات وأفكار . ولقد رأى الفيلسوف الألماني الكبير «هيجل» أن الجدل ظاهرة كونية ؛ وحاول أن يفسر تطور التاريخ البشري استناداً إليها ، فالفكرة المعينة تسود فترة ، ثم تظهر فكرة أخرى مخالفة لها ، وتسعى للتغلب عليها ، وقد تتغلب عليها فعلاً ، وتسود في المجتمع بأن تتداخل مع الفكرة الأولى وتكوّن مركباً منهما تكون له السيادة . ثم تعود الكرّة من جديد ، فتظهر فكرة مخالفة للفكرة السائدة ، وتجادلها ، وتنشئ مركباً جديداً تكون له السيادة . وهكذا يتطور التاريخ البشري . لكن فلسفة هيجل خاطئة ، لأنها تتجاهل وجود أفكار ثابتة دائمة لا تتغير .

معنى الجدال والجدل في لغة القرآن الكريم

● والجدال والجدل يأتيان بمعنى واحد في لغة القرآن الكريم . وقد ورد لفظ الجدال في آية الحج في قوله تعالى ﴿ . . . فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ... ﴾(البقرة:١٩٧) وورود لفظ الجدل في سورة الكهف في قوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف:٥٤)

- ومعنى الجدل والجدال : الدفاع ، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ (النساء:١٠٧) أي لا تدافع عن «طعمة بن أُبَيْرق» اللص الذي سرق ، ثم حاول إلصاق التهمة باليهودي البريء «زيد بن السمين»[١]. وكما في قوله ﷻ ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ (النحل:١١١) أي تدافع عن نفسها .

- وقد يكون الجدال «بالتي هي أحسن» فيكون حواراً رصيناً بين طرفين ، يريد كل طرف إثبات صحة رأيه ، دون أن يماري صاحبه أو يغضبه[٢]. وهذا هو الجدال المندوب شرعاً للمسلم . وقد أمرنا ربنا ﷻ فقال ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت:٤٦) وهذا يعني النهي عن الجدال بالأساليب السيئة التي تقوم على الأباطيل ولا تبتغي إثبات الحقائق .

● وصفوة القول ـ إذن ـ إن الجدال منه ما هو مأمور به شرعاً ، وهو الجدال المنضبط الرصين الذي يجب اصطناعه للدفاع عن الحق[٣]. وهو الذي يجب أن يتدرب الدعاة على إتقان ممارسته . ومنه ما هو مَنْهي عنه لأنه مُنْفَلِتٌ ، ولا يبتغي إثبات حق ، بل هي المغالطات والمراوغات الخبيثة المنكرة .

- والجدال بالتي هي أحسن لابد أن يستند إلى حقائق ، ويستخدم مصطلحات علمية . ولابد من تحديد موضوعه ، وهو ما يسمى «تحرير المسألة» عند الإسلاميين .

---

(١) سورة النساء ؛ الآية رقم ١٠٧ ، وتفسير الجامع للقرطبي .
(٢) تفسير الطبري للآية رقم ١٩٧ من سورة البقرة .
(٣) تفسير الطبري للآية رقم ١٩٧ من سورة البقرة .

● ومن الملاحظ أن معظم المجادلات التي اندلعت بين المسلمين والغربيين في العصر الحديث لم تلتزم بأصول الحوار بالتي هي أحسن ، وكانت في معظمها مغالطات لا تقوم على أساس من الحقائق . ولذلك كان من اليسير على الكُتاب المسلمين الكبار دحض الاتهامات التي وجهها المستشرقون إلى الإسلام[1].

غايات الجدال والمناظرة

● إذن الغاية من جدال أهل الكتاب هي بيان الدين الحق ، لا المكابرة ، وإظهار البراعة في المغالطة كما كان يفعل السوفسطائية اليونانيون القدماء ، (في القرن الخامس قبل الميلاد) . وبتوجيهات القرآن الكريم والاقتداء بالنبي ﷺ تبلورت أصول للجدل والمناظرة بُغْيَة إصابة الحق ، ومعرفة الصواب ، وتعرية الباطل . وهذا هو ما تبرزه آراء أئمة المسلمين .

- يقول الشافعي رحمه الله : « ما ناظرتُ أحداً فأحْببت أن يخطىء . وما في قلبي من علم إلا وَدِدْتُ أنه عند كل أحد ولا يُنسب إليّ »[2]. وقال أيضاً : « ما ناظرت أحداً إلا قلت : اللهم أجْرِ الحق على قلبه ولسانه ، فإن كان الحق معي اتبعني ، وإن كان الحق معه اتبعته »[3].

- وقد سئل حاتم الأصم رحمه الله عن سبب انتصاره في الجدال والمناظرة فقال : « معي ثلاث خصال أظهر بها على خصمي . . أفرح إذا أصاب . . وأحزن إذا أخطأ . . وأحفظ نفسي لا تتجاهل عليه »[4].

● وهكذا صار الجدال منهجاً للحوار تحكمه قيم علمية وخلقية سامية ، تصونه عن الانحدار إلى هاوية المراء العقيم والسفسطة الممقوتة ، لكي يتمكن من كشف الحقيقة ودحض الباطل .

---

(١) انظر : د . عبدالرحمن بدوي ؛ دفاع القرآن ضد منتقديه ؛ وكتاب محمد قطب : الاستشراق ؛ وكتاب د . مصطفى السباعي : الاستشراق والمستشرقون ؛ وكتابي : نقد الاستشراق ، دراسات تطبيقية .
(٢) آداب الشافعي ومناقبه ؛ ص ٩١ .
(٣) نفسه ؛ ص ٩٣ .
(٤) د . عبد الرحمن بدوي ؛ تاريخ التصوف الإسلامي ؛ ص ٩١ .

الجدال بالحجة والبرهان

● ويعلمنا الإسلام أن الحوار المفيد للدعوة يجب أن يستند إلى حجج مُقْنعة ، عقلانية ، لا خطابية ، إذا جرَى مع غير المسلمين . أما إذا دار بين طرفين مسلمين فيُستند أساساً إلى الكتاب والسُّنة ، وإلى جانبهما المنطق العقلي وحقائق العلم ، وبحسب متطلبات الموضوع .

● واحترام الحجة مبدأ أصيل في تراثنا الإسلامي . يقول الشافعي رحمه الله : « إن أصبتم الحجة في الطريق مطروحةً ، فاحكوها عني ، فإني قائل بها »(١). وفي العلوم الإسلامية تستند الحجج أساساً إلى القرآن الكريم والسُّنة المطهرة ، ولهذا يقول الشافعي : « أنتم أعلم بالحديث والرجال مني . فإذا كان الحديث صحيحاً فأعلموني ، كُوفياً كان أو بَصْرياً ، حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً »(٢).

- وتفسير هذه الأقوال مرجعه أن الغاية القصوى من الحوار والبحث في المجالات الإسلامية لها قداستها لأنها دين ، وحقيقة علمية في آن . ورفضها أو إنكارها إثم عظيم ، والمكابرة في مواجهتها ردٌّ للهداية والحق ، واحتضان للضلال . وفي هذا يقول الشافعي أيضاً : « هذا مثل حاطب ليل يقطع حزمة الحطب ، فيحملها ، ولعل فيها أفْعَى تلدغه وهو لا يدري »(٣).

- وقد أنكر القرآن الكريم على أهل الكتاب الجدال فيما ليس لهم به علم ، فقال تعالى ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٦).

● وكان المشركون يتذرَّعون بقضاء الله تعالى ومشيئته الماضية لتسويغ البقاء على الشرك ، فأنكر القرآن عليهم ذلك ولم يعتبره حُجة ، وقال ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه ؛ ص ٩٤ .

(٢) نفسه ؛ ص ٩٥ .

(٣) نفسه ؛ ص ١٠٠ .

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنعام:١٤٨،١٤٩).

- فلا جدوى من الحوار دون علم . ولا أحد يعلم مشيئة الله تعالى . ومن ثم لا يجوز عصيان أوامر الله استناداً إلى ظنون هشة ، كاذبة ، بأن الله تعالى شاءَ لهم ذلك .

● وعلى هذا كان على الدعاة - إذا دخلوا في حوار مع غير المسلمين - أن يتذرعوا بالحقائق العلمية ، والمعرفة الدقيقة بموضوع الخلاف ، والإحاطة الجيدة بفكر المخالفين وعقائدهم . هذا فضلاً عن المعرفة الوثيقة بالإسلام عقيدة وشريعة . ومن الجلي أن هذا لا يتحقق إلا بعد دراسات طويلة متعمقة ، ومثابرة على التعلم والاطلاع . وهذه الشروط نادراً ما نجدها في الكتابات الخطابية في مواجهة تهجمات الغربيين على الإسلام في مجالات الفكر والتاريخ والاجتماع والسياسة .

● والأمثلة كثيرة ، لكن مثالاً أو اثنين يكفيان لبيان هذا الواقع المؤسف .

المثال الأول : اعتبار المسألة بدهية واضحة بذاتها ولا تحتاج إلى حجة علمية أو برهان منطقي ، في حين أنها موضع إنكار وشك من الأطراف المخالفة . من ذلك أن أحد الكتاب المسلمين سلَّم تسليماً بأن « العلم لا يعارض الدين » ، دون أن يسوق أية أدلة تثبت ذلك أو تثبت مدى التعارض ومدى الاتفاق . ويذكِّرنا هذا الموضوع بكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في « دَرْء تعارض العقل والنقل » . لكن شيخ الإسلام لم ينف إمكان حدوث التعارض ؛ فإذا حدث سوء فهم في العلم ، أو خطأ في « النقل » ، فإن التعارض يقع . ولكتاب ابن تيمية عنوان آخر هو : « بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول »[1] . فقد يكون المعقول ، أو العلم ، غير صريح ، أو ملتبساً أو مظنوناً أو مشكوكاً فيه ؛ وقد يكون المنقول - وهو هنا الحديث الشريف - غير صحيح . عندئذ يقع التعارض .

---

(١) المطبعة الكبرى الأميرية ؛ ط ١ سنة ١٣٢١هـ .

● وفي العصور الحديثة وقع التعارض في مجال الفكر الفلسفي الذي أنكر وجود الله وكذب الأنبياء، وأنكر وجود الجن والشياطين والملائكة، وتبنى المعرفة التجريبية وأنكر الوحي كمصدر للمعرفة، كما تبنى المنفعة كقيمة عليا للأخلاق البراجماتية. وغير هذا كثير في مجالات علم الفيزياء والأحياء، والاجتماع والنفس والأنثربولوجيا. وقد تصدى العلماء المسلمون الكبار لهذه الموجات المتوالية من معارضة الدين، وأَبْلَوا بلاءً حسناً، لكن الكتابات الخطابية أخفقت، وهذا الذي بين أيدينا مثال واحد لها.

● ومن القضايا التي أثارها المستشرقون زعمهم أن الإسلام لا يحترم مبدأ «السببية» لأنه يقر بوقوع المعجزات والخوارق. ورد كاتب مسلم على هذا الزعم قائلاً إن الآيات القرآنية التي تؤكد السببية كثيرة «لا يتسع المجال لاستعراضها». لكنه لم يذكر آية واحدة، ولم يبرهن بالحجة أن المعجزات لا تتعارض مع السببية.

- والحق أن القرآن الكريم أكد أن الظواهر الاجتماعية ـ لا الفيزيائية وحدها ـ تخضع لسنن الله تعالى؛ والسُّنن الإلهية هي القوانين التي تسير عليها الظواهر في اطراد وثبات. وأساس القوانين هو «السببية»[1].

● وقد كتب ابن القيم رحمه الله فصلاً رائعاً عن السببية جاء فيه ما يلي:

«وبالأسباب عُرِفَ اللهُ. وبها أُطيعَ الله. وبها تقرب إليه المتقربون. وبها نال أولياؤه رضاه وجواره في جنته. وبها نصر حزبه ودينه، وأقاموا دعوته، وبها أرسل رُسَلَه وشرع شرائعه. وبها انقسم الناس إلى سعيد وشقي، ومهتدٍ وغَوي. فالوقوف معها والالتفات إليها والنظر إليها: هو الواجب شرعاً، كما هو الواقع قدراً»[2].

---

(١) محمد التومي: «الجدل في القرآن الكريم؛ سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م؛ ص ٢١٦، ٢١٧.

(٢) مدارج السالكين؛ جـ ٣ ص ٤٠٧-٤١٠.

● ويؤكد القرآن الكريم السببية واطراد القوانين الطبيعية أو السنن الكونية ، فيقول الحق تبارك وتعالى عن مصير المنافقين الأسود ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب:٦٢) وعن نصر الله للمؤمنين على الكافرين قال ﷻ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الفتح:٢٣) وعن الرافضين لدين الله استكباراً ، قال تعالى ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر:٤٣).

● فلا توجد ذرة شك في أن الإسلام يؤكد السببية التي تبني عليها القوانين - أو السُنن الكونية .

- وقد تعلم ابن خلدون على مائدة القرآن الكريم ، ونقل حقائقه ، فأنشأ علم الاجتماع الحديث .

● وأما المعجزات فليست نظاماً للكون ، ولكنها أحداث استثنائية يجريها اللهُ تعالى على أيدي الأنبياء ، تأييداً لدعوتهم إلى توحيده .

- المثال الثاني : «استبدال قضية موهومة بالقضية الحقيقية» . القضية الحقيقية هي : «إلى أي مَدًى يفسح الإسلام المجال لحرية الفكر العقلي والعلمي ، مع التمسك بالنصوص الثابتة ؟ هل نصوص الكتاب والسُّنة تخنق الفكر وتنسف حرية العلم؟» هذه هي المسألة التي أكثر أعداء الإسلام اللجاج حولها . أما القضية الزائفة فهي : «هل الإسلام يحث على استعمال العقل ؟» لقد ساق كاتب مسلم ٣٤ نَصًّا قرآنياً لإثبات أن القرآن يحث على استعمال العقل ، وترك القضية الحقيقية المطروحة !

والإسلام يفسح المجال للعقل في «ما لا نص فيه» - وهو مجال واسع جداً ، يشمل المجالات العلمية للفيزياء والكيمياء والرياضيات ، وسائر العلوم المادية والتقنية . وأوضاع المسلمين اليوم تشهد على مدى الحريات التي يتيحها الإسلام للعلم والعَقل ، باستثناء الفلسفات المادية الملحدة ، وما يبنى عليها من نظم وتشريعات ، وما يعبر عنها من آداب وفنون .

- فهذه الكتابات الخطابية التي يصدرها مسلمون لا تفيد الدعوة ، بل تصرف الاهتمام عن القضايا الحقيقية إلى قضايا وهمية . وكان سلفنا الصالح يقومون «بتحرير المسائل» قبل مناقشاتها لتحديد موضوعها بدقة . لكن العصور الحديثة شهدت في أحيان كثيرة غياباً ملحوظاً للدقة في الجدال والحِجَاج والحوار باستثناء كوكبة الرواد الكبار من العلماء ، والله تعالى يقول ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:١١١) ونحن المسلمين صادقون ، وعلى الحق ، فلا يجوز أن نقصر في البرهان على حقنا ، وعلى أباطيل مخالفينا ، والله تعالى معنا يهدينا ويوفقنا .

الخرافة بدل البرهان

● وعلى النقيض من توكيد القرآن الكريم للسببية ، وما يترتب عليها من اطراد القوانين الطبيعية والاجتماعية والسنن الكونية ، وأصول الجدال ، نجد المسيحية تستند في الإنجيل على المعجزات . وبسبب ذلك لا توجد براهين عقلية مقبولة على صحة ألوهية عيسى عليه السلام ، ولا على مبدأ التثليث الذي يرفضه كثير من المسيحيين أنفسهم .

نشر المسيحية بحد السيف

● وإذا لم يوجد البرهان ، يلجأ أهل الباطل إلى القوة . وهذا ما حدث في تاريخ الدعوة إلى المسيحية في أوربا .

- يقول ج . كرامبْ و إي جاكوب : «أما دخول المسيحية إلى بلاد النرويج فهو مثال لما يستطيعه ملك عديم الرأفة من تدابير عنيفة في سبيل الدين ، لأن الملك أولاف تريجنسيون (٩٥٥-١٠٠٠م) عقد النية على نشر المسيحية بين النرويجيين بحد السيف ، وهبطت جنوده على كل إقليم من الأقاليم النرويجية واحداً بعد آخر في غير هوادة أو رحمة»[١] . فمن رفض المسيحية قتل ، ومن قبلها مذعناً ، تُرك وشأنه . وكانت ضحايا تلك الحملة بالآلاف !

---

(١) راجع كتابهما : تراث العصور الوسطى ؛ جـ ١ ص ٤٦ .

- هذا مثال واحد . والأمثلة الدموية عديدة . وعلى الرغم من ذلك يجسرون على اتهام المسلمين زوراً بنشر الإسلام بحد السيف . وينقل هذا الاتهام مؤرخ عن مؤرخ ، ومستشرق عن مستشرق ، دون نقد أو مراجعة .

● واندلعت المجادلات في العصر الحديث بين المسلمين والغربيين ، دبلوماسياً وسياسياً ، ودينياً . وأصبح الجلوس إلى مائدة المفاوضات هو السبيل المفضل لحل المشكلات المعقدة . ويعتبر أحمد ديدات أكثر العلماء المسلمين جدالاً مع أهل الكتاب في العصر الحديث ، وكثيراً ما اشتبك مع أباطرة المنصرين في الولايات المتحدة الأمريكية[1]. وأسلوبه يمثل تطوراً مهماً في الخطاب الديني الإسلامي .

اجتناب سب المخالفين

● وينهانا القرآن الكريم عن سَبِّ المشركين لكيلا يسبُّوا الله تعالى . فيقول ﷻ ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام:١٠٨) فهذه - إذن - قاعدة منهجية يجب مراعاتها في كل الأنشطة الدعوية ، وفي الجدال العنيف خاصة .

- يقول المودودي رحمه الله إن على المسلم أن يدعو الناس جميعاً إلى الإسلام : «بكل جرأة وحماسة ، ولكن بدون أن يؤلم غيره ، ويجرح قلبه ، أو يشاتمه ، أو يلاعنه ، أو يتحامل على عقائده ، أو يحول بينه وبين مزاولته طقوس دينه ومراسمه ، أو يكرهه على اعتناق دينه قبل أن يقنعه بصحته»[2].

- لكن أصحاب المذاهب الأجنبية لم يتأدبوا بهذا الأدب في تعاملهم مع ديننا وكتابنا ورسولنا ﷺ . وأوغلوا في السباب الهابط المسف إلى أحط الدرجات . يقول «إميل دِرْ مِنْجمْ» : «لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هُوة

(١) أحمد ديدات ؛ بين الإنجيل والقرآن ؛ كتاب المختار ؛ (دون تاريخ) .

(٢) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ؛ ص ٤١ .

الخلاف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة . ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أشد الخلاف . فمن البيزنطيين من أوقروا الإسلام احتقاراً من غير أن يكلفوا أنفسهم ـ فيما خَلا جان داماسيين ـ مؤونة دراسته»[1]. ثم أورد سلسلة من السِّبَابِ المقذع الغليظ الذي ردده الكتاب الغربيون ، يعف قلمي عن تسطيرها هنا . ويعترف «وات» المؤرخ الذي كتب كتاباً عن «محمد في المدينة» أنه من بين جميع رجال العالم العظماء لم يُصَوَّر أحد بمثل هذه الصورة القبيحة ، ولم يُؤذَ أحد كما صُور رسول الله وكما أوذي[2].

● والحق أن تحسناً طرأ على كتابات الغربيين ضد الإسلام ورسوله منذ منتصف القرن العشرين تقريباً ، لكنهم لم يتوقفوا عن الاتهامات الرعناء ضد الرسول ﷺ وضد الإسلام . وما قاله الجنرال الأمريكي «بوكين» في نهاية أكتوبر سنة ٢٠٠٣ لن يكون آخر السباب المنحط . وللأسف ، رفضت الإدارة الأمريكية اتخاذ موقف من رجلها العسكري .

● وموقف الطرف غير المسلم في الجدال يؤثر على نوع الجدال المشروع . قال تعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٦).

– ويقول القرطبي في تفسيره للآية إن الجدال بالتي هي أحسن في هذه الآية معناه دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام ، بالحجة ، «لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة»[3]. ويُستثنى منهم ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ (العنكبوت:٤٦) وهم المعاندون الذين قالوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ ﴾ (آل عمران:١٨١) و ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ ﴾ (المائدة:٦٤) وغير ذلك من الأقاويل الفاجرة .

---

(١) د. محمد حسين هيكل ؛ حياة محمد ؛ مكتبة النهضة المصرية ؛ ط ٩ ص ١٠ .
(٢) د. محمد ماهر حمادة ؛ مراجع مختارة عن حياة رسول الله ﷺ ؛ ص ٥٥ .
(٣) تفسيره الآية في «الجامع».

● وينصح القرآن الكريم الداعية المسلم أن يقول لأهل الكتاب الذين أسلموا ﴿ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٦) فما داموا قد أسلموا فقد صاروا كسائر المسلمين ، يؤمنون بالقرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى للعالمين لا للعرب وحدهم . وبعد إعلان إسلامهم صار معبودهم هو إلهُ المسلمين ، لا فرق بينهم . والتوراة تجعل الإله خاصاً باليهود فقط . فالآية الكريمة تنبه الداعية المسلم إلى إعلان العبودية لرب العالمين ، رب العرب والعجم واليهود والنصارى والمجوس وسائر الأجناس والأمم . وهذا الإعلان يُشعرهم بالطمأنينة والمساواة ، وأن الإسلام لا يفرق بين مسلم ومسلم بسبب ما كان عليه من عقائد قبل اعتناق الإسلام ، وبهذا يستقر المهتدي الجديد على عقيدة التوحيد ، ولا يتردد بين الإسلام ودينه القديم ؛ وهذا هو الفلاح الذي يحرص عليه الداعية المسلم .

عقد المقارنات

● ومن قواعد الجدال عقد المقارنات بين الإسلام وبين الفلسفات والأديان التي تزاحمه ، كالعقلانية والوضعية والماركسية واليهودية والمسيحية . وهذا يتطلب معرفة المقولة المركزية لكل مذهب ، ثم مقارنتها بالمذهب الإسلامي المقابل لها .

● خذ مثلاً مبدأ «رينيه ديكارت» (١٥٩٦-١٦٥٠م) القائل : أنا أفكر إذن أنا موجود . فبهذا المبدأ يريد الفيلسوف الفرنسي الكبير أن يخرج من الشك إلى اليقين بوجود ذاته . والتفكير يثبت ذلك ، لأن العدم لا يفكر . نقول إن الإسلام لا يسمح بتسرب مثل هذه الشكوك في الفكر الإنساني بحيث تصل إلى الشك في كل شيء ! وهذا هو ما وصلت إليه الفلسفة العقلية بعد عناء طويل . فالله تعالى موجود ، ولا يمكن إنكار وجوده ، لأنه هو خالق كل موجود ، ولا تفسير لوجود الإنسان والحيوان والجماد إلا بالتسليم بوجود الخالق .

● وبعد أن شرَّقت العقلانية وغرَّبت ، أكد كانط Kant فيلسوف ألمانيا الأكبر (١٧٢٤-١٨٠٤م) أن العقل الإنساني ليس له أن يتجاوز مجال الحواس ، وأنه إذا

بحث في قضايا خارج نطاق الحواس فلابد أن يتورط في المتناقضات ، كأن يثبت أن الكون له بداية ، وأنه ليس له بداية ، ببراهين متساوية في قوتها[1]. وأن يثبت الجبرية والحرية بالبرهان العقلي[2]. وهذا يؤكد حاجة العقل البشري إلى مصدر آخر للمعرفة . وفي الإسلام اعتراف بدور العقل في مجاله المشروع ، ولكن الوَحْي هو المصدر الأعلى الحاكم في كل المجالات ، بحيث إذا حدث تعارض بين الوحي والعقل كانت كلمة الوحي هي العليا .

● ولسوف نجد أن الإسلام يفوز بثقتنا في كل مقارنة . وبهذا نكسب القارئين أو السامعين لصف الإسلام .

الجدال بالباطل

● وتبين آيات القرآن الكريم أن كثيراً من الناس يجادلون بالباطل ؛ وهذا هو نقيض الجدال بالتي هي أحسن . فيقول ﷻ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ (الحج:٣) ويقول ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (لقمان:٢٠) ويقول عز من قائل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (غافر:٥٦) ويقول ﷻ ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ (غافر:٤) ويقول ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (غافر:٥).

وتبين هذه الآيات القرآنية الكريمة أن أساس الجدال ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (الأنعام:١٥٢) هو : العلم ، أو سلطان العقل وحُجيَّته . والكافرون بالله ، الذين

---

(1) Critique of Pure Reason; p . 260.
(2) Ibid; p . 270.

واجهوا أنبياءَ الله ، هم الذين جادلوا بالباطل ، بُغْيَة دَحْضِ الإسلام - دين التوحيد ودين الحق . فلم يكن مشركو مكة هم أول من جادل بالباطل لدحض الحق . ولقد حاول الذين كفروا قتل الأنبياء حين أعوزتْهم الحجة ، وافتقدوا الأساس العقلي الذي لا يقتنع بغيره العقلاء . وكان الكبر هو السد المنيع بين أولئك الكفار وبين دين التوحيد . فالعقل البشري بفطرته يرفض الوثنية وتعدد الآلهة ولا يجد مسوغاً للدفاع عنها .

● ومن أشهر من مارس الجدل بالباطل من أجل الانتصار على الطرف الآخر بالباطل السوفسطائية اليونانيون القدماء الذين عاشوا في القرن الخامس قبل الميلاد ، عصر الفيلسوف الشهير سقراط ، وجادلوه ، وغالطوه ، بُغْيَة إثبات أنه لا وجود للحقائق ، بل الحقيقة هي ما يريده الأقوى ، وأن الجدل يمكن أن يثبت أي شيء وينفي أي شيء .

- وفي محاورة الجمهورية لأفلاطون عَرْضٌ لبعض تلك المحاورات أو المجادلات . ففي بداية « الجمهورية » يجادلون سقراط حول « العدالة » ، على امتداد الكتاب الأول ، لكي ينتهوا إلى لا شيء ! ويقرر سقراط أنه لم يعلم شيئاً على الإطلاق : « إذْ أنني ما دمتُ لا أعلم ما هي العدالة ، فإني لا أعلم - بالأحرى - إن كانت فضيلة أم لا ، ولا أستطيع أن أجزم إن كان العادل سعيداً أم شقياً »[1] .

نعم للحوار ، لا للإسفاف !

● ولقد رفض المسلمون كل انحطاط في الحوار ، وفَنَّدُوه ، لكنهم لم يتورطوا في الشتائم المُسِفَّة والاتهامات الزائفة ، والإهانات البذيئة ، واحترموا ضوابط المنهج القرآني الذي ينهى عن سب المخالفين ، على الرغم من أنهم سَبُّوا الله ورسوله ، ولا يزالون يفعلون .

- ولقد يقال إن المسلمين ترفعوا عن سب موسى وعيسى عليهما السلام لأنهم يؤمنون بهما بحكم القرآن الكريم . غير أن المسلمين لا يؤمنون بـ« متى »

(١) جمهورية أفلاطون ؛ ترجمة د . فؤاد زكريا ؛ الكتاب الأول ؛ الفقرة ٣٥٦

و«يوحنا» و«لوقا» و«يهوذا» و«إرميا» و«حزقيال» ، وكان من الممكن أن يكتبوا عنهم بالأساليب المنحطة ذاتها التي كتب بها الغربيون عن رسول الله ﷺ ، في القديم والحديث .

● لكن هذه العفة اللسانية الرفيعة لا تمنعنا نحن المسلمين من بيان الخطأ في أية ديانة تزاحم الإسلام . وهذا ما حدث أحياناً . فقد تطاول قس مصري على الإسلام وحاول التشكيك في السُّنة النبوية ، فتصدى له الشيخ محمد أبو زهرة رحمة الله وأفحمه ، وأظهر ضعف الإسناد في نصوص الأناجيل ، بل عدم وجودها ، الأمر الذي يشكك في نسبة الأناجيل إلى المسيح ﷺ . فَنَّدَ أبو زهرة اتهامات القس إبراهيم سعيد بكل موضوعية وإنصاف ، وأظهر عوارها وتهافتها إظهاراً قوياً حاسماً ، دون أن يهبط إلى حضيض الشتائم الذي وَلَغَ فيه كثير من كتاب الغرب المتعصبين .[1] وهكذا قدم أنموذجاً ممتازاً للدعاة في تصديهم لتهجمات القسس والرهبان والحاخامات على الإسلام .

● وحتى في عصر الاحتكاك العنيف بين المسلمين والنصارى في الأندلس ـ في القرن الخامس الهجري ـ لم يتجاوز الإمام ابن حزم ـ رحمه الله ـ في نقده للنصرانية حد التكذيب ، كقوله : «فما كان «يوحنا» و«متى» و«بولس» إلا كفاراً كاذبين ، وما كانوا قط من صالحي الحواريين»[2].

الحوار مع أهل الكتاب

● وكان النبي ﷺ يواجه أهل الكتاب من اليهود والنصارى منذ فجر الدعوة . وقد نزلت في ذلك آيات بينات تنظم الحوار معهم ، من ذلك قوله تعالى ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ

---

(١) راجع كتابه : محاضرات في النصرانية ؛ الفقرات من رقم ٥٨ إلى رقم ٦٢ .

(٢) راجع كتابه : الفصل في الملل والأهواء والنحل ؛ تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر ودكتور عبدالرحمن عميرة ؛ نشر دار الجيل ؛ بيروت (بدون تاريخ) ؛ جـ ١ ص ١٢٧ .

﴿أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الشورى ١٥)

قال ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما : الخطاب لليهود[١]. فالحق تبارك وتعالى يأمر نبيه ﷺ بأن يدعوهم إلى الإسلام ، وأن يستقيم في فكره وعمله كما أمره الله تعالى ، وينهاه عن اتباع أهوائهم ، مع الإعلان عن إيمانه بما أنزل الله تعالى من الكتب على أنبيائه السابقين صلوات الله وسلامه عليهم . فلا يجعل مخالفتهم له سبباً في رفض الإيمان بما أنزل من كتب على أنبيائهم . وهو يُعْلنهم بأنه لن يظلم أحداً منهم ، لأنه مأمور بالعدل بينهم . وإذا مَضَوا في المخالفة والعناد ، فلنا أعمالنا ولهم أعمالهم ، فكل إنسان مسئول عن عمله أمام الله تعالى ، ولا يبقى بيننا مجال للجدال والمحاجة مادمتم معاندين ومصرين على الكفر بما جئتكم به من كتاب ، ويوم القيامة نلتقي أمام الله ليحكم بيننا . لقد انتهى الجدال بالتي هي أحسن ، وبذلك ينتهي الحوار .

- وفي هذه الآية الكريمة قواعد مهمة في منهج الدعوة الموجهة لأهل الكتاب .

١- فالداعية المسلم مطالب بدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام بالحكمة والجدال بالتي هي أحسن ، مع الاستقامة على أمر الله تعالى ، ليكون الداعية أسوة حسنة في فكره وسلوكه .

٢- والداعية المسلم مأمور بأن يعلن إيمانه بالكتب التي أنزلها الله تعالى على رُسله. وهذا الإعلان يمهد السبيل إلى قلوب المخاطبين من أهل الكتاب . لكن هذا الإيمان لا يعني مجاراتهم في أهوائهم التي أفضت إلى إدخال كلام البشر ضمن كلام الله المنزل ؛ وهم يعترفون اليوم بهذا الخلط رسمياً ، بعد أن أنكروه دهراً طويلاً .

٣- وعلى الداعية أن يعلن أن الإسلام لا يعرف التفرقة العنصرية في إقامة العدل ؛ فأهل الكتاب الذين يعيشون بين المسلمين يتمتعون بالعدل ، لأن الله أمر المسلمين بذلك . وهذه الحقيقة تيسر للداعية طريقه إلى عقولهم .

---

(١) القرطبي ؛ الجامع ؛ تفسير الآية ١٥ من سورة الشورى .

٤- وعلى الداعية أن يعرِّف المخاطبين من أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن الله الذي يؤمن به المسلمون ليس إلهاً عنصرياً خاصاً بهم ، كما هو الحال عند اليهود ولكنَّه ربُّ العالمين ، سواءً رضي بذلك خَلْقُه أو لم يرضوا ، ويتلو عليهم من آيات القرآن ما يؤكد ذلك ويبينه خير بيان .

٥- والإسلام يحمِّل كل إنسان المسئولية عن نفسه ، ويعفيه مما يفعله غيره . فالمسئولية فردية . وذلك هو أساس العدل . وإذا عاند أهل الكتاب ولم يؤمنوا ، فهم المسئولون عن ذلك .

٦- وعلى الداعية أن يكف عن الجدال إذا استوفى عرض الإسلام ؛ ولا يمعن في الجدال الذي يتحول إلى مراء عقيم .

٧- وعلى الداعية أن يتذكر أن الهدى بيد الله وحده . والحساب في نهاية المطاف أمام الله تعالى يوم القيامة ، فلا يحزن إذا أنكر المخالف وعاند وأصر واستكبر استكباراً .

والسيرة النبوية تشهد بأن النبي ﷺ لم يكف يوماً عن الجدال بالتي هي أحسن ، في سبيل الإسلام . ألَيست المفاوضات ـ أو المراوضات ـ التي أجراها النبي مع اليهود في المدينة ، ومع زعماء غطفان من حلفاء قريش واليهود ، وعلى رأسهم عيينة بن حِصْن قد اتخذت شكل محاورات وجدال؟ وقد ذهب ﷺ سنة أربع هجرية إلى بني النضير من اليهود ، يفاوضهم ، ويستعينهم في دية قتيلَيْن . وقد أعلنوا الموافقة ، بعد جدال لم يسجله التاريخ . لكن من الطبيعي أن تكون قد جرت بين الطرفين مفاوضات أو مجادلات .

إلامَ ندعو أهل الكتاب؟

● ويحدد القرآن الكريم العقيدة الدينية التي يجب أن ندعو أهل الكتاب إليها فيقول رب العزة لنبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟

﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤) .

– وقد عمل النبي ﷺ والمسلمون من بعده بهذه الآية الكريمة ، فدعوا أهل الكتاب إلى عقيدة التوحيد ، فتقبلها بعضهم ، ورفضها البعض الآخر . وكان المسلمون هم الحكام السياسيين ، أصحاب السلطان ، وعلى الرغم من ذلك لم يحاولوا قهر أحد على اعتناق التوحيد ، امتثالاً لهذه الآية الكريمة ، ولقوله تعالى ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦) وعاش أهل الكتاب في وسط المجتمع المسلم في أمن وأمان ، وحرية ، يمارسون شعائر دينهم ، وينشطون في مجالات التجارة والمال ، إلاَّ في أوقات استثنائية سادها التوتر والاضطراب .

– وجرت مجادلات عديدة بين الطرفين في الشام واليمن ومصر والأندلس ، فلم يستعمل المسلمون سلطانهم لقمع المتجادلين من أهل الكتاب . وتحولت المحاورات إلى جدال عنيف أحياناً . وسجل التراث الإسلامي الكثير من ذلك ، فكان الجدال مكوناً أساسياً في تراثنا الإسلامي القديم والحديث . ولعل من أبرز المؤلفات في مجادلة أهل الكتاب كتاب «الفِصَل في الملل والأهـواء والنحـل» لابن حزم الظاهري رحمه الله . لكن أصل الجدال والأنموذج الأعلى له جدال رسـول الله ﷺ . وعلى الدعاة أن يتدارسوه ليسيروا على قواعده وأصوله .

كشف تناقض الطرف الآخر مع نفسه

● ولقد دخل ﷺ «المِدْراس» ـ وهو المكان الذي يتدارس اليهود فيه التوراة ، فسأله النعمان بن عمرو والحارث بن زيد : «عَلَى أيِّ دينٍ أنت يا محمد؟ فقال لهما رسولُ الله ﷺ : عَلَى مِلَّةِ إبراهيم ودينهِ». قالا : فإن إبراهيم كان يهودياً . فقال لهما رسول الله ﷺ : «فَهَلُمَّ إلى التوراة ، فهي بيننا وبينكم». فأَبَيَا عليه[1] .

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٥٥٢ ، ٥٥٣

● فكان ﷺ يريد الاحتكام إلى كتابهم . ولكنهم رفضوا لعلمهم أنه لا يقول إن إبراهيم كان يهودياً .

● وهذا المنهج لا يزال صالحاً اليوم . ففي مسائل عديدة يخالف اليهود والنصارى كتبهم مخالفات حادة ؛ وبعضهم ارتد ونبذ التوراة والإنجيل . كذلك يخالف الأوربيون والأمريكيون المبادئ التي تقوم عليها فلسفاتهم ودساتيرهم مخالفات جسيمة في تعاملهم مع المسلمين . وقد ثارت في شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٤هـ نوفمبر سنة ٢٠٠٣م ـ مشكلة أسْرَى « جوانتانامو » الذين أسَرَتْهم أمريكا في أفغانستان وترفض تطبيق القوانين الأمريكية والدولية عليهم ، وترفض محاكمتهم ، أو سماع أقوالهم ، وتوكيل محامين للدفاع عنهم ونجح « أوباما » حين وعد بتصحيح ذلك .

لكن محكمة الاستئناف الفيدرالية في سان فرانسيسكو قضت بأن الأشخاص الذين تحتجزهم السلطات الأمريكية للاشتباه في أنهم إرهابيون لهم الحق في الحصول على تمثيل قانوني والمحاكمة تحت طائلة القانون الأمريكي . وقضت بمثل هذا الحكم محكمة استئناف أخرى في كاليفورنيا[1] . وتحت ضغوط داخلية وخارجية بدأت السلطات الأمريكية تتحدث بلغة أقل تشدداً ، وشرعت تبحث حالات خاصة لمساجين من جنسيات غربية ، توطئة للإفراج عنهم . وأفرجت عن بعضهم في يوليو سنة ٢٠٠٤م وقد وضع « أوباما » خطة لإنهاء تلك المأساة .

وتسعى أمريكا لاستثناء جنودها من حكم القوانين التي تجرم كثيراً من الأفعال الحربية ، لكي يعيثوا فساداً دون رادع . وتخالف الإدارات الأمريكية الكثير من المُثُل الأمريكية نفسها . وكانت الجالية المسلمة عُرْضَةً لاعتداءات إجرامية عديدة ، مارستها السلطات بحكم ما يسمى قانون الإرهاب وقانون الأدلة السرِّية . وهما قانونان غير شرعيين لتنافيهما مع المواثيق الدولية لحقوق الإنسان .

---

(١) نشرت الخبر صحف يوم ٢٠٠٣/١٢/٢٠ .

● وقد نجح المسلمون في أمريكا في كسب شطر كبير من الرأي العام الأمريكي اعتماداً على تذكير الجماهير بالتناقض بين المثل الأمريكية وتطبيقات الإدارة الأمريكية .

● وعلى الدعاة أن يستفيدوا من السُّنة المشرفة في الجدال ، ومن ممارسات إخوانهم المعاصرة في أمريكا وأوربا . وهذا هو التطوير المفيد المنشود للخطاب الديني .

الرسول يجادل المشركين

● وقد سجل ابن هشام العديد من المجادلات بين النبي وبين رُسل قريش إليه بشأن « الحديبية » . وقد احتدم جدال عنيف بين الطرفين حين قال ممثل قريش « عروة بن مسعود الثقفي » : « يا محمد! أجَمَعْتَ أوْشَابَ الناس (يعني أخلاط الناس) ، ثم جِئْتَ بهم إلى بَيْضَتِك لِتَفُضَّها بهم . . . وايْم الله ، لَكَأنّي بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً !

- فَرَدَّ أبو بكر الصديق على إهانته قائلاً : امْصُصْ بَظْرَ اللاَّت !! أنحن ننكشف عنه؟! فكانت إهانة بإهانة ، والبادئ أظلم .

- وكان عروة بن مسعود عنيفاً عدوانياً في ألفاظه وحركاته . فكان يتناول لحية رسول الله بيده وهو يكلمه ، و « المغيرة بن شعبة » يضربه عليها ويقول : اكْفُفْ يدك عن وجه رسول الله ﷺ [1].

والعلماء المسلمون جادلوا أهل الكتاب

- فهذا جدال عنيف ، جرى فيه سباب وإهانات من قِبل المشركين ؛ فكان جدالاً بالتي هي أسوأ . وكان من حق المسلمين أن يهينوا من أهَانهم ؛ كما فعل أبو بكر الصديق ، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ (الشورى: ٤٠).

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ٢ ص ٣١٣

● وعلى سُنة رسول الله ﷺ ، وعلى هَدْي كتاب الله تعالى سار الراشدون وسائر الصحابة ﷺ ، يحاورون ويجادلون في سبيل نشر الإسلام في العالمين . ولولا الخوف من الإطالة لأوْردت عشرات المجادلات بالتي هي أحسن، وبالتي هي أسوأ!

● وكتب العلوم الإسلامية تطفح بالمناظرات والمجادلات بين الفقهاء والأئمة وأتباعهم ، وبين الملوك والأمراء والقادة العسكريين . ومع انتشار الإسلام واختلاط المسلمين وغير المسلمين في الشام واليمن ومصر والأندلس ، جرت مئات المجادلات بين علماء المسلمين وبين حاخامات اليهود ورهبان النصارى . واحتفظ لنا التاريخ بالكثير منها .

● ومن أوسع المراجع في الجدال بين الفرق الإسلامية مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وخصوصاً كتابه : «بيان تلبيس الجهمية» الذي بلغ عدد صفحاته ١٢١٦ صفحة من القطع الكبير . وهو يشرح مذهب أهل السُّنة في مواجهة الجهمية والقائلين بالقدر ، والمعتزلة . ويُعد كتاب : «المُحَلَّى» لابن حزم من أكثر الأعمال الإسلامية ميلاً إلى الجدال مع المخالفين من الفقهاء . كما يُعد كتاب «الفُصَل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم أيضاً من أعنف كتب الجدل ضد الفلاسفة واليهود والنصارى[1].

- وكتب الجاحظ (عمرو بن بحر- ٧٧٥-٨٦٨م) «رسالة الرد على النصارى».

● وكتب اليهود والنصارى الكثير في معارضة الإسلام .

المفاوضات السياسية

● ولما اشتد على المسلمين البلاء بسبب حصار الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق بعث النبي ﷺ إلى زعماء غَطَفان ـ عيينة بن حصن والحارث بن عوف ـ مَنْ يفاوضهما على فك الحصار نظير ثلث ثمار المدينة . ثم جَرَى بعد ذلك جدال بالتي هي أحسن بينه ﷺ وبين الصحابي الجليل سعد بن معاذ والصحابي الجليل سعد بن عبادة ﷺ ، واستشارهما قبل أن يعقد الصفقة مع غطفان .

---

(١) ابن حزم توفي سنة ٤٥٦هـ .

- قال الصحابيان الكبيران للنبي : يا رسول الله ! أَمْراً نُحبه فنَصْنَعُه ، أم شيئاً أمَرَكَ الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنَعُه لنا؟

- قال عليه الصلاة والسلام : «بل شيء أصنَعُه لكم . واللهِ ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيتُ العربَ قد رَمَتكم عن قَوْسٍ واحدة ، وكالَبوكُم من كل جانب ، فأَرَدْتُ أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمرٍ ما».

- فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ! قد كُنَّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلاَّ قِرًى (أي ضيافة) أو بيعاً . أَفَحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟! واللهِ مالنا بهذا من حاجة ! واللهِ لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم اللهُ بيننا وبينهم».

- قال رسول الله ﷺ : «فأنت وذاك». يعني : لك ما تشاء .

- وتناول سعد بن معاذ الصحيفة ، فمَحَا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : «ليَجْهَدُوا علينا»[1] .

● اقتبستُ هذا الجدال بطوله لأبيِّنَ أن الجدال بالتي هي أحسن كان منهجاً أساسياً في معالجة أمور المسلمين فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين غيرهم . وهذا شيء طبيعي ، لأن الحياة البشرية في كل زمان ومكان تحتاج إلى الحوار والجدال بالتي هي أحسن .

متى يجب وقف الجدال ؟

● ويوجه ربنا ﷻ نبيه ﷺ والدعاة من أتباعه فيقول ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ أي اليهود والنصارى والمشركون العرب - ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٢٠) .

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ٢ ص ٢٢٣ . وكالبوكم يعني : اشتدُّوا عليكم .

- فالحق تبارك وتعالى يأمر نبيه ﷺ وأتباعه من الدعاة الذين يدْعون أهل الكتاب والمشركين إلى الإسلام أن يضعوا حدّاً للجدال بأن يعلنوا أنهم أسْلَمُوا وجوههم لله تعالى ، وأن يسألوا أهل الكتاب والمشركين : ءَأَسْلَمتم؟ فإن قبلوا الإسلام فقد هداهم الله ، وإن عاندوا وكابروا ورفضوا الإسلام فتلك مسئوليتهم ، يتحملون أوزارها . وبهذا لا يسمح الداعية المسلم للجدال أو الحِجَاج بأن يتحول إلى لجاج أو مراء عقيم[1] .

البيان المبين مسئولة الداعية

إن الداعية ليس مسئولاً عن هداية المدعوين . هذا مبدأ راسخ في شريعة الإسلام . إنه مسئول عن القيام بالدعوة على خير وجه ممكن ، أما الهداية فلله وحده . وكانت هذه هي مسئولية الرسول ﷺ ؛ وهي مسئولية الدعاة من أتباعه ؛ وفي هذا وردت آيات عديدة ، منها قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾(المائدة:٦٧) وقوله تعالى ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾(المائدة:٩٢)

- وفي هذه الآيات أيضاً تقرير مسئولية البلاغ المبين على عاتق النبي ﷺ ، بقدر ما يسعه من البيان . وهي أيضاً مسئولية الدعاة من أتباعه . وعلى كل داعية أن يبذل أقصى ما يستطيع من الجهد في التعلم والتحصيل والبحث والتحقيق والتدقيق لكي يؤدي مهمته العظيمة التي هي : « البلاغ المبين ». وكل تقصير أو تقاعس من جانب الداعية هو إثم سوف يحاسب عليه .

- فهذه الآيات الكريمات تسقط عن الداعية مسئولية وتحمِّله مسئولية . وفي هذا عدالة إلهية ، لأن هداية المخاطبين ليست في مقدور الداعية ؛ ولذلك أُسقطت مسئوليتُها عن كاهله . لكن « البلاغ المبين » في مقدوره فحُمِّلَ المسئولية عنه . وهذه

---

(١) راجع تفسير الآية في « الجامع » للقرطبي .

المسئولية بطبيعة الحال بقدر طاقة الداعية ، و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦) وعليه أن يطبق المنهج الدعوي ويطوره لبلوغ هدفه النبيل .

- فلو أدرك الدعاة هذه المبادئ الدَعَوية لما شاهدنا صُنُوف التقاعس عن أداء أوجب الواجبات . وكلنا يعلم أن كثيراً من الوعاظ والخطباء والمدرسين والعاملين في حقول الإعلام الإسلامي ، يتقاضون رواتبهم دون أن يعملوا بها . ويمضي الواحد منهم سنوات عديدة دون أن يتقدم في دراسة الإسلام وعلوم الدعوة والإعلام والبلاغ المبين بوصة واحدة . وينظر بعض العاملين في حقل الدعوة إلى وزارات الأوقاف والشئون الدينية على أنها تكية ! وقد ترهَّلت أقسام عديدة وإدارات أكثر عدداً . فلم تعد قادرة على تحريك أجهزة الدعوة . وحاولت بعض الجمعيات الإسلامية النهوض بدور دَعَوي خارج الإطار الرسمي الوظيفي ، فتصدَّى لها الموظفون وأحبطوا عملها بالاستيلاء على مساجدها ومكاتبها ، كما حدث للجمعية الشرعية في مصر . وهذه نكسة كبرى للخطاب الديني ، أو تطوراً سلبياً مدمراً له .



الفصل السابع عشر

الحوار مع الغرب في العصر الحديث

البدايات [1]

● في مؤتمر «ادنبرج» للتنصير سنة ١٩١٠م نادى بعض المشاركين فيه من أنصار ما سُمِّي «الحركة العالمية» في ذلك الوقت بمراجعة نظرة المسيحيين إلى التنصير بين المؤمنين بالأديان الأخرى ، ومن بينهم المسلمون . ويقول الأب الأرثوذوكسي البولندي «جيرماهيا» إنه كان نداءً ثورياً ، لأنه ـ إذا أُخذ به ـ سيُحدث تغييرات جذرية . وكان المنادون بالتغيير كثيرين ، لكن اشتعال الحرب العالمية الأولى غَشَّى على أصواتهم ، واستغرق الجميع في مشكلات الحرب .

- وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، تهيأ المناخ الدولي للحوار ونبذ القوة ، وتأسيس العلاقات الدولية على خطوط جديدة .

- ويعتقد «موريس بوكاي» أن تغييراً جذرياً حدث في تفكير الفاتيكان عن الإسلام منذ الحروب الصليبية . وصرح الفاتيكان بأن الغرب المسيحي ارتكب العديد من المظالم ضد المسلمين .

● فهذه مراجعة مسيحية للنفس .

● وفي عام ١٩٦٧م دَعَتْ سكرتارية الفاتيكان المسيحيين إلى تقديم التهاني للمسلمين بمناسبة عيد الفطر المبارك ، فكان ذلك تعبيراً عن الروح الجديدة .

● وانعقدت الجمعية العمومية لمجلس الكنائس العالمي سنة ١٩٨٨ . وانضم إليها عدد كبير من الكنائس في العالم الثالث ، واتجه بتأثيرهم إلى تبني خطط

---

(١) المرجع : أوراق وبحوث طرحت في مؤتمرات الحوار المذكورة .

لتحقيق العدالة الاجتماعية ، وحفظ السلام والتعاون مع المسلمين في ذلك ومع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى .

● فهذه مقدمات للحوار .

● وفي اجتماع أديس أبابا سنة ١٩٧١م شكل مجلس الكنائس العالمي لجنة تنفيذية مهمتها وضع القواعد المنظمة للحوار مع أهل الأديان الأخرى ، بما فيهم المسلمون . وأعلنت أن المسيح عليه السلام هو الذي يقودهم على طريق الحوار .

ثلاث قواعد للحوار

● وفي عام ١٩٧٢ قال مجلس الكنائس العالمي في بيان له صدر في «برومانا» : «إننا لا نريد أن نحدد حدوداً لحوارنا وتعاوننا بحيث نقصرهما على مجموعة من الخبراء وحدهم ، ونشعر بواجب مواصلة عملنا بحيث تسيطر روح الحوار على المجتمعات الدينية المسيحية والإسلامية». وطالب المجلس باحترام ثلاث قواعد :

- الأولى : حرية التعبير عن العقيدة للطرفين ،
- والثانية : الاحترام المتبادل ،
- والثالثة : حرية التدين وممارسة العبادة للأقليات ولكل مؤمن .

● وأكد مؤتمر «جامايكا» هذه القواعد كما أكد أن الغاية القصوى للحوار هـي : العدالة الاجتماعية وصون السلام العالمي وترسيخ الأخوة بين بني الإنسان . وبهذا عبَّر عن اتجاه اجتماعي وسياسي ضد الحروب .

● ومن الجلي أن الإسلام يحترم هذه القواعد الثلاث . ونحن نتمنى احترام القاعدة الثانية على التحديد ، لأن إساءات وإهانات ومغالطات وأكاذيب خطيرة جداً اقترفها الغربيون ضد الإسلام ورسوله وكتابه ورجاله . ولا يزال الغربيون يقترفون الجرائم ضد الأقليات المسلمة ، وخصوصاً إبادة ٦٠٠٠ مسلم في البوسنة وبعد

حادث البرجيْن الإرهابي في ٢٠٠١/٩/١١م . وفي كل حوار يجري بيننا يجب إثارة هذه القضية الأساسية ، والمطالبة بوضع حد لكل المجازر والإهانات والأكاذيب ضد ديننا ورسولنا الكريم ﷺ .

● وفي لقاء « برومانا » أثيرت مشكلة تنصير المسلمين . وقال الأعضاء إن إرساليات التنصير - أو التبشير - لا تعمل لتحويل المؤمنين بالأديان الأخرى إلى المسيحية . وهذه مسألة مهمة جداً ، وخطيرة جداً ، وقد تسببت في إثارة الجماهير المسلمة في كل مكان استطاعوا فيه تنصير مسلم . فمن المهم جداً أن يُنَفَّذ ذلك الكلام . لكنه لم ينفذ حتى سنة ٢٠٠٤ ! والمفروض أن يتعاون المسيحيون مع المسلمين لمواجهة الإلحاد والردة التي تفشت في الشرق والغرب كالوباء ، بدلاً من السعي لتنصير المسلمين الفقراء والعاطلين والمرضى ، باستغلال عَوَزِهم وآلامهم . ونحن المسلمين هَمُّنَا الأول في خطابنا الديني المعاصراستعادة المسلمين العصاة ، لا إدخال المسيحيين واليهود في الإسلام . والوثنيون منتشرون بالملايين في إفريقيا ، فَليتَنَا نخطط ونعمل لهدايتهم إلى الإسلام .

الحوار بين العلماء السعوديين والعلماء الأوربيين

● وتكثفت العلاقات الاقتصادية مع الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين بعد اكتشاف البترول في دول الخليج العربية . وكان لابد من إجراء محاورات بين الطرفين ، العربي المسلم والأوربي المسيحي ، فجَرَت أول محاورة بين علماء المملكة العربية السعودية والأوربيين في ١٩٧٢/٣/٢٢م . وانتقد الأوربيون تمسك المملكة بالإسلام عقيدة وشريعة وقالوا إن : « الحياة في تطور ، مع مرور الزمن ، وليس من مصلحة البلاد المسلمة - فيما نرى - بناء نُظمها على القرآن . . لأن ذلك قد يسيئ إلى القرآن نفسه »[1] .

(١) ندوة علمية حول الشريعة الإسلامية ؛ نشر وزارة الإعلام السعودية ؛ سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م ؛ ط٢ ص ١٠-٢٤ .

- ورد العلماء السعوديون قائلين إن القرآن لا يمنع التطور ؛ ويميز الإسلام بين الثوابت والمتغيرات . وتطبيق الإسلام كاملاً يحقق مصالح المسلمين الدنيوية والأخروية ، ويحمي الأمة من الإلحاد والانحلال .

● وفي ١٩٧٤ حدثت اتصالات بين الفاتيكان والمملكة العربية السعودية . ففي يوم ١٩٧٤/٤/٢٤ زار الكاردينال «بنيدولي» رئيس سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين المغفور له جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز ، وسلمه رسالة من البابا بولس السادس . وفي أكتوبر سنة ١٩٧٤م استقبل البابا رسمياً - في الفاتيكان - وفداً من علماء الدين السعوديين . وبتلك المناسبة عقدت ندوة حول : «حقوق الإنسان الثقافية في الإسلام». واهتمت جريدة الفاتيكان الرسمية (أوبزرفاتور رومانو) بذلك الحدث اهتماماً كبيراً ، فأبرَزَتْه في صدر صفحتها الأولى يوم ١٩٧٤/١٠/٢٦. ثم استقبل المجلس المسكوني الأعلى في «جنيف» العلماء السعوديين ، ودعاهم الأسقف «إلشنجر» لأداء صلاة الظهر في الكاتدرائية . وبذلك ذكَّر الجميع بسماحة النبي ﷺ مع النصارى الذين زاروه في المدينة المنورة ، وسمح لهم بالصلاة في مسجده الشريف .

● ونلاحظ على المرحلة التي انتهت سنة ١٩٧٤ بأنها كانت في بدايتها «مراجعة للذات» من الجانب المسيحي ، وتصحيح موقف خاطئ ونظرة خاطئة نحو المسلمين وغير المسلمين . وهذا تطور إيجابي في الجانب المسيحي .

- ونلاحظ أن هذا التطور اتجه إلى دعم السلام العالمي والعدالة الاجتماعية ، مع تراجع الاهتمام بتأسيس علاقات جديدة مع المسلمين ، للقضاء على المظالم والأخطاء التي اقترفها الغرب المسيحي ضد الأمة المسلمة ؛ واستمرت الأوضاع على ما كانت عليه

- ثم عاد الاهتمام بفهم الإسلام من خلال الحوار مع العلماء السعوديين في الفترة من ١٩٧٢ إلى ١٩٧٤م . وفي ذلك الحوار ظهر سوء فهم المسيحيين للقرآن الكريم ، حتى طالبوا الوفد السعودي بتجاوزه تحقيقاً للتطور !!

مؤتمر وارسو سنة ١٩٨٦م

● وقد كان من الممكن أن يتطور الحوار إلى مراحل أكثر إيجابية ، لكن بحوث مؤتمر «وارسو» في بولندة سنة ١٩٨٦ تشير إلى غلبة تيار معين يتجاهل أوجه الخلاف بين الإسلام والمسيحية ويركز على نقاط الاتفاق ، أو ما يُظن أنها كذلك . ونتيجة لذلك انتهى المؤتمر إلى القول إن : «ما يجمع بيننا أكثر مما يفرِّق» .

- وفي ذلك المؤتمر انتهى البروفيسور فلاديمير مُسْتَافِن - الأستاذ في كلية اللاهوت في لينين جراد - إلى أن ثمة أربع عقائد تجمع بين المسيحية والإسلام هي :

١- الإيمان بالله الواحد الأحد ،

٢- والإيمان بحكمة الله العليا ،

٣- والإيمان بخلود الروح ،

٤- والإيمان بأن نوع الحياة التي يحياها المؤمن في هذه الدنيا شرط لنوع حياته الأخروية ، إن كانت خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

- وقرر «مُسْتَافِن» أن هذه العقائد كافية كأساس للحوار بين الطرفين .

● وكان مؤتمرا موسكو (سنة ١٩٧٧ وسنة ١٩٨٢) قد قررا أن : «الأسس النظرية للمناقشات بين أتباع الديانات المختلفة كانت مقصورة على المبادئ الأخلاقية فقط ، بل هي في الواقع قد اقتصرت على ضرب من المبادئ الأخلاقية المشتركة بين كل المؤمنين» .

● ولا يظهر من ممثلي المسلمين في مؤتمر «وارسو» سوى الشيخ محمد شابستاري ممثل إيران - وقد قرر أن القيم المشتركة ست عقائد ، هي :

١- الإيمان بالله الواحد، خالق الكون، فوق العقل، وفوق الخيال، وفوق التصورات البشرية، له سبحانه كل صفات الكمال، كما أنه منزه عن كل نقص.

٢- الإيمان بالله وحده لا شريك له.

٣- الإيمان بسمو الإنسان على المادة، وبأنه خليفة الله في أرضه.

٤- الإيمان بأن الأعمال تشمل العبادات، كما تشمل أعمال البرّ والإيثار.

٥- الإيمان بأن الله تعالى أرسل الرسل برسالاتهم لمعاونة العقل البشري.

٦- الإيمان بأن رسالة الله يجب أن تبلَّغ للناس جميعاً، يبلِّغها الرسل، ثم الدعاة من أتباعهم.

● ومن الجلي أن «الاشتراك» الذي قرره الشيخ شابستاري ومن قبله الأستاذ «مستاقن» لا يمكن أن يكون تطابقاً. ووراء تشابه الألفاظ أبعاد من التباين، وربما التضاد والتناقض. والمهم أن تقود هذه الروح الودود إلى تصفية المشكلات التي توهن العلاقات بين الطرفين. ولدى المسلمين شكاوى مريرة من: تنصير المسلمين، والاعتداء على بلادهم، وظلم الأقليات، وإهانة المقدسات، وتصدير الإلحاد الأوربي، والطعن في عقائد الإسلام، وغير هذا كثير جداً. وكان من الممكن أن يتواصل الحوار، وتُسَوَّى بعض هذه المشكلات، لكن استمرار التنصير لأبناء المسلمين، وانحياز الغرب للصهيونية ضد شعب فلسطين المسلم، ألْحَقَا أبلغ الأضرار بحركة الحوار الإسلامي المسيحي، وبالعلاقات بين المسلمين والمسيحيين. وتُبذل الآن جهود دبلوماسية ودينية وثقافية لتحسين العلاقات بين الطرفين. وقد أصدرت الأمم المتحدة قراراً يدعو إلى تعزيز التفاهم الديني والثقافي، وتوكيد دور الحوار بين الحضارات، بعيداً عن نظرية الصراع، التي هي نظرية عدوان على الإسلام[1].

---

(١) جريدة الأهرام اليومية؛ في ٢٠٠٣/١٢/٢٤.

● وترى «د . سوزانا هاين» الخبيرة في الحوار بين الأديان ، والأستاذة بالكلية البروتستانتية بجامعة فيينا بالنمسا ، أن المؤتمرات الدينية أفضل وسيلة لتصحيح الأخطاء ، وبيان الحقائق عن الأديان ، سواء الإسلام وغيره . وأعلنت الدكتورة «هاين» أنها حضرت مؤتمرات عديدة في أمريكا ، ولاحظت أن معظم المشاركين فيها كانوا مُستائين من سياسة الغرب تجاه الآخر ، أي غير الغربي[1] .

- وقد أعلن أحمد بن حلي الأمين العام المساعد في الجامعة العربية عن مشروع إنشاء مؤسسة أورومتوسطية للحوار بين الحضارات والثقافات[2] . وهذا اتجاه إيجابي لمواجهة نظرية الصراع بين الحضارات ، تلك التي تروج لمقولة الخطر الإسلامي على الغرب ، وتحرض الغربيين على معاداة الإسلام وثقافته . والمهم هو التنفيذ السريع .

● وفي اعتقادي أن على الدول الإسلامية أن تتعاون في إنشاء مؤسسات علمية وتعليمية وإعلامية وفنية لرسم الصورة الحقيقية للإسلام أمام أنظار الشعوب الغربية . وذلك عمل إسلامي دعوي مهم جداً ، لا لتحويل الغربيين إلى الإسلام ، ولكن لمواجهة التشويه والتضليل والافتراء الذي ورثته أوربا وأمريكا منذ أيام الحروب الصليبية ضد الإسلام ، ولا يزال يلعب دوراً مخرباً في المناخ الثقافي والسياسي في الغرب ، وتغذيه بواعث عنصرية عديدة ، فيما تقدمه بعض الكنائس للأطفال في دروس الأحد ، وما تنشره الصحافة الشعبية من أخبار وقصص مزيفة عن المسلمين ، وما تبثه التلفزة والسينما من أفلام عن العرب والمسلمين الهمج ، العدوانيين ، الشهوانيين ، الصحراويين !

- والمسلمون في الغرب يمكن أن يتعاونوا مع الدول الإسلامية ويشيروا عليها بما يمكن أن يعملوه في مختلف المجالات . فالفرص متاحة ، والطريق واضحة ، والمسلمون قادرون مالياً وعلمياً وثقافياً على النهوض بهذه المهمة .

---

(١) من تصريح لها نشر في جريدة الأهرام اليومية في ٢٠٠٣/١١/٢٢م .
(٢) من تصريح له نشر في جريدة الأهرام اليومية في ٢٠٠٣/١١/٣٠ م .

● ومن المحزن حقاً أن نلاحظ ـ من جهة أخرى ـ انطلاق موجات متتالية من الجدال بالتي هي أسوأ ، ضد الإسلام ، قام بها المنصرون المسيحيون والمستشرقون اليهود ، والنصارى ، والملاحدة ، وكان هدفها الثابت إخراج المسلمين من الإسلام ، ليَفقِدُوا المصدر الروحي المحرك لهم ضد الاستعمار الأوربي . وسُخِّر التعليم ، من المراحل الأولى حتى المراحل العليا ، وسُخرت المجلات والصحف ، والإذاعات ، والآداب والفنون ، لبلوغ تلك الغاية الشريرة . وكان الجدل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (الحج:٨) هو المنهج الذي اتخذته تلك الموجات العاتية .

● وفزع المسلمون لتلك الهجمات ، وهَبُّوا للدفاع عن دينهم وثقافتهم وأمتهم ، فَصَدَرَت المجلات والصحف ونُشرت الكتب ، لتفنيد الاتهامات الباطلة ، وبيان الحقائق المشرقة التي غَشُّوا عليها وأرادوا طمسها . فاتخذت هذه النهضة طابع الدعوة بالكتب والمجلات والصحف . ولا تزال المعارك محتدمة حتى اليوم ، ولا يزال كثير من الغربيين ينهج النهج الباطل نفسه ، ﴿ وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ (غافر:٥) .

● ويكفي أن نذكر هنا أن «فرانسوا فوكوياما» أستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة هوبكنز الأمريكية ، هاجم الأمة المسلمة في مقال له بعنوان : «إنهم يستهدفون العالم المعاصر»[1]، اتهمها بأنها أمة همجية ، تسعى إلى تدمير الحضارة الإنسانية . هذا الاتهام الخطير بناه فوكوياما على «سطر واحد» اقتبسه من كتاب مدرسي مقرر على الصف الأول الثانوي في إحدى البلاد المسلمة ! فأحيا بذلك تقاليد السوفسطائية القدماء !

● ومرة أخرى لا أجد رداً حاسماً موجزاً غير قول الله تعالى ﴿ وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ (غافر:٥) وقد حولوا الجدال إلى اتهامات !

---

(١) نشرت جريدة الأهرام ترجمته العربية يوم ٢٠٠١/١٢/٢٩ .

والأمة المسلمة مطالبة بالنهوض بقوة لصد هذه الاتهامات والهجمات ، بكل الوسائل الدعوية الممكنة .

ولا يجوز أن يخلو بحث عن تطوير الخطاب الديني من مناقشة تلك الاتهامات.

فنقول إن الأمة المسلمة هي التي تتعرض للاعتداءات الهمجية من جانب الصهاينة بدعم من أمريكا والغرب ، ومن جانب أمريكا نفسها في أفغانستان والعراق ، ومن جانب روسيا في الشيشان ، ومن جانب الصين في تركمانستان ، ومن جانب الفيليبين في « منديناو » .

و « فوكوياما » يتهم الإسلام بأنه ينطوي على عقيدة غير متسامحة ؛ وهو لا يحدد مفهومه للتسامح . ونحن نفهم التسامح على أنه قبول الآخر المختلف عرقياً أو دينياً أو ثقافياً . والإسلام ـ في التسامح بهذا المعنى ـ قمة رفيعة ، فهو يعترف لليهود والنصارى بدينهم ، بل هو يحثهم على التمسك بدينهم .

يقول الله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (المائدة:٦٨) ويقول ﷻ ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ (المائدة:٤٧) وقال النبي ﷺ : «عليكم خاصة يهود أن لا تعدوا في السبت»[١]. وقد عاش اليهود والنصارى في بلاد المسلمين وتحت حكمهم قروناً ، كانوا يتمتعون فيها بالحرية في عبادتهم ، وصُوِّن أموالهم ودمائهم . وبلغ بعضهم أرقى المناصب في الدولة . وفي المقابل ، لا يعترف النصارى بالإسلام كدين سماوي منزل ، ولا يكفون حتى اليوم عن مهاجمته وسب رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ، والاعتداء على المسلمين واحتلال أراضيهم ، واضطهاد الجاليات المسلمة في الدول المسيحية الغربية والشرقية .

فمن المتسامح ومن الذي يفتقر إلى التسامح ، نحن أم هم؟ ومن الذي يستهدف الآخر ويحاول تدميره ، نحن أم هم؟

* * *

---

(١) رواه النسائي والترمذي .

الفصل الثامن عشر

توازُنات منهجية

التوازن بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد

● التوازن مبدأ تربوي ومنهجي لا خلاف عليه . لكن الخلاف يندلع حول المدى والشدة في الوعد والوعيد و الثواب والعقاب ، والإنذار والتخويف ، والتبشير والترغيب .

● يقول الشاطبي رحمه الله : « إذا وردَ في القرآن الترغيبُ ، قَارَنَهُ الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه ، وبالعكس . وكذلك التَّرجية مع التخويف ، وما يرجع إلى هذا المعنى مثله ، ومنه ذِكْرُ أهل النار ، وبالعكس ، لأن في ذِكْر أهل الجنة بأعمالهم تَرْجية ، وفي ذِكْرُ أهل النار بأعمالهم تخويفاً ، فهو راجع إلى الترجية والتخويف »[1].

- ومن الخطأ أن يميل البعض إلى إغفال الترهيب والتخويف ، مسايرة لتوجهات ثقافية علمانية تمقتهما ، وتريد الإخلال بقاعدة التوازن الشرعية ، ليدور الكلام على الترغيب والترجية وحدهما . لكن الداعية المسلم يجب أن يراعي التوازن بين الترغيب والترهيب ، والتبشير والإنذار ، والوعد والوعيد ، ولا ينجرف إلى الإخلال به .

- والقرآن حافل بالآيات القرآنية التي تنذر وتبشر ، وتعد وتتوعد . وقد ذُكِرَت جنة الآخرة ١٣٦ مرة في القرآن الكريم ، وذكرت النار ١٤٥ مرة . وجاء الفعل

---

(١) الموافقات ؛ جـ ٣ ص ٢٣٦ .

«أنذِر» في صيغة الأمر عشر مرات . وهناك إلى جانب هذا نصوص قرآنية وحديثية تشير إلى جنة الدنيا وجحيمها . وهذه النصوص قد لا يُلتفت إليها كثيراً في المنهج الدعوي السائد ، على الرغم من الحاجة الماسة إليها في عصر طغى فيه الفكر المادي التجريبي .

● قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (البقرة:٨٢)

- وقال ﷻ ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الشعراء:٩٠)

- وقال أيضاً ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (الإنسان:١٢)

- وقال عن النار ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ (الحج:١٩)

- وقال عنها أيضاً ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (السجدة:٢٠)

- وقال ﷻ ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ (الزمر:١٦)

- هذا بالإضافة إلى ذكر جهنم ٧٧ مرة .

- وعن جنة الدنيا وعذابها قال تعالى ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾

(طه:١٢٣،١٢٤)

وقصة قوم نبي الله نوح عليه السلام أنموذج للعذاب في الدنيا . وكذلك قصة فرعون وما حل به وبقومه من الأمراض والمصائب التي انتهت بغرقه . و«ثمود» الذين أهلكوا بالطاغية ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (الحاقة:٦)

التيسير دون التفريط

● ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يكلفهم بما لا يطيقون ، ولم يقصد إلى التكليف بما هو شـاق والإعنَات فيـه . وهـو ﷻ القائل ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة:١٨٥) والقائل ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج:٧٨) .

والقائل ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦) .

● وقد عُني الأصوليون ببيان المشقة التي تُعد مشقة عادة وميزوها من المشقة التي لا تعد مشقة عادة . فقال «الشاطبي» إنه : «إن كان العمل يؤدّي الدوام عليه إلى الانقطاع عنه ، أو عن بعضه ، أو إلى وقوع خلل في صاحبه - في نفسه أو ماله أو حال من أحواله - فالمشقة هنا خارجة عن المعتاد . وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فيٍّ الغالب ، فلا يُعَدُّ (العمل) في العادة مشقة ، وإن سُميت كلفة ، فَأحْوال الإنسان كلها كلفة في هذه الدار : في أكله وشربه وسائر تصرفاته ، ولكن جعل (الله) له القدرة عليها بحيث تكون تلك التصرفات تحت قَهْرِه ، لا أن يكون هو تحت قهر التصرفات ، فكذلك التكاليف»(١) .

● فهذه هي حدود التيسير ، وبيان الشاق الممكن ، والشاق غير الممكن التكليف به . لكن بعض الدعاة يجازف - رغبة في التيسير - فيُفْتي الناس بأن خطبة المسلم على خطبة أخيه لا تفسد عقد الزواج ، وأن الزواج العرفي جائز ، وزواج المتعة حلال ، ولا إثم في إتيان الزوجة في الدبر ، والتدخين مكروه وليس حراماً . وكثير من الدعاة يمضون في الاتجاه المضاد ، فيركزون على الزهد في الدنيا والتحقير من شأنها ، ويسردون قصصاً زائفة عن الزهاد ، ومنها قصة سعيد ابن عامر ﷺ ، تلك التي تقول إنه كان يتبرع بمرتبه كله ، ثم يعيش على مال الصدقات . فهؤلاء يطالبون المصلين بما لا يطاق ، وبما لم يكلف الله به عباده في كتاب أو سنة ! والآخرون يحلون ما حرمه الله بحجة التيسير ، وهو تفريط محرم لا تيسير مشروع !

الإنذار والتبشير

ومن أصول المنهج في الخطاب الديني الإسلامي : الإنذار والتبشير . ويستحسن اقترانهما ، لأن الإنذار وحده قد يفضي إلى النفور لدى المخاطبين أو يبث القنوط

---

(١) الشاطبي ؛ الموافقات ؛ جـ ٢ ص ٨٧ .

في نفوسهم ؛ والتبشير وحده قد يؤدي إلى التراخي والعصيان . والآيات التي ورد فيها مقروناً بالإنذار عديدة . فمن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(الأعراف:١٨٨) وقوله ﷻ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (البقرة:١١٩) وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾(الإسراء:١٠٥)

● وفي القرآن الكريم آيات أخرى عديدة تؤكد هذا المنهج المتوازن في الدعوة[1]. والداعية المسلم يقترب من غايته الشرعية باحترام هذا المنهج المتوازن ، ويبتعد عنها بالإنذار وحده أو التبشير وحده . وفي الحياة عامة قاعدة الثواب والعقاب معتبرة على جميع المستويات التربوية والقانونية . والإنذار تحذير من عقوبة ؛ والتبشير تبشير بمثوبة الله تعالى . فالعقل والنقل متفقان على هذا المنهج .

وعلى الرغم من هذه البدهية العقلية والعملية التي يؤكدها القرآن الكريم وتؤكدها السنة النبوية ، فإن بعض الدعاة يدع الإنذار ويغرق في التبشير ، وبذلك يتورط في أخطاء فقهية كبيرة . مثال ذلك ما تُردده إذاعاتنا أن من قال : « لا إله إلا الله دخل الجنة » ، دون أن تذكر واجب العمل بها . ونحن نعلم أن القرآن الكريم يقرن الإيمان بالعمل الصالح في معظم الآيات التي ورد فيها ذِكر الإيمان . ويقول الحق تباركَ وتعالى ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (الكهف:٢) والتعريف الإسلامي للإيمان أنه : تصديق بالجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان ؛ أو هو ما وَقَرَ في القلب وصدَّقه العمل ، أو : « التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح »[2].

وبعض الدعاة يميل إلى الجانب الآخر ، فيُسرف في ذكر العذاب والنار ، وكثيراً ما يستند في اندفاعه إلى نصوص غير صحيحة أو إلى تفسيرات متعسفة . وهو يريد بذلك ردَّ العصاة عن عصيانهم ، والفَجرة عن فجورهم . فهو مخلص ، طالب خير للمخاطبين ، لكنه يبتعد عن المنهج القرآني المتوازن ، ويقع في أخطاء دعوية ، فلا يبلغ غايته .

---

(١) الفرقان ٥٦ ، الأحزاب ٤٥ ، الفتح ٨ ، وغيرها أيضاً .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ؛ جـ ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

● ويحتاج الداعية إلى «فقه الحال» لبلوغ غايته الدعوية من الإنذار والتبشير، لأن المواقف الدعوية تختلف، فيستدعي الأمر أحياناً البدء بالإنذار، وأحياناً أخرى يكون البدء بالتبشير أفضل. والمهم هو التوازن بينهما، بما يتلاءم مع الموقف الدعوي.

● والتبشير يكون بجنة الدنيا وجنة الآخرة، لا بجنة الآخرة وحدها. والإنذار لا يكون بنار جهنم في الآخرة وحدها، وإنما بنار الدنيا أيضاً. يقول الحق تبارك وتعالى في هذا ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه:١٢٣-١٢٦) ويقول سبحانه ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف:٩٦) وقد جاءنا الهدى من الله تعالى، فإذا اتبعناه لن نضل ولن نشقى في هذه الدنيا، ولا في الآخرة؛ وإذا نحن أعرضنا عن ذِكر الله - أي عن القرآن الكريم - فإن معيشتنا الدنيوية سوف تصبح ضنكاً، أي سلسلة من المتاعب والمشكلات. وبرهان ذلك في الواقع أمامنا. فالأفراد العصاة عيشهم ضَنْك، وسلاسل من المظالم والجرائم، ومن معاقرة الخمور والمخدرات والدخان، ومقارفة الفحشاء وتفكك الأسر، والقلق والأمراض النفسية. وعلى مستوى الدول، تعاني البلاد التي نبذت الأديان من مشكلات عويصة لا حصر لها، ولا حل[1].

ولقد أحصَى «برجنسكي» المشكلات الرئيسة في الولايات المتحدة، فبلغت العشرين، وهي: المديونية، والعجز التجاري، وانخفاض المدخرات، وانعدام المنافسة الصناعية، وانخفاض معدلات النمو الإنتاجي، وعدم كفاية الرعاية

---

(١) راجع كتابي: البديل الأمريكي للإسلام؛ نشر دار الجمهورية؛ سنة ٢٠٠٤م – المبحثين السابع والثامن خاصة..

الصحية ، وتدهور التعليم الثانوي ، وتدهور البنية الاجتماعية الأساسية ، وبروز طبقة غنية جشعة ، وميل مرضي للتقاضي ، ومشكلة عرقية ، ومعها مشكلة فقر (٣٥,٧ مليون أمريكي يعيشون في فقر) والانتشار الواسع المتفاقم للجريمة ، وانتشار ثقافة المخدرات ، واليأس الاجتماعي ، والإباحية الجنسية المفرطة ، والترويج للفحشاء في وسائل الإعلام ، وتدهور الوعي المدني ، وتعدد الثقافات المفرِّقة ، ووقوع النظام السياسي في دائرة مغلقة ، وشيوع الإحساس بالفراغ الروحي[1].

● والآيات التي وصفت جنة الآخرة معروفة في سورة الواقعة ، وسورة محمد وسورة الإنسان ، وتفسيرها ميسور لكل داعية .

● ولقد سمعت من مدير المركز لإسلامي في طوكيو تقريراً عن دخول اليابانيين في الإسلام ، فَهَالني ما سمعت ! إذْ ذكر المدير أن المواطن الياباني يأتي المركز ليعلن إسلامه ، فيسأل : ماذا سأستفيد من الإسلام؟ فيقولون له : سوف تدخل الجنة بعد الموت . فيقول : أنا أسأل عما يمكن أن أستفيده الآن في الدنيا ! فيحدثونه عن ثواب الله في الآخرة ، فيترك المركز إلى غير رجعة . فمثل هذا الجمهور الدنيوي يجب أن يعرف أن الإسلام سيكفل له حياة سعيدة هانئة ، نظيفة ، آمنة ، خالية من القلق والحقد والرذيلة ، وسوف يكفل له السكينة القلبية ويحيطه بوسط إسلامي متعاطف ومتعاون . وبهذه البشارات ربما ننجح في جذب كثير من الماديين الدنيويين . وهذا يتطلب من الداعية ثقافة واسعة ومعارف متنوعة بالحياة اليابانية ـ وغيرها من القبيل نفسه ـ وبالهموم التي تثقل كاهل الأفراد البائسين .

● ويشهد عالم النفس الكبير C.G.Jung (١٨٧٥-١٩٦١م) بأن نبذ الدين يفضي إلى المرض النفسي ، فيقول : « طلب مني أناس كثيرون ، من جميع الدول المتحضرة ، مشورة في أمراضهم النفسية ، في السنوات الثلاثين الأخيرة . ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى ـ الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم أي

(1) Out of Control; pp . 104-106 .

تخطوا الخامسة والثلاثين ـ إلا الحرمان من العقيدة الدينية . ويمكن أن يقال : إن مرضهم لم يكن إلا أنهم فقدوا الشيء الذي تمنحه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عصر . ولم يُشْفَ أحدٌ من هؤلاء المرضى إلا عندما استرد عقيدته الدينية »[1].

- فعلى الداعية أن ينذر المستهترين والملحدين بسوء العاقبة الدنيوية ، وأن يبشر المؤمنين بأن إيمانهم بالإسلام ضمان للسلامة من الأمراض النفسية والعقلية . وعلى هذه الحقيقة يتفق علم النفس الحديث مع آيات القرآن الكريم .

● ويجب أن يدرك الدعاة أن نجاحهم في كسب ثقة المخاطبين شرط أساسي لنجاحهم . والمنهج العلمي الموضوعي الرصين هو الطريق إلى كسب الثقة . ولقد نتعلم هذا الدرس من سُنة نبينا ﷺ . فعندما نزل قول الله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٤) صعد على « الصفا » فجعل ينـادي : « يا بنـي فِهْرٍ ! يا بني عَدِي ! وبطون قريش الأخرى . وجاء أبو لهب مع من جاء من قريش ، فقال النبي ﷺ : « أرَأَيتكُم لو أخبرتكم أن خيلاً تجري بالوادي تريد أن تُغير عليكم ، أكنتم مُصَدِّقيَّ ؟ قالوا : نعم . ما جربنا عليك إلا صدقاً »[2].

بهذه الثقة ، أنذرهم سوء العاقبة إذا لم يَدَعُوا أصنامهم ويؤمنوا بالله الواحد الأحد ، وأفلح في دعوته ، على الرغم من رسوخ الشرك والوثنية . وبمثل هذه الثقة دعا أبوبكر الصديق عدداً من كبار القوم الذين أصبحوا من كبار الصحابة . وباتباع سنة رسولنا ﷺ ، يستطيع الدعاة أن ينجحوا في دعوتهم ، فالثقة هي السبيل إليه . لكن الفوز بثقة الناس يتطلب جهاداً ومثابرة وإرادة لا تلين ، وصبراً جميلاً في السراء والضراء .

* * *

تمت الدراسة بعون الله

---

(١) نقلاً عن كتاب : الإسلام يتحدى ، لوحيد الدين خان ؛ ص ١٨٨ .

(٢) العامري ؛ بهجة المحافل ؛ جـ ١ ص ٨٩ .

نداء وتوجيه للدعاة وبشْرى للمؤمنين

● كتب الأستاذ أبو الحسن الندوي رحمه الله ينادي المسلمين فقال : « إن آباءكم ـ أيها السادة المسلمون ـ قد انتشروا في عواصم الجاهلية الأولى ومراكزها الكبرى ، يقولون : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » . إن آباءكم خلَّصوا الأمة الرومية من عبادة المسيح والصليب والأحبار والرهبان والملوك ، وخلَّصوا الأمة الفارسية من عبادة النار وعبودية البيت الكياني ، والأمة الطورانية من عبادة الذئب الأبيض ، والأمة الهندية من عبادة البقر ، وأخرجوها إلى عبادة الله وحده ، وأخرجوها فعلاً من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام . والعالم ينتظر منذ زمان رُسل المسلمين ، ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية ، يهتفون : « الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن ، إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس والأثرة والجشع المادي إلى سعة عالم القناعة والإيثار والزهد ، ونعيم الروح وطمأنينة القلب ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية إلى عدل الإسلام »[1] .

● ويوجه الدعاة ويبشرهم فيقول الندوي : « وَ لْنَتَّجِهْ بهذه الدعوة إلى عوالم مهجورة وكنوز مطمورة في آسيا وفي إفريقية وإلى الشعوب التي ملكت الوسائل والعلم والصناعة . . . وجهلت الدين والغايات الصالحة ، والمبادئ الفاضلة . . وإذا قبلت هذه الدعوة وفقهتها وأخلصت لها ، تغير مجرى التاريخ من جديد ، كما تغير في العهد الأول بإسلام الفرس والترك والديْلم ، وفي العهد الأوسط بإسلام التتار والمغول »[2] .

---

(١) « إلى الإسلام من جديد » ؛ نشر المختار الإسلامي ؛ ط ٤ سنة ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م ؛ ص ١٩ .
(٢) نفسه ؛ ص ٥٤ ، ٥٥ .

خاتمة

- يحسن بنا في ختام هذه الدراسة أن نوجز القول في أهم ما أسفرت عنه من نتائج ، فنقول وبالله التوفيق :

- لقد أسفر البحث في الباب الأول عن نتيجة عامة مهمة ، هي أنه ذاع في المجتمعات المسلمة «هجين» مركب من مكونات إسلامية وأخرى مادية ، صَنَعَتْه جهود المستعمرين الأوربيين وجيوش المنصرين والمستشرقين ، بمساعدة بعض الحكام المسلمين المعجبين بالغرب ، وعدد من طلاب البعثات الذين حملوا الثقافة الغربية وروَّجوا لها . هذا «الهجين» انتشر بين المخاطبين في مجالات الفكر والسياسة والاجتماع ، والاقتصاد ، وسائر مجالات الحياة ، وأدَّى إلى انشقاق كل شعب مسلم إلى إسلاميين وحداثيين أو متغرِّبين ، وتطور أحياناً إلى حرب أهلية بين الجانبين ، وكان سبباً أساسياً في تخلف المسلمين .

- وأخطر العناصر المضادة للإسلام في «الهجين» الثقافي هي : الفلسفة المادية الملحدة ، والفلسفة العلمانية ، قرينة المادية ، المعادية للثوابت الإسلامية ، في العقيدة والشريعة والأخلاق . وقد نشأت نظم حكم علمانية ، رأسمالية واشتراكية ، وعانت الدعوة الإسلامية في ظل هذه النظم من القيود ، والاضطهاد ، الأمر الذي أدّى إلى ظهور دعاة يسايرون تلك النظم طمعاً في جوائزها وفراراً من قهرها ، على حساب الحقيقة .

- وفي هذا المناخ اختلفت أحوال المخاطبين . فبعضهم قبل المادية ، والعلمانية ، والنسبية ، مع فروق فردية واسعة . فثمة من ألْحَدَ صراحة ، وثمة من ارتضى الاجتزاء من الإسلام ، بمعايير مادية نسبية . وثمة من رفض نصوص الكتاب والسُّنة ، وقبل «روحها»!

- وانتشرت بين العامة عادات غربية عديدة في اللباس والطعام والشراب والعلاقات الاجتماعية ، بحيث اصطبغ المجتمع المسلم في بعض البلاد بالصبغة الغربية .

- وظهرت حركات ردة صريحة في الهند ، أخطرها « القاديانية » . وفي إيران ظهرت البابية ثم « البهائية » ، علاوة على الإلحاد المستند إلى الفلسفة المادية .
- وبصفة عامة طغت النزعة العلمية التجريبية على المتعلمين في العالم الإسلامي.
- ولهذا كله أصبح تطوير الخطاب الديني ضرورياً .
- وفي الباب الثاني عالجتُ قضية وسائل الدعوة ، وركزْت على الوسائل الجديدة الفعالة ، واقترحت :
- تشكيل فرق مسرحية إسلامية ، باعتبار الدراما أقوى وسائل التأثير في الجماهير ، عَبْرَ التلفاز والسينما والإذاعة ،
- كما اقترحت مشروع إنشاء مكتبة الحيِّ والقرية ، ورؤية جديدة لدور المكتبة ،
- وإصدار كتيبات لتصحيح الأفكار الخاطئة عن الإسلام في الداخل والخارج ، بالعربية واللغات الأجنبية ،
- واقترحت العودة إلى « تأليف القلوب » الذي نص عليه القرآن الكريم لاستمالة بعض الغربيين إلى الإسلام ،
- ومضاعفة الوسائل المالية من جوائز ومنح ومعونات اجتماعية ،
- ومعاونة خطيب الجمعة بلجنة استشارية باسم « أصدقاء الخطيب » ،
- ومعاونة الوعاظ بكتاب علمي موثق يستندون إليه بدلاً من الكتب الرائجة العامرة بالخزعبلات .
- واقترحت تطوير المناهج الدراسية في كليات الدعوة لكي تستوعب الوسائل الحديثة وتمكن طلابها من التمرس بها .
- وفي نهاية هذا الباب بينت الوسائل الدعوية التي استعملها كبار الدعاة في العصر الحديث ، وكيف أنهم لم يَدَعُوا وسيلة متاحة إلا استعملوها . وهذا يُوجِب على الدعاة اليوم أن يستفيدوا من هذه الحقيقة ولا يديروا ظهورهم لوسيلة خطيرة

كالمسرح ، والسينما ، لمجرد أن أولئك الرواد لم يستعملوها أوْ لأن الأعداء استأثروا بها !

- ومن نتائج الباب الثاني برزت حقيقة تؤكد أن التربية التي تُعتبر من أهم وسائل الدعوة تحتاج إلى اعتماد نظرية عامة ضابطة للمناهج الدراسية ، تجندها لتنشئة الأجيال المسلمة الصالحة . وهذه النظرية غائبة الآن بسبب وجود « الهجين » الثقافي الذي يضمن « التَّهادُم المتبادل » بين الفعاليات التربوية ـ وأعني بذلك أن ما يبنيه نشاط ما يهدمه آخر !
- ويعلمنا القرآن الكريم أهمية « القدوة الحسنة » للدعوة . لكننا نحبط مفعول هذه الوسيلة المهمة بالقدوات السيئة التي تعج بها وسائل الإعلام ، وتزخر بها النوادي والشوارع ، وحتى المدارس نفسها .
- ومن الوسائل العلمية للدعوة أكدتُ دور الكتاب الإسلامي ، الذي كان له الفضل في استعادة الثقة في إمكان بعث الحضارة الإسلامية ، واستقطاب الطبقة المثقفة والنخبة الرائدة في الجامعات إلى معسكر الإسلام . واقترحت إنشاء مؤسسة لنشر الكتاب الإسلامي في المجالات العلمية والشرعية والأدبية وتيسير وصوله إلى الطبقات الفقيرة ، وترجمة بعض المؤلفات إلى اللغات الأجنبية لتصحيح فكرة الأجانب عن الإسلام .
- ومن الوسائل العلمية للدعوة تحقيق التراث الإسلامي ، لكي نزود الباحثين بالأصول التي يستقون منها الأفكار والحقائق . ويلاحظ أن السائد الآن تكرار نشر بعض المؤلفات التراثية بقصد الربح ، والتوقف عن نشر المخطوطات التي لم تنشر من قبل ، وهذا ينذر بضمور شديد لحركة إحياء التراث الإسلامي .
- وتواجه العلماءَ موجةُ التغريب والإحلال الثقافي والتحلل من الشريعة . ولم يستطع الإفتاء مواكبة هذه الموجة بالتصدي لها . وقد عُقدت مؤتمرات إسلامية علمية لحسم المواقف إزاء بعض الأفكار ، لكن النظم العلمانية عبثت بهذه الوسيلة الدعوية المهمة ، فاختارت الموظفين المسايرين للنظام الحاكم

لعضويتها ، وطرحت الموضوعات التي يهمها الإفتاء فيها ، واستأثرت بلجان الصياغة لضمان الفتوى لصالحها ، أو الصمت إزاء أخطائها ، والأسس غير الشرعية التي يقوم عليها نظامها .

- وفي الفصل الحادي عشر عرضت للصحافة كوسيلة للدعوة ؛ وثبت من الدراسة أن الأمة المسلمة لم تستغل هذه الوسيلة الحديثة كما يجب ، لا في القرن التاسع عشر ولا في القرن العشرين ولا تزال الصحافة الإسلامية ضامرة ، وضحلة ، لأنها مكبلة بالقيود الثقيلة . وكذلك الأبواب والأعمدة التي تُكتب عن الإسلام . و«الاجتزاء» هو الخط السائد فيها بحكم سيادته في المجتمع عامة .
- ثم عرضت للإذاعة وأشرت إلى الأسباب التي أعاقتها عن أداء مهمتها الدعوية بنجاح .
- وفي الفصل الثاني عشر عالجت «الاتصالات الشخصية» بوصفها وسيلة أصيلة وفعالة للدعوة . وفي العصر الحديث تكثفت الاتصالات الشخصية بسبب يُسر الاتصالات ، ثم جاءت الشبكة الدولية (الإنترنت) لتصل العالم من أطرافه إلى أطرافه . ولم تكن هذه التيسيرات خيراً محضاً ، بل امتزج فيها الخير بالشر ، إذْ نشطت الدعوة المضادة للإسلام ، في مواجهة النشاط المحدد للدعاة المسلمين عَبْرَها ، ولابد من بحث علمي جاد لتلافي شرورها واستثمار إمكاناتها لصالح الدعوة .
- ومن الوسائل الدعوية الأصيلة المهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لكن النظم العلمانية الحديثة عَطَّلته ، وقد جعلت بعض المعروف الشرعي منكراً ، وبعض المنكر شرعاً معروفاً ، ونَصَّت على ذلك في دساتيرها وقوانينها . وأصبح من المحتم ممارسة نضال سياسي طويل وعسير لإعادة الأمور إلى نصابها ، وتعديل الدساتير والقوانين المجافية للشريعة الإسلامية . والمجالس النيابية هي التي تستطيع إجراء التعديل المنشود ، لكن سيطرة الحكم عليها تشل يدها .

- وتناول البحث الوسائل المالية للدعوة ؛ وهي : اعتماد الأموال للنشاط الدعوي بكل أشكاله ، من «تأليف القلوب» و «الخدمات الاجتماعية» ، وتشجيع البحوث العلمية والأدبية والشرعية بالمنح والجوائز ونشر المؤلفات الإسلامية وتوزيعها ، وترجمة بعضها إلى اللغات الأجنبية .

- وربما كان المسرح هو أهم الوسائل الدعوية التي اقترحتها . فهو الذي يزود التلفاز بالأعمال الدرامية التي تشد اهتمام الملايين ، ولا يضارعه نشاط إعلامي آخر . وقد بينت أن المسرح مشروع إسلاميٌّ ، وقد عُرضَت مسرحية في كلية الشريعة بالرياض ، وأيَّد شيوخ الأزهر العروض المسرحية الإسلامية منذ وقت مبكر . لكننا لا نزال نتردد في ممارسة التمثيل المسرحي ، في حين يستغرق أعداء الإسلام في نشاط محموم في المسرح والسينما والتلفاز والإذاعة والفضائيات التي تقتحم علينا مضاجعنا وتستولي على فكر أولادنا وعواطفهم ، وتجرفهم إلى خارج الإسلام وثقافته .

- وأما قضية تأصيل التطور في منهج الخطاب الديني فقد عُولجت في خمسة فصول (في الباب الثالث)، فتناولت:الدعوة بالحكمة،والدعوة بالموعظة الحسنة، والدعوة بالجدال ، ثم عَرَضْتُ للجدال مع الغرب في العصر الحديث ، وختمتُ الدراسة بفصل عن التوازن المنهجي في الدعوة والخطأ في الإخلال به .

- ومنهج الدعوة له أصوله القرآنية في قول الله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥)، وقوله تعالى ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ (يوسف:١٠٨) وهاتان الآيتان كسائر آيات القرآن الكريم قطعيتا الثبوت ؛ لكنهما ظنيتا الدلالة ؛ وهذه «الظنية» هي التي تتيح لنا تطوير المنهج ، علاوة على كون ألفاظ : الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال ، فيها سعة لاستيعاب معاني كثيرة ، تعيننا على مواجهة التطورات الهائلة في أحوال المخاطبين وفي الوسائل الدعوية . فالحكمة ـ مثلاً ـ تقتضي احترام العقلية العلمية التجريبية

الحديثة من أجل نجاح الدعوة ؛ وليس من الحكمة إهمال وسيلة دعوية فعالة كالمسرح والسينما . والموعظة لابد أن تتطور ، فلم يعد من المفيد الحديث عن المنامات والمدهشات التي لا سند لها من كتاب أو سُنة والتي تصدم المخاطبين من المتعلمين والمثقفين . والجدال بالتي هي أحسن يقتضي اليوم أن يستند الدعاة إلى البراهين العلمية التجريبية في مواجهة غير المسلمين ، وهذا يتطلب دراسة العلوم المادية ، للوقوف على تطوراتها ومناهجها ، ثم استعمالها لصالح الدعوة . واللجوء إلى الإسرائيليات والخرافات ليس من الحكمة ولا من الموعظة الحسنة بل هو موعظة سيئة ، وجدال بالتي هي أسوأ .

● وفي الفصل الأخير درستُ التوازنات المنهجية الضرورية في خطابنا الديني بين : الترغيب والترهيب والإنذار والتبشير والوعد والوعيد والترجية والتخويف ، وبينت الخطأ في مسايرة النزعة التربوية الأجنبية التي تميل إلى الترغيب والتبشير والوعد والترجية ، وتنفر من الترهيب والإنذار ، والوعيد والتخويف ، الأمر الذي يورط الداعية في التفريط المحرَّم ، وهو يظن أنه يُيسِّر .

● وبعد ، فأحسَبُ أنني رسمتُ صورة للملامح البارزة للواقع المعاصر ، والاختلافات الأساسية في أحوال المخاطبين ، ووسائل الدعوة المقترحة والحديثة والتقليدية التي يجب تطويرها لاستعمالها لمواجهة هذا الواقع المعاصر ، وبيَّنتُ التطوير المطلوب في وسائل الدعوة ، وفي المنهج الدعوي الإسلامي الأصيل دون الخروج على قواعده الثابتة الخالدة .

● وأعتقد أن هذه الدراسة قد عالجت قضية تطور الخطاب الديني من وجهة النظر الإسلامية .

والله تعالى من وراء القصد

دكتور أحمد عبدالرحمن

المراجع

- آلمر رايس ؛ المسرح الحي ؛ ترجمة د . داود حلمي السيد ؛ دار نهضة مصر ؛ بالقاهرة ؛ سنة ١٩٦٥م .
- ابن تيمية (شيخ الإسلام تقي الدين) ؛ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ؛ تحقيق الشيخ محمد بن عبدالله بن قاسم ؛ مطبعة الحكومة السعودية ؛ مكة المكرمة ؛ سنة ١٣٩٢هـ .
- ابن تيمية ؛ جامع الرسائل ؛ تحقيق د . محمد رشاد سالم ؛ نشر دار الشروق ؛ ط١ سنة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م .
- ابن تيمية ؛ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ؛ المطبعة الأميرية الكبرى ؛ مصر ؛ سنة ١٣٢١هـ .
- ابن تيمية ؛ الحسبة في الإسلام ؛ نشر دار الكاتب العربي ؛ (دون تاريخ) .
- ابن جرير الطبري ؛ جامع البيان (تفسير الطبري) ؛ تحقيق محمود شاكر ؛ نشر دار المعارف ؛ مصر ؛ سنة ١٣٧٤هـ .
- ابن حجر (أحمد بن علي) ؛ فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد ابن إسماعيل البخاري ؛ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ؛ المطبعة السلفية ومكتبتها ؛ مصر (دون تاريخ) .
- ابن حزم (الإمام أبو محمد على بن أحمد بن سعيد) ؛ الفُصَل في الملل والأهواء والنحل ؛ تحقيق د . محمد إبراهيم نصر ، د . عبد الرحمن عميرة ؛ نشر دار الجيل ؛ بيروت (دون تاريخ) .
- ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد) ؛ تلخيص الخطابة ؛ تحقيق د .عبدالرحمن بدوي ؛ نشر دار القلم ؛ بيروت (دون تاريخ) .
- ابن سعد (محمد)؛ الطبقات الكبرى ؛ تحقيق الدكتور حمزة النشرتي (وآخرين)؛ نشر المكتبة القيميَّة (دون تاريخ) .

- ابن سلام (أبو عبيد القاسم) ؛ كتاب الأموال ؛ تحقيق محمد خليل الهراس ؛ نشر مكتبة الكليات الأزهرية ؛ سنة ١٤٠١هـ-١٩٨١م .
- ابن القيم (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر) ؛ زاد المعاد في هدى خير العباد ؛ مكتبة البابي الحلبي ؛ بمصر ؛ سنة ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م .
- ابن القيم ؛ مدارج السالكين ؛ تحقيق محمد حامد الفقي ؛ نشر مكتبة السنة المحمدية (دون تاريخ) .
- ابن كثير (أبو الفداء) ؛ البداية والنهاية ؛ إعداد عماد عامر ؛ نشر دار الحديث ؛ بالقاهرة ؛ سنة ١٤١٤هـ-١٩٩٤م .
- ابن كثير ؛ تفسير القرآن العظيم ؛ نشر الدار المصرية اللبنانية . سنة ١٤١١هـ-١٩٩١م (لا توجد بيانات أخرى) .
- ابن ماجه (أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني) ؛ سنن ابن ماجه ؛ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ؛ نشر عيسى البابي الحلبي (دون تاريخ) .
- ابن هشام (أبو محمد عبدالملك) ؛ السيرة النبوية ؛ تحقيق مصطفى السقا (وآخرين) ؛ نشرمصطفى البابي الحلبي (دون تاريخ) .
- أبو الأعلى المودودي ؛ الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ؛ ترجمة خليل أحمد الحامدي ؛ نشر دار القلم بالكويت ؛ ط ٣ سنة ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م .
- أبو حامد الغزالي (الإمام محمد بن محمد بن محمد) إحياء علوم الدين ؛ طبع البابي الحلبي ؛ مصر (دون تاريخ) .
- أبو حامد الغزالي ؛ المستصفى ؛ تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا ؛ نشر مكتبة الجندي ؛ بالقاهرة ؛ (دون تاريخ) .
- أبو الحسن الندوي ؛ إلى الإسلام من جديد ؛ نشر دار المختار الإسلامي ؛ ط ٤ سنة ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م .
- أبو الحسن الندوي ؛ السيرة النبوية ؛ نشر دار الشروق ؛ ط ٥ سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .
- أحمد ديدات ؛ بين الإنجيل والقرآن ؛ نشر دار المختار (دون تاريخ) .

- أفلاطون ؛ محاورة الجمهورية ؛ ترجمة د . فؤاد زكريا ؛ نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (دون تاريخ) .
- البخاري (الإمام محمد بن إسماعيل) ؛ الأدب المفرد ؛ طبع دار الكتب العلمية ؛ بيروت (دون تاريخ) .
Z . Brzezinski; Out of Control; Maxwell Macmillian . Canada; 1993 .
- ج . كرامب و إي . جاكوب (مشرفان) ؛ مجموعة بحوث في تراث العصور الوسطى ؛ ترجمة محمد بدران ومحمد مصطفى زيادة ؛ نشر مؤسسة سجل العرب ؛ ١٩٦٥ .
- جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ؛ العروة الوثقى ؛ نشر دار الكتاب العربي ؛ بيروت ؛ ط ٣ سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .
- حسن عماد مكاوي (دكتور) وليلى حسين السيد (دكتورة) ؛ الاتصال ونظرياته المعاصرة ؛ نشر الدار المصرية اللبنانية ؛ ط ٣ سنة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م .
- الرازي (أبو حاتم عبدالرحمن) ؛ آداب الشافعي ومناقبه ؛ تحقيق عبد الغني عبد الرازق ؛ مكتب التراث الإسلامي ؛ حلب ؛ سوريا ؛ (دون تاريخ) .
- رشيد بو رديبه (وآخرون)؛ الجزائر في التاريخ ؛ نشر المؤسسة الوطنية للكتاب ؛ بالجزائر (دون تاريخ) .
- زكي نجيب محمود (دكتور) ؛ تجديد الفكر العربي ؛ دار الشروق ؛ ط ٥ سنة ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م .
- سمير سرحان (دكتور)؛ تجارب جديدة في الفن المسرحي ؛ نشر مكتبة غريب ؛ القاهرة (دون تاريخ) .
- سيد محمد أبو ذكري ؛ مسرحية الانتظار ؛ ضمن مجموعة المسرحيات الفائزة بجوائز وزارة الثقافة المصرية ؛ سنة ٢٠٠١م .
- الشاطبي (أبو موسى إسحاق إبراهيم بن موسى)؛ الموافقات في أصول الأحكام ؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ؛ نشر مكتبة محمد علي صبيح ؛ بالقاهرة (دون تاريخ) .

- شمس الدين محمد بن طولون ؛ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ؛ تحقيق محمد مصطفى ؛ نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ؛ القاهرة ؛ سنة ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م .
- عادل حسين ؛ إيران . . الدولة الإسلامية . . ماذا تعني؟ نشر المركز العربي الإسلامي للدراسات (دون تاريخ) .
- عباس محمود العقاد ؛ «محمد عبده» ؛ دار نهضة مصر ؛ القاهرة (دون تاريخ) .
- عبد الرحمن بدوي (دكتور)؛ تاريخ التصوف الإسلامي ؛ نشر وكالة المطبوعات ؛ بالكويت ؛ ١٩٧٥م .
- عبد الرحمن بدوي ؛ دفاع القرآن ضد منتقديه ؛ نشر دار الجليل ؛ (دون تاريخ) .
- عبد الرحمن عبد الهادي (دكتور)؛ دراسات في تاريخ المملكة العربية السعودية ؛ نشر دار الخريجي ؛ بالرياض ؛ سنة ١٤٢٣هـ .
- عبد المنعم محمد عبد المنعم ؛ مسرحية مَرْحَى غيلان ؛ ضمن مجموعة المسرحيات الفائزة بجوائز وزارة الثقافة المصرية ؛ سنة ١٩٩٩م .
- مالك (الإمام مالك بن أنس) ؛ الموطأ ؛ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ؛ نشر دارالشعب (دون تاريخ) .
- مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري) ؛ صحيح مسلم ؛ بشرح النووي (ولا توجد بيانات أخرى) .
- محمد أبو زهرة ؛ أصول الفقه ؛ دار الفكر العربي (دون تاريخ) .
- محمد أبو زهرة ؛ محاضرات في النصرانية ؛ دار الفكر العربي ؛ ط ٤ سنة١٣٩٢هـ-١٩٧٢م .
- محمد التومي ؛ الجدل في القرآن الكريم ؛ سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م (ولا توجد بيانات أخرى) .
- محمد جلال كشك ؛ الغزو الفكري ؛ نشر المختار الإسلامي ؛ ط ٤ سنة١٣٩٥هـ-١٩٧٥م .

- محمد حسين هيكل (دكتور) ؛ حياة محمد ؛ نشر مكتبة النهضة المصرية ؛ بالقاهرة ؛ ط ٩ سنة ١٩٦٥م .
- محمد خاتمي (دكتور) ؛ الدين والدولة ؛ نشر الدار العالمية للكتب والنشر (دون تاريخ) .
- محمد زكي العشماوي (دكتور) ؛ دراسات في النقد المسرحي ؛ دار النهضة العربية ؛ بيروت ؛ ١٩٨٠م .
- محمد الغزالي ؛ علل وأدوية ؛ دار القلم ؛ دمشق ؛ ط١ سنة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .
- محمد الغنيمي هلال (دكتور) ؛ في النقد المسرحي ؛ نشر دار العودة ؛ بيروت ؛ سنة ١٩٧٥م .
- محمد ماهر حمادة ؛ مراجع مختارة عن حياة رسول الله ﷺ ؛ نشر دار العلوم بالرياض ؛ ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م .
- محمد ماهر حمادة ؛ الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي (من سنة ٤٠ إلى سنة ١٣٢هـ) ؛ مؤسسة الرسالة ؛ ط ١ سنة ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م .
- محمد قطب ؛ منهج الفن الإسلامي ؛ نشر دار الشروق ؛ ط ٤ سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م .
- محمد قطب ؛ منهج التربية الإسلامية ؛ نشر دار الشروق ؛ ط ٦ سنة ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م .
- محمد قطب ؛ المستشرقون والإسلام ؛ نشر مكتبة وهبة ؛ ط ١ سنة ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م .
- محمد محمد حسين (دكتور) ؛ الإسلام والحضارة الغربية ؛ نشر المكتب الإسلامي ؛ بيروت ؛ ط ١ سنة ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩م .
- محمد يوسف نجم (دكتور) ؛ المسرحية في الأدب العربي الحديث ؛ نشر دار الثقافة ؛ بيروت ؛ ط ٣ سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م .
- محمود محمد رسلان (دكتور) ؛ الخطابة ؛ دار التقوى للنشر والتوزيع ؛ ط ٢ سنة ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م .
- مصطفى خالدي وعمر فروخ (دكتوران) ؛ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ؛ المكتبة العصرية ؛ بيروت ؛ سنة ١٩٨٣م .

- مصطفى السباعي (دكتور) ؛ الاستشراق والمستشرقون ، مالهم وما عليهم ؛ نشر المكتب الإسلامي ؛ ط ٢ ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م .
- مصطفى صادق الرافعي ؛ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ؛ دار الكتاب العربي ؛ بيروت ؛ ط ٨ (دون تاريخ) .
- فاروق عبد السلام الصاوي ؛ فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودي ؛ نشر دار المنار الحديثة ؛ القاهرة ؛ سنة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م .
- القرطبي (الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري)؛ الجامع لأحكام القرآن ؛ دار الشعب ؛ مصر ؛ (دون تاريخ) .

E . Kant; Critique of Pure Reason; trans . By J . D . Meiklejohn; London; J . M . Dent and Sons LTD، 1956 .

- وزارة الإعلام السعودية ؛ ندوة علمية حول الشريعة الإسلامية ؛ ط ٢ ؛ نشر وزارة الإعلام السعودية ؛ سنة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م .
- ولْ ديورانت ؛ قصة الحضارة ؛ المجلد الحادي والعشرون ؛ الفصل رقم ٢٥ ؛ ترجمة فؤاد أندراوس ؛ القاهرة ؛ ضمن مكتبة الأسرة ؛ سنة ٢٠٠١م .
- يوسف عزت باشا ؛ تاريخ القوقاز ؛ طبع استنبول سنة ١٣٣٠هـ-١٩١٢م .

* * *

الفهرس

الفصل الثامن
الوسائل التربوية
(١٠٧–١٢٠)

الفصل التاسع
الوسائل العلمية
(١٢١–١٣٢)

الفصل العاشر
الصحافة والإذاعة
(١٣٣-١٤٤)

الفصل الحادي عشر
الاتصالات المباشرة
(١٤٥-١٦٠)

الفصل الثاني عشر
الوسائل المالية
(١٦١-١٦٦)

الفصل الثالث عشر
المسرح
(١٦٧-١٨٨)

الباب الثالث
تطوير منهج الخطاب الديني
(١٨٩-٢٥٩)

الفصل الرابع عشر
الدعوة بالحكمة
(١٩١-٢٠٢)

الفصل الخامس عشر
الدعوة بالموعظة
(٢٠٣-٢١٨)

الفصل السادس عشر
الجدال بالتي هي أحسن
(٢٢١-٢٢٤)

الفصل السابع عشر
الحوار مع الغرب في العصر الحديث
(٢٤٥-٢٥٣)

الفصل الثامن عشر
توازنات منهجية
(٢٥٥-٢٦١)